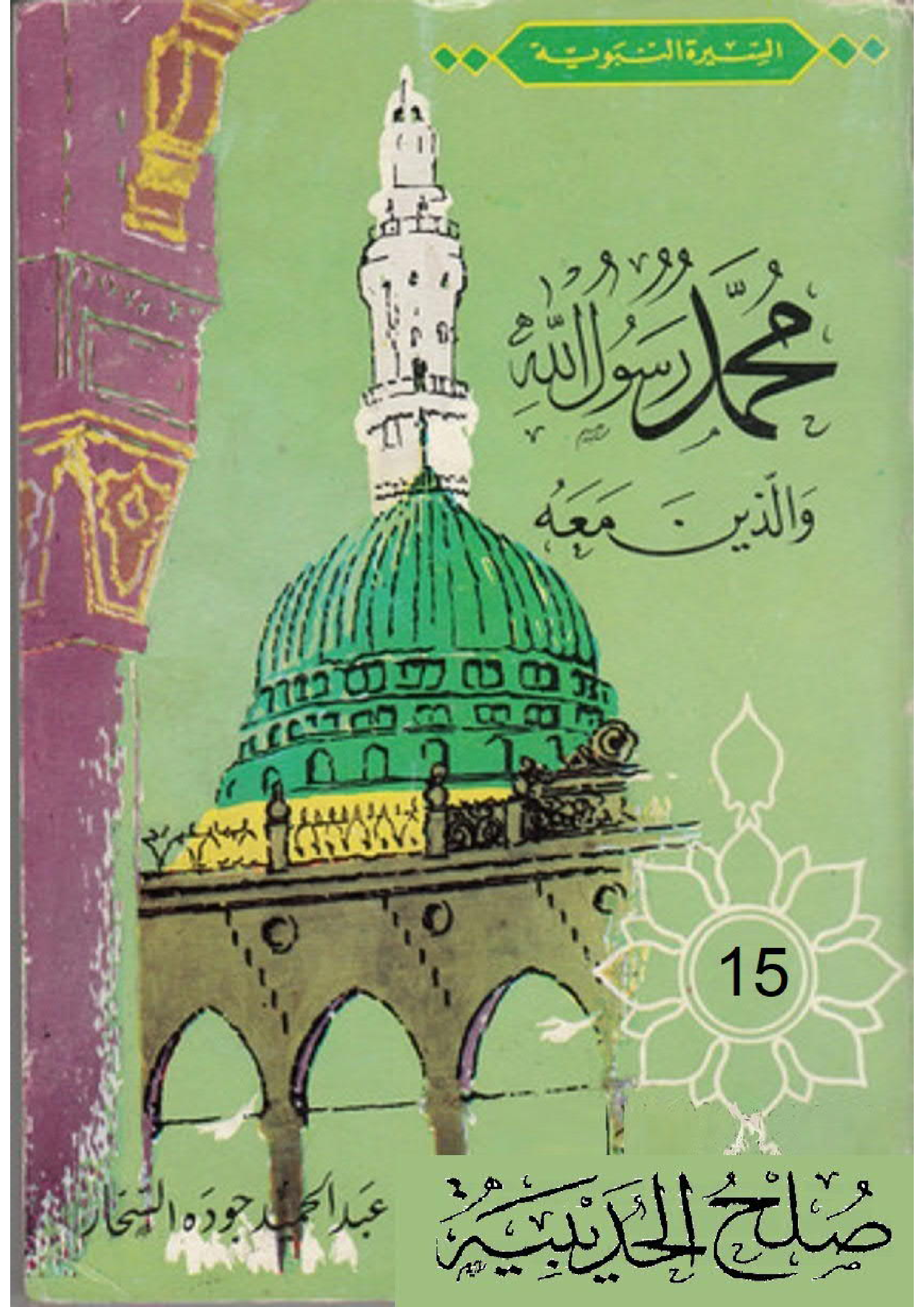

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
15
صلح الحديبية
عبد الحميد جوده السحار

السيرة النبوية



صلح الحديبية

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ .

(قرآن كريم)

(١)

أنفاس المدينة تسبيح ، شهيقها وحى السماء وزفيرها شكر وحمد لله رب العالمين ، وسمعها قرآن مجيد ، وبصرها ابتهال لبديع السماوات والأرض العزيز الحكيم ، وفؤادها أنوار قدسية أضاءها نور النور ، وروحها طاهرة قد تحررت من دنس الأرض فصارت مجنحة قادرة على أن تسمو لتتصل بروح الروح ، وعزيمتها ماضية زادها مضاء أنها توكلت على الحى الذى لا يموت .

وكان ثوب الليل حالك السواد ، قد هجع الوجود إلا أعين المؤمنين كانت شاخصة إلى السماء قد تحركت ألسنتهم بالدعاء واطمأنت قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . وكان رسول الله فى داره قانتا آناء الليل ساجدا وقائما يناجى ربه حاضر القلب دامع العين ، حتى إذا ما انتهى من المناجاة ذهب إلى فراشه ، وكانت عباءته قد ثنيت ثنيتين ، فنامت عيناه ولم يعرف قلبه النوم فقد كان متصلا بالملأ الأعلى على الدوام .

ورأى عليه السلام فى النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف هو وأصحابه مع الطائفين . وفى السحر قبل أن يؤذن بلال بالفجر خرج إلى المسجد متطلق الوجه تغمره سعادة عارمة ، فدخول مكة والطواف بالبيت العتيق وزيارة مراتع الصبا والشباب كانت أمنية من أعز أمانيه

وأمانى المهاجرين من أصحابه .

كانت قلوبهم تهوى إلى الحرم وإلى الصفا وإلى الحجون وإلى زيارة قبور الأحبة من المسلمين الذين ماتوا فى مكة قبل الهجرة ، فيا طالما استرجعت خيالاتهم ذكريات مجنة وذى المجاز وعكاظ وزمزم وأبى قبيس ودار الندوة وحجر إسماعيل ، ويا طالما رأوا أنفسهم بأعين الأمانى يحطمون الأصنام التى دنست أول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد .

وارتقى بلال حجرة حفصة وراح يرعى السماء حتى إذا ما حان الفجر تجاوب الأذان فى جنبات المدينة فخرج الناس من الدور من العالية ومن السافلة ليصلوا خلف الرسول . وجاء أبو بكر وعمر وعثمان وكبار المهاجرين إلى المسجد فلما قضيت الصلاة اجتمعوا عند أسطوانة المهاجرين ، فأقبل عليهم رسول الله — ﷺ — بادى البشر ثم أخذ مكانه بينهم وجعل يقص عليهم رؤياه وقد ألقوا إليه سمعهم مستبشرين فرحين بما أتاهم الله ، فقد صاروا جميعا موقنين أن الفتح قريب ، وأن مكة ستفتح لهم أبوابها إن طوعا أو كرها ، فرؤيا الأنبياء حق وما رأى نبى الإسلام عليه السلام رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

وأخبر عليه السلام أصحابه أنه يريد الخروج للعمرة فخفقت القلوب بالسرور وتهللت الوجوه بالفرح وقاموا ليتجهزوا للسفر ، وبعث عليه السلام يستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ممن أسلم ، غفار ومزينة وجهينة وأسلم ، خشية من قريش أن يحاربوه وأن يصدوه عن البيت فتثاقل كثير منهم وقالوا :

— أنذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه

فنقاتلهم !

واعتلُّوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بذلك ، فأنزل الله تكذيبهم فى اعتذارهم بقوله : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ﴾(١) .

وخرج — ﷺ — بعد أن اغتسل ببيته ولبس ثوبين وركب راحلته القصواء من عند بابه ، وخرج معه أم سلمة وأم عمارة وأم منيع وأم عامر الأشهلية ، وخرج معه المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، وقد استعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثى وساق معه الهدى سبعين بدنة فيها جمل أبى جهل الذى غنمه رسول الله — ﷺ — يوم بدر .

وصلى عليه السلام الظهر بأصحابه بذى الحليفة ، ثم أحرم بالعمرة وأحرم معه أغلب أصحابه وأشعر من الهدى عدة وهى موجهات للقبلة فى الشق الأيمن من سنامها ، ثم أمر — ﷺ — ناجية بن جندب ، وكان اسمه ذكوان فغير عليه السلام اسمه وسماه ناجية لما نجا من قريش ، فأشعر ما بقى وقلدهن نعلا نعلا ، وأشعر المسلمون بدنهم بجرح صفحة سنامها وقلدوها بأن وضعوا فى أعناقها قطعة جلد أو نعل بالية ليعلم أنه هدى فيكف الناس عنه .

كان الناس سبعمائة فكانت كل بدنة عن عشرة ، وليس معهم سلاح إلا السيوف فى القرب . وقال له عمر بن الخطاب :

— أتخشى يا رسول الله من أبى سفيان وأصحابه ولم تأخذ للحرب

---

(١) الفتح ١١ .

عدتها ؟

ــ لست أحب أن أحمل السلاح معتمرا .

وخرج عليه السلام معتمرا فى ذى القعدة ليأمن أهل مكة ومن حولهم من حربه ويعلموا أنه ــ ﷺ ــ إنما خرج زائرا للبيت ومعظما له . وكان مع المسلمين مائتا فرس هى مدخراتهم التى كونوها ليرهبوا بها عدو الله وعدوهم . كانوا يملكون يوم بدر فرسا واحدة فلما أمرهم الله أن يعدوا ما استطاعوا من رباط الخيل راح ــ ﷺ ــ يعنى بتربية الخيول ، وتكوين فرق فرسان المسلمين الخفيفة حتى استطاع أن يخرج إلى مكة معتمرا فى مائتى فارس من خيل المسلمين .

وقدّم عليه السلام عباد بن بشر أمامه طليعة فى عشرين فارسا ؛ وبعث بشر بن سفيان الكعبى إلى مكة عينا له ليتحسس أخبار قريش ليكون على بينة من أمر أعدائه ، وإنساب المسلمون فى الصحراء وقد ارتفعت التلبية من أعماق القلوب :

ــ لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وانشرحت الصدور وانهمرت من الأعين الدموع فهم فى الطريق إلى بيت الله الحرام ، وقد طهر الله قلوبهم من الشرك والضلال تداعبهم أمال الطواف بالبيت العتيق والسعى بين الصفا والمروة وإطفاء الظمأ من ماء زمزم ميراث أبيهم إسماعيل ، وما خطر لهم على قلب أن تصدهم قريش عن البيت فالكعبة بيت الله لا يصد عنها أحد من عباد الله ، فإليها يحج العرب من موحدين ونصارى ومشركين .

وبلغ رسول الله ــ ﷺ ــ والذين معه عسفان فجاء إليه بشر بن

سفيان فقال :

ــ يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بخروجك واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وأجلبت ثقيف معهم ومعهم النساء والصبيان وقد لبسوا جلود النمر ، وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم .

كانت خيل خالد مائتى فرس وقد صفت إلى جهة القبلة ، فأمر ــ ﷺ ــ عباد بن بشر فتقدم فى خيله فقام بازاء خالد وصف أصحابه ، وحانت صلاة الظهر فأذن بلال وأقام فاستقبل رسول الله ــ ﷺ ــ القبلة وصف الناس خلفه فركع بهم وسجد ثم سلم فقال خالد بن الوليد :

ــ قد كانوا على غرة لو حملنا عليهم أصبنا منهم ، ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم .

فنزل جبريل بين الظهر والعصر بقول الله تعالى : ﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا * وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾[1]

---

(١) النساء ١٠٢

وحانت صلاة العصر فصلى رسول الله — ﷺ — بأصحابه صلاة الخوف ، فلما جعل المسلمون يسجد بعضهم وبعضهم قائم ينظر إليهم قال المشركون :

— لقد أخبروا بما أردنا بهم .

كانت حركات قريش تدل على أنها تريد منعه ومن معه عن البيت ، فالتفت عليه السلام إلى أصحابه وقال :

— أشيروا على أيها الناس . أتريدون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟

فقال أبو بكر :

— يا رسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حربا فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه .

— يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا . وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ؟ فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة .

ثم قال عليه السلام :

— هل من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التى هم بها ؟

فقال ناجية بن جندب :

— أنا يا رسول الله .

فسلك بهم طريقا وعرا فانطلقوا يضربون فيه حتى نال منهم الجهد ، فلما خرجوا منه وقد شق عليهم ذلك وأفضوا إلى أرض سهلة

قال — ﷺ — :

— قولوا نستغفر الله ونتوب إليه .

فارتفعت أصوات المسلمين بالاستغفار والتوبة ، فقال عليه السلام :

— والله إنها للحطة التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها .

قيل لبنى إسرائيل : ﴿ ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾(١) ، فبدلوا وقالوا : حنطة استهزاء وجراءة على الله .

ولم يشعر بهم خالد بن الوليد إلا وقد نزلوا بذلك المحل فانطلق نذيرا لقريش ، ثم أمر — ﷺ — الناس أن يسلكوا طريقا تخرجهم على مهبط الحديبية من أسفل مكة فسلكوا ذلك الطريق ، وأصبح المسلمون على حدود الحرم وإن هى إلا خطوات حتى يصبحوا فى الأرض الحرام التى يأمن فيها الطير ، فثارت الدماء فى العروق وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير وخفقت الأفئدة وجدا ، وكان المهاجرون يتلفتون فى تأثر وقد غمرتهم إحساسات الشوق بعد أن شموا عبير الأرض التى تفتحت عليها أعينهم أول ما تفتحت والتى التصقوا بها التصاق الأبناء بالأم الرءوم حتى أخرجهم منها الظالمون بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾(٢) .

---

(١) البقرة ٥٨ .

(٢) الحج ٤٠ .

وانطلق الرسول عليه السلام على ناقته القصواء والمسلمون من حوله على خيلهم وإبلهم حتى إذا سلك ثنية المرار ولاح له سهل الحديبية ولم يبق إلا أن يتقدم بضعة أميال ليطوف بالبيت ويتحقق كل ما رآه فى رؤياه ، إذا بالقصواء قد بركت فانجفل الناس إليها وقالوا :

ـــ حل حل .

فألحت وتمادت على عدم القيام وظن الناس أنها قد حرنت فقالوا :

ـــ خلأت القصواء .

وعادوا يقولون لها :

ـــ حل حل .

فقال ـــ ﷺ :

ـــ ما حل ؟

ـــ خلأت القصواء .

ـــ ما خلأت« حرنت » وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة .

علم رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن ذلك صدّ له من الله عن مكة أن يدخلها قهرا ، فقال عليه السلام :

ـــ والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش إلى خطة يعظمون بها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

(٢)

كان خالد بن الوليد قد صف فرسانه عند كراع الغميم وهو يحسب أن المسلمين لن يستطيعوا أن يصلوا إلى مكة إلا إذا شقوا طريقهم فى فرسانه الذين كانوا فى عدة القتال وكان واثقا أن ذلك لن يكون ، فالمسلمون قد جاءوا محرمين ليس معهم إلا السيوف فى القرب ولن تغنى سيوفهم شيئا إذا ما عمدوا إلى العنف ، ولكن لما سلك المسلمون ذات اليمين فى طريق يخرجهم إلى ثنية المرار فى غفلة منه وأصبحوا على بعد تسعة أميال من مكة ولم ير إلا غبار الجيش ، تيقن أنه قد خدع وأصبح بقاؤه فى موضعه بلا معنى ، فركض راجعا إلى قريش ينذرهم أن محمد بن عبد الله والذين معه قد بلغوا الحديبية وأنهم فى طريقهم إلى الحرم .

كان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وكثير من سادات قريش فى سوق بصرى فى تجارة قريش ، وكان أمر مكة لسهيل بن عمرو . فراح خالد يقص على سهيل وحويطب بن عبد العزى وبديل بن ورقاء سيد بنى خزاعة ومكرز بن حرب أخى بنى عامر والحليس بن علقمة سيد الأحابيش وعروة بن مسعود الثقفى ما كان من المسلمين ، فرأى بنو كعب وبنو عامر أن يناجزوا محمدا عليه السلام والذين معه ، ورأى بديل بن ورقاء سيد بنى خزاعة أن يمشى إلى محمد ـــ ﷺ ، وأن يسأله عما أقدمه إلى مكة فى أصحابه ، فنظر إليه سادات قريش فى ريبة

فخزاعة مسلمها ومشركها لا يخفون عليه — ﷺ — شيئا كان بمكة بل يخبرونه به وهو بالمدينة ، وكانت قريش ربما تفطن ذلك .

وسار بديل بن ورقاء فى رجال من خزاعة حتى أتوا رسول الله عليه السلام وهو بالحديبية فقال :

— إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى قد نزلا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .

فقال النبى — ﷺ :

— إنا لم نأت لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا ماددناهم[١] مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمُّوا[٢] ، فوالله لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره .

قال بديل :

— سنبلغهم ما تقول .

فانطلق حتى أتى قريشا فقال :

— إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولا فإن شئتم أن نعرض عليكم فعلنا .

فقال سفهاؤهم :

— لا حاجة لنا فى أن تحدثنا عنه بشيء .

---

(١) ماددناهم مدة : جعلنا بيننا وبينهم مدة نترك الحرب فيها .

(٢) جموا : استراحوا .

وقال ذوو الرأى منهم :

ــ هات كما سمعته يقول .

فحدثهم بما قال رسول الله ــ ﷺ ، وقال لهم :

ــ إنه لم يأت لقتال إنما جاء زائرا لهذا البيت .

فاتهموه ولقوه بما يكره وقالوا :

ــ إن كان قد جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تتحدث بذلك عنا العرب ، أيريد محمد أن يدخلها علينا فى جنوده معتمرا تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ؟ ! والله لا كان هذا أبدا وبنا عين تطرف .

ثم بعثوا إليه ــ ﷺ ــ مكرز بن حفص أخا بنى عامر ، فلما رآه رسول الله عليه السلام مقبلا قال :

ــ هذا الرجل غادر.

فلما انتهى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وكلمه قال له رسول الله ــ عليه صلوات الله وسلامه ، نحوا مما قال لبديل ، فرجع إلى قريش وأخبرهم بما قال له رسول الله عليه السلام ، ثم بعثوا إليه ــ ﷺ ــ الحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله عليه السلام قال :

ــ إن هذا من قوم يتألهون (أى يتعبدون) ويعظمون أمر الإله . ابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه .

فلما رأى الهدى يسيل عليه بقلائد من عرض الوادى قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله الذى ينحر فيه من الحرم ، واستقبله الناس يلبون قد شعثوا صاح وقال :

ـــ سبحان الله ! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، أبى الله أن يحج لخم وجذام ونهد وحمير ويمنع ابن عبد المطلب . هلكت قريش ورب الكعبة ، إنما القوم أتوا عمَّارا .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ أجل يا أخا بنى كنانة .

ورجع إلى قريش فقال لهم :

ـــ إنى رأيت ما لا يحل منعه ، رأيت الهدى(١) فى قلائده قد أكل أوباره والرجال قد شعثوا .

فقالوا له :

ـــ اجلس فإنما أنت أعرابى ولا علم لك .

فعند ذلك غضب الحليس وقال :

ـــ يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هــذا عاقدناكم بصد عن بيت الله من جاء معظما . والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

كان الأحابيش بنى الهون بن خزيمة وبنى الحارث بن عبد مناف بن كنانة وبنى المصطلق بن خزيمة تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له حُبش هم وقريش على أنهم يد واحدة على من عاداهم ما سجا ليل ووضح نهار وما رسا حبش ، فسموا أحابيش قريش . فلما رأى سادات قريش غضب سيد الأحابيش قالوا له :

---

(١) الهدى : ما أهدى إلى مكة من الإبل ، والقلائد : ما يعلق فى أعناقها للدلالة على أنها هدى .

— مه يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله — ﷺ — عروة بن مسعود الثقفى ، إنه سمع قريشا توبخ بديلا ومن معه من خزاعة فقال :

— يا معشر قريش إنى رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد — وكان عروة لسبيعة بنت عبد شمس — وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى .

— صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فجلس بين يديه ثم قال :

— يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ يا محمد أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل(١) قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا . وإنى لأرى وجوها وأوشابا(٢) من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك ، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا غدا عنك .

وأبو بكر جالس خلف رسول الله — ﷺ — فقال له :

— اعضض بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟

وغضب عروة فاللات إلهة الطائف وهو سيد بنى ثقيف ، وإنها لكلمة تحط من شأنه وشأن معبوده فقال فى حنق :

---

(١) المطافيل جمع مطفل وهى ذات الطفل .

(٢) أوشاب : الأوباش والأخلاط .

ــ من هذا يا محمد ؟

ــ هذا ابن أبى قحافة .

فقال عروة لأبى بكر :

ــ لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها .

هم عروة بأن يقول لأبى بكر كلمة غليظة يجيبه بها عن كلمته التى قذفها في وجهه . ولكنه لما علم أن القائل أبو بكر الصديق أمسك فقد كانت لأبى بكر يد عنده لم يجزه بها ، فقد استعان عروة فى حمل دية فأعانه الرجل بالواحد من الإبل والرجل بالاثنين وأعانه أبو بكر بعشرة إبل شواب[1] ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله ــ ﷺ ــ وهو يكلمه وهذه عادة العرب أن الرجل يتناول لحية من يكلمه عند الملاطفة .

وكان المغيرة بن شعبة واقفا على رأس رسول الله ــ ﷺ ، وقد لبس درعه وغطت خوذته وجهه ولم يكن يبدو منه إلا عيناه ــ إنه يرى عروة وهو يتناول لحية رسول الله ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ ولا يرى عليه السلام يصنع النظير بالنظير ، فجعل يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله ــ ﷺ ــ بنعل سيفه ويقول :

ــ اكفف يدك عن مس لحية رسول الله ــ ﷺ ــ فإنه لا ينبغى لمشرك ذلك .

فالتفت إليه عروة وقال :

ــ ويحك ما أفظك وما أغلظك ، ليت شعرى من هذا الذى آذانى

---

(١) شواب : جمع مفرده شابة .

من بين أصحابك ؟ والله إني لا أحسب فيكم ألأم منه ولا شر منزلة .

فتبسم — ﷺ — وقال :

— هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة .

— يا غدر والله ما غسلت عنك غدرتك بعكاظ إلا بالأمس ، وقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر .

كان المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك من ثقيف صحبهم إلى مصر فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء إلى المدينة فأسلم ، ولما قتلهم المغيرة تهايج الحيان من ثقيف رهط القتلى ورهط المغيرة ، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر .

وراح رسول الله — ﷺ — يخبر عروة بن مسعود أنه لم يأت لحرب . ورأى عروة ما يصنع به أصحابه إذا تكلم خفضوا أصواتهم وإذا سقطت منه شعرة أسرعوا وأخذوها ولا يحدون إليه النظر تعظيما له ، فلما عاد عروة إلى قريش قال لهم :

— يا معشر قريش إني جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه ، والله ما رأيت ملكا فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه . ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا فروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشدا ، فاقبلوا ما عرض عليكم فإنى لكم ناصح مع أنى أخاف أن لا تنصروا عليه .

— لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور ولكن نرده عامنا هذا ويرجع إلى قابل .

— ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة(١) .

---

(١) القارعة : الداهية المفاجئة .

ثم انصرف عظيم القريتين الذى عنته قريش بقولها ، ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾(١) ، ومن معه إلى الطائف . ودعا رسول الله — ﷺ — خراش بن أمية الخزاعى فبعثه إلى قريش ، وحمله — ﷺ — على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقر عكرمة بن أبى جهل جمل رسول الله عليه السلام ، وأراد القوم قتل خراش فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله — ﷺ — وأخبره بما لقى .

وبعثت قريش أربعين رجلا منهم وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله — ﷺ — ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، فأخذوا وأتى بهم رسول الله — ﷺ — فعفا عنهم وخلى سبيلهم وكانوا رموا فى العسكر بالحجارة والنبل .

لم يقدم المسلمون لحرب بل جاءوا لزيارة أول بيت وضع للناس ، فلم يحملوا معهم عتاد الحرب اللهم إلا السيوف فى القرب ، وقد قال عليه السلام لكل من جاءه من قبل قريش أنه لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا للبيت . وقد بعث إليهم خراش بن أمية الخزاعى على جمل له ليقول لقريش إنه عليه السلام لم يأت لقتال فعقروا الجمل وأرادوا قتل خراش لولا أنْ منعته الأحابيش ، فلو أنه جاء يبغى الهجوم على مكة لوجد سببا للحرب فى عقر جمل رسوله ولكنه كان صادقا فى التماس السلام ، فرأى أن يبعث إلى سادات قريش عمر بن الخطاب سفيرهم فى الجاهلية فدعاه ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال عمر :

---

(١) الزخرف ٣١ .

ــ يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسى وما بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ، ولكن أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان .

كان بنو أمية بنى عم عثمان وكانت لهم الكلمة العليا فى مكة ، فإن كان عثمان قد أسلم وأصبح ذا النورين لزواجه من ابنتى رسول الإسلام فالعصبية القبلية لن تسمح بقتل عثمان وإلا لحق عار ذلك ببنى أمية ، فدعا رسول الله ــ ﷺ ــ عثمان بن عفان إلى أشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه لم يأت إلا زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته ، وأمر عثمان أن يأتى رجالا من المسلمين بمكة ونساء مسلمات ويدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله وشيك أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .

وانطلق عثمان إلى مكة ، وجاء عشرة من الصحابة إلى رسول الله ــ ﷺ ــ يستأذنونه فى الدخول إلى مكة ليزوروا أهاليهم فأذن لهم ، ولاحت لعثمان جبال مكة واستنشق عبير الأرض المقدسة فخفق قلبه شوقا . ولقيه قبل أن يدخل أم القرى إبان بن سعيد بن العاص فأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله ــ ﷺ .

وانقضى اليوم الأول والمسلمون فى الحديبية يترقبون سفارة عثمان . وقال بعضهم :

ــ قد خلص عثمان إلى البيت فطاف به دوننا .

فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون .

ــ وما يمنعه يا رسول الله وقدخلص إليه ؟

ـــ ذلك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف ، لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف به حتى أطوف .

(٣)

كان سهيل بن عمرو وسادات قريش جالسين فى ظل الكعبة وتقدم عثمان بن عفان بين يدى إبان بن سعيد بن العاص ، فلما رأوه مدوا إليه أعينهم وقد لاح فى الوجوه تساؤل فقال إبان :

ـــ إنى قد أجرته حتى يبلغ رسالة محمد .

واربد وجه عكرمة بن أبى جهل فهو لا يريد سلاما بل حربا لرسول الله ـــ ﷺ ـــ ومن جاء معه من المهاجرين والأنصار ، وشرد خالد ابن الوليد يفكر فى تلك الصلاة التى صلاها المسلمون بالعصر بعد أن قال لما شهد صلاة الظهر : « قد كانوا على غرة ، لو حملنا عليهم أصبنا منهم ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم » . وأتت الساعة وصلى أبو القاسم بأصحابه صلاة الخوف وقال المشركون : لقد أخبروا بما أردنا بهم ، ومنذ ذلك الوقت حفر ذلك القول فى وجدان خالد وجعله يفكر فى كل ما قاله محمد بن عبد الله فاتضحت لعين بصيرته بعض جوانب الحقيقة حتى كاد يصدق أن أبا القاسم يأتيه الخبر من السماء .

وراح عثمان بن عفان يبلغهم عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما أرسله به وخالد يصغى فى انتباه وأصوات تصيح :

ـــ إن محمدا لا يدخلها علينا أبدا .

فيضيق بتلك الأصوات ويرهف السمع إلى قول عروة بن مسعود قبل أن ينصرف ومن معه إلى الطائف : « يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه ، والله ما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا فروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشدا فاقبلوا ما عرض عليكم فإنى لكم ناصح ، مع أنى أخاف ألا تنصروا عليه » .

إن صراعا قد نشب فى جوف خالد ، ولو أصاخ السمع لصوت العقل لهب من مجلسه ولأعلن على الملأ أنه يرى رأى عروة بن مسعود وأنه من الظلم أن يصد إنسان عن بيت الله الحرام ما دام لم يأت إلا زائرا للبيت ومعظما له ، ولكنه أشاح عن صوت عقله لما فرغ عثمان بن عفان من تبليغ رسالة أبى القاسم ولما ارتفع صوت إبان بن سعيد بن العاص يقول لعثمان :

ـــ إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

وألقى خالد سمعه إلى عثمان فلما سمعه يقول :

ـــ ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ـــ ﷺ .

فعاد خالد بن الوليد يفكر فى الإسلام ونبى الإسلام فيستشعر كأن أنوارا تنداح فى عين ذاته تبدد ما ران عليها من ظلمات .

ومرت أيام ثلاثة ولم يعد عثمان بن عفان من سفارته ، فانتاب المسلمين قلق وراح المهاجرون والأنصار يتساءلون عما أصاب عثمان ، وكان الجد بن قيس فى الأنصار وكان سيد بنى سلمة فى الجاهلية ، فلما هاجر رسول الله عليه السلام إلى المدينة قال عليه السلام لبنى سلمة :

ــ من سيدكم ؟

قالوا :

ــ الجد بن قيس على بخل فيه .

ــ وأى داء أدوأ من البخل ؟

ثم قال ــ ﷺ :

ــ بل سيدكم عمرو بن الجموح .

وراض الجد بن قيس قلبه على النفاق فكان يبدى بلسانه ما ليس فى قلبه ، وكان عبد الله بن أبىّ بن سلول فى القوم فكان يحاول فى دهاء أن يفت فى عضد المسلمين وأن يجعلهم ينفضون من حول رسول الله عليه السلام ، لقد بعثت قريش إلى أبىّ بن سلول :

ــ إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل .

فقال له ابنه عبد الله :

ــ يا أبت أذكرك الله أن لا تفضحنا فى كل موطن . تطوف ولم يطف رسول الله ــ ﷺ ؟ !

فأبى حينئذ رأس المنافقين وقال :

ــ لا أطوف حتى يطوف رسول الله .

ومر بالمسلمين ناس من المشركين يريدون العمرة فقال المسلمون :

ــ نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنئان قوم أن

صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾[١] .

فتركوهم ينطلقون إلى بيت الله حتى إذا ما أذن بلال بصلاة الظهر توجهوا إلى القبلة يصلون خلف رسول الله — ﷺ ، فلما قضيت الصلاة ذهبوا يلتمسون الظل ، وتمدد رسول الله تحت شجرة الطلح وإذا برجل جاء إليه يسعى ويقول :

— قتل عثمان بن عفان .

فهب رسول الله — ﷺ — من رقاده وقال :

— لا نبرح حتى نناجز القوم .

والتفت عليه السلام إلى من عنده وقال :

— إن الله أمرنى بالبيعة .

فبينا الناس جلوس قائلون إذ نادى عمر بن الخطاب :

— أيها الناس البيعة نزل بها روح القدس ، فاخرجوا على اسم الله .

فساروا إلى رسول الله — ﷺ — وهو تحت شجرة قد قام على رأسه عبد الله بن مغفل وفى يده غصن من السحرة[٢] يذب عنه ، ولم يتخلف منهم أحد إلا الجد بن قيس فقد التصق بإبط ناقته يستتر بها من الناس !

وكان أول من بايعه — ﷺ — سنان بن أبى سنان الأسدى ، فوضع يده على يده عليه السلام وقال :

— أبايعك على ما فى نفسك .

---

(١) المائدة ٢ .

(٢) السحرة : شجر الطلح .

— وما فى نفسى ؟

— أضرب بسيفك بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل .

وصار الناس يقولون له :

— نبايعك على ما بايعك عليه سنان .

وبايعهم عليه السلام على ألا يفروا ، وبايع عن عثمان فوضع يده اليمنى على يده اليسرى وقال :

— اللهم إن عثمان ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله فأنا أبايع عنه .

وراح الناس يتحدثون عن قتل العشرة الذين دخلوا مكة بإذن رسول الله عليه السلام حتى جن الليل وقام محمد بن مسلمة على حرس رسول الله — ﷺ ، فبعثت قريش خمسين رجلا عليهم مكرز بن حفص وهو الذى بعثت قريش له — ﷺ — ليسأله فيما جاء وقال — ﷺ — فى حقه : هذا رجل غادر،فراحوا يطوفون بعسكر رسول الله رجاء أن يصيبوا منهم أحدا ويجدوا منهم غرة ، فأخذهم محمد بن مسلمة إلا مكرزا فإنه أفلت ، وأتى بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم —فحبسوا .

وبلغ قريش حبس أصحابهم فجاء جمع منهم حتى رموا المسلمين بالنبل والحجارة ، وقتل من المسلمين ابن زنيم رمى بسهم فأسر المسلمون منهم اثنى عشر رجلا.وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله — ﷺ — جمعا على رأسهم سهيل بن عمرو فعلم أن عثمان قد حبس وكذلك العشرة الرجال ، فاطمأن المسلمون على أصحابهم وقال رسول الله — ﷺ — لمن حبسوا عنده :

— سهيل أمركم ؟

فقال سهيل :

— يا محمد إن الذى كان من حبس أصحابك وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأى ذوى رأينا ، بل كنا كارهين له حين بلغنا ولم نعلم به وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أولا وثانيا .

— إنى غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابى .

— نفعل .

فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك فبعثوا بمن كان عندهم وهم عثمان والعشرة الرجال ، وأسرع المسلمون إلى عثمان يستقبلونه بالترحاب وقالوا له :

— طفت بالبيت ؟

فقال عثمان فى عتاب :

— بئسما ظننتم بى ، دعتنى قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت . والذى نفسى بيده لو مكثت بها معتمرا سنة ورسول الله — ﷺ — مقيم بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله — ﷺ .

وأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴾[1] .

وعلمت قريش بهذه البيعة فخافوا وراحوا يتشاورون فى أمرهم

---

(١) الفتح ١٠ .

وتمنوا لو أن أبا سفيان بن حرب كان فيهم ليرجعوا إليه ، ولم يجدوا خيرا من الصلح فقالوا لسهيل بن عمرو :

ـــ إيت محمدا فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا .

فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال :

ـــ قد سهل أمركم ، القوم مأتون إليكم بأرحامهم وسائلوكم الصلح ، فابعثوا الهدى وأظهروا التلبية لعل ذلك يلين قلوبهم .

فلبوا من نواحى العسكر حتى ارتجت أصواتهم بالتلبية ، وانتهى ابن سهيل عمرو ومكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وجثا سهيل على ركبتيه بين يديه ـــ ﷺ ـــ والمسلمون حوله جلوس وتكلم فأطال ، وقال له ـــ ﷺ :

ـــ تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به .

فقال له سهيل :

ـــ والله لا تتحدث العرب بنا أنا أخذنا ضُغطة (أى بالشدة والإكراه) .

ثم جرى الصلح بينهما ، فلما التأم ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب إلى أبى بكر الصديق فقال :

ـــ يا أبا بكر أليس برسول الله ـــ ﷺ ـــ حقا ؟

ـــ بلى .

ـــ أولسنا بالمسلمين ؟

ـــ بلى .

ـــ أوليسوا بالمشركين ؟

— بلى .

— فعلام نعطيهم الدنية[1] في ديننا ؟

— أيها الرجل إنه رسول الله وليس نعصى رأيه فاستمسك بغرزه[2] حتى تموت ، فوالله إنه لعلي الحق .

— أوليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت نطوف به ؟

— بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟

— لا .

— فإنك آتيه ومطوف به .

ثم جاء عمر إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— ألست رسول الله ؟

— بلى .

— ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

— بلى .

— فلم نعطى الدنية فى ديننا إذًا ؟

— إنى عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

— ألست تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟

— بلى ، هل أخبرتك أنك تأتيه العام ؟

— لا .

— فإنك آتيه ومطوف به .

---

(١) الدنية : الخصلة الخسيسة .

(٢) فاستمسك بغرزه : أى تمسك بأمره فلا تخالفه . والغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس .

(٤)

كانت قريش تأبى أن تلقى أسماعها إلى محمد ـ ﷺ ، إنها اضطهدته منذ جاء إليهم من غار حراء يقول لهم إنه رسول الله إليهم . نال منه الرجال وآذوه واضطهدوا أصحابه أشد الاضطهاد وأرغموه أن يخرج من مكة هو وغلامه زيد بن حارثة فلجأ إلى الطائف فراحوا يرضخون رجليه بالحجارة حتى سالت الدماء فى طريق الآلام .

إنه ما عاد إلى مكة إلا فى جوار سيد من ساداتها ، ولم يطل مكثه بها فقد اضطر إلى أن يهاجر إلى المدينة وأن يترك أم القرى وفى القلب لوعة فهو يغادر أحب أرض الله إليه . ولم ترض قريش عن هذه الهجرة فنشب القتال بينها وبين المهاجرين والأنصار لا يخبو له أوار ، وقد كان أمل قريش أن تقضى على ابنها الذى سفه أحلام الآباء .

كانت قريش تطلب رأسه وإذا بها اليوم تقبل أن تجلس معه لتهادنه ، إن الفرق بين اليوم والأمس فرق معجز ، وإنه لنصر عظيم أن تقر قريش بزعامته على المدينة ولكن المسلمين المعتزين بإسلامهم ما كانوا يرون فى معاهدة قريش نصرا .

تم الاتفاق شفاهة على ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام ويعودوا من حيث أتوا إلى العام القابل ، وعلى أن تخلى لهم قريش مكة ثلاثة أيام يطوفون فيها بالبيت الحرام ، وعلى أن لا يحملوا معهم سوى سلاح الراكب السيوف فى القرب ، وعلى أن يتهادن الطرفان ويكفا عن

الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ، وأن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأمر رسول الله — ﷺ — أوس بن خولة أن يكتب فقال له سهيل :

— لا يكتب إلا ابن عمك أو عثمان بن عفان .

فدعا عليه السلام على بن أبى طالب فأمره فقال :

— اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل بن عمرو :

— لا أعرف هذا ولكن اكتب : باسمك اللهم .

قال المسلمون :

— والله لا يكتب إلا باسم الله الرحمن الرحيم .

وضج المسلمون فقال رسول الله — ﷺ :

— اكتب باسمك اللهم .

فكتبها ، ثم قال عليه السلام :

— اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسولَ الله سهيل بن عمرو .

فقال سهيل :

— والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فقال رسول الله — ﷺ :

— والله إنى لرسول الله ولو كذبتمونى .

ثم قال لعلى :

— امح رسول الله .

— والله لا أمحوك أبدا .

وأخذ أسيد بن حضير وسعد بن عبادة بيد علي كرم الله وجهه ومنعاه أن يكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا وبينهم . وضجت المسلمون وارتفعت الأصوات وجعلوا يقولون :

— لم نعطى هذه الدنية في ديننا ؟

فجعل رسول الله — ﷺ — يخفضهم ويومىء بيده إليهم أن اسكتوا ، ثم قال لعلى :

— أرنيه .

فأراه إياه فمحاه رسول الله — ﷺ — بيده وقال :

— اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا أو معتمرا أو يبتغى من فضل الله فهو آمن على نفسه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو الشام يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، وعلى أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه .

فاشتد ذلك على المسلمين وقالوا :

— سبحان الله ! كيف نرد للمشركين من جاء مسلما ؟

وعسر عليهم شرط ذلك ، وقال عمر فى انفعال :

— يا رسول الله أتكتب هذا ؟ أترضى بهذا ؟

فتبسم — ﷺ — وقال :

— من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا ،

ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه فى شىء وليس منا بل هو أولى بهم .

فبينا رسول الله — ﷺ — هو وسهيل بن عمرو يكتبان الكتاب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين يرسف فى الحديد متوشحا سيفه . انه كان قد أسلم وحبسه أبوه فلما سمع بأن المسلمين فى الحديبية فر من سجنه وجاء إلى رسول الله — ﷺ — ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فخف إليه أخوه عبد الله بن سهيل بن عمرو من صفوف المسلمين وراح يحتضنه ويقبله ، وهرع المسلمون إليه يرحبون به ويهنئونه . فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه وأخذ غصنا من شجرة به شوك وضرب به وجه أبى جندل ضربا شديدا حتى رق عليه المسلمون وبكوا ، وأخذ سهيل بتلابيب ابنه وقال :

— يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلىّ ، لقد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ؟

— لم نفض الكتاب بعد .

— بل لقد لجت القضية بينى وبينك (أى تم العقد) .

— صدقت .

فجعل سهيل يجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته :

— يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونى عن دينى ، ألا ترون ما لقيت ؟

ورأى المسلمون آثار التعذيب ، إنه اضطهد ليرجع عن الإسلام وإن رسول الله — ﷺ — يقبل أن يرده إلى قريش ليعذبوه ، فزاد

الناس ذلك إلى ما بهم ودخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم ذلك وأعطونا عهد الله ألا نغدر بهم .

وقال النبى ـ ﷺ ـ لسهيل :

ـ فأجره لى .

ـ ما أنا مجير ذلك لك .

ـ بلى فافعل .

ـ ما أنا بفاعل .

فقال مكرز وحويطب :

ـ قد أجرناه لك ، لا نعذبه .

وقال حويطب لمكرز :

ـ ما رأيت قوما قط أشد حبا لمن دخل معهم من أصحاب محمد ، أما إنى أن أقول لك : لا نأخذ من محمد نصفا أبدا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة .

فقال مكرز :

ـ وأنا أرى ذلك .

وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب ومشى إلى جنب أبى جندل وأبوه سهيل بجنبه يدفعه ، وصار عمر يقول لأبى جندل :

ـ اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم كدم كلب .

وراح يدنى قائم السيف منه وهو يرجو أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه .

ودخل أبو جندل مكة فى جوار حويطب ومكرز ، وعاد سهيل ليستأنف كتابة الهدنة فقال النبى — ﷺ :

— وإن بيننا عيبة[1] مكفوفة ، وإنه لا إسلال ولا أغلال[2] . وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه .

فتواثبت خزاعة فقالوا :

— نحن فى عقد محمد وعهده ونحن على من وراءنا من قومنا .

وتواثبت بنو بكر فقالوا :

— نحن فى عقد قريش وعهدهم .

وهمس حويطب فى أذن سهيل :

— بادأنا أخوالك بالعداوة وكانوا يستترون منا فدخلوا فى عهد محمدوعقده .

وفهم سهيل أنه يقصد خزاعة فقال فى صوت خافض :

— ما هم إلا كغيرهم . هؤلاء أقاربنا ولحمتنا قد دخلوا مع محمد . قوم اختاروا لأنفسهم أمرا فما نصنع بهم ؟

— نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بنى بكر .

— إياك أن تسمع هذا منك بنو بكر فإنهم أهل شؤم فيسبوا خزاعة فيغضب محمد لحلفائه فينقض العهد بيننا وبينه .

فقال رسول الله — ﷺ :

---

(١) أى أمورا مطوية فى صدور سليمة .   (٢) أى لا سرقة ولا خيانة .

ـــ وعلى أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به .

فقال سهيل :

ـــ والله لا تتحدث العرب أنك أخذتنا ضغطة ولكن لك ذلك من العام المقبل .

فكتب : وعلى أن ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا ، ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف فى القرب وسلاح الراكب .

ولقى عمر من تلك الشروط أمرا عظيما ، وجعل يرد على رسول الله ـــ ﷺ ـــ الكلام حتى قال أبو عبيدة بن الجراح :

ـــ ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول ما يقول ؟ تعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

فجعل يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حتى قال له رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ يا عمر إنى رضيت وتأبى !

وفرغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الصلح وأشهد عليه رجالا من المسلمين : أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة ورجالا من قريش حويطبا ومكرزا .

وقال سهيل بن عمرو :

ـــ يكون هذا الكتاب عندى .

وقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ بل عندى .

فأخذه رسول الله — ﷺ ، ثم كتب محمد بن مسلمة لسهيل نسخة أخذها عنده .

كان جمل أبي جهل في الهدى في رأسه حلقة من ذهب ، ففر من الحديبية ودخل مكة وانتهى إلى دار أبي جهل . وخرج في أثره عمرو ابن غنمة الأنصارى فأبى سفهاء مكة أن يعطوه حتى أمرهم سهيل بن عمرو بدفعه ، قال :

— إن تردوه فاعرضوا على محمد مائة من الإبل فإن قبلها فأمسكوا هذا الجمل ، وإلا فلا تتعرضوا له .

فعرضوا عليه — ﷺ — ذلك فأبى وقال :

— لو لم يكن هذا الجمل للهدى لقبلت المائة .

كان أصحاب رسول الله — ﷺ — خرجوا وهم لا يشكون في الفتح بعد أن قص عليهم رؤياه ، فلما انتهى الأمر بالهدنة دخل الناس أمر عظيم ، فلما قال عليه السلام لأصحابه :

— قوموا فانحروا ثم احلقوا .

لم يقم منهم أحد فعاد يقول :

— قوموا فانحروا ثم احلقوا .

إنهم يسمعونه ويرونه ولكنهم أبوا أن يطيعوا أمره ، فقال :

— قوموا فانحروا ثم احلقوا .

فلم يقم منهم أحد ، فدخل رسول الله — ﷺ — على أم سلمة وهو شديد الغضب فاضطجع فقالت :

— ما لك يا رسول الله ؟

— عجبا يا أم سلمة ، ألا ترين إلى الناس ! آمرهم بالأمر فلا

يفعلونه ، قلت لهم : احلقوا وانحروا وحلوا مرارا فلم يجبنى أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامى وينظرون وجهى .

— يا رسول الله لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح . يا نبى الله اخرج ولا تكلم منهم أحدا كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حلاقك فيحلقك .

وأخذ عليه السلام الحربة وقصد هديه وأهوى بالحربة إلى البدن رافعا صوته :

— باسم الله والله أكبر .

ثم دخل — ﷺ — قبة له من أدم[1] أحمر ودعا بخراش بن أمية بن الفضل الخزاعى فحلق رأسه .

فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ، وحلق رجال وقصر رجال وهم يقولون :

— لعلنا نطوف بالبيت .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— يرحم الله المحلقين .

قالوا :

— يا رسول الله والمقصرين ؟

— يرحم الله المحلقين .

— يا رسول الله والمقصرين ؟

---

(١) الأدم : الجلد .

ــ يرحم الله المحلقين .

ــ يا رسول الله والمقصرين ؟

ــ يرحم الله المقصرين .

ــ يا رسول الله فلم ظاهرت الترحم على المحلقين دون المقصرين .

ــ لأنهم لم يشكوا .

(٥)

غابت الشمس فى الأفق الغربى وراح الليل يجرجر أذياله على الحديبية ، وقبل أن يؤذن بلال بالعشاء أصابهم مطر لهم يبل أسفل نعالهم فقال عبد الله بن أبىّ بن سلول :

ــ هذا نوء الخريف مطرنا بالشعرى .

وحان أوان العشاء فارتفع صوت بلال بالأذان فأمر ــ ﷺ ــ مناديه أن ينادى ألا صلوا فى رحالكم ، فصلى عليه السلام فى قبته وصلى الناس فى خيامهم وقد توجهوا إلى البيت الحرام وفى القلوب أشواق وفى النفوس أحزان . فقد خرجوا من المدينة لا يشكون لحظة فى أنهم سيطوفون بالبيت فإذا برسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يقبل ذلك الشرط الذى اشترطته قريش من أن يرجع عنهم عامه هذا فلا يدخل عليهم مكة ، فإذا كان عام قابل خرجوا عنها له فدخلها بأصحابه فأقام بها ثلاثا .

كان عزيزا عليهم أن يصلوا إلى الحديبية وأن يشموا عبير الحرم ثم

يدوروا على أعقابهم راجعين دون أن تكتحل أعينهم بتراب مكة وأن يطوفوا بالبيت وأن يشربوا من زمزم وأن يسعوا بين الصفا والمروة ، فكانوا في يقظتهم وفي منامهم يحلمون باستلام الحجر والطواف والتكبير والتهليل .

وفي الفجر جلجل صوت بلال بالأذان فخرجوا من رحالهم واصطف خلف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى إذا قضيت الصلاة قال :

— أتدرون ما قال ربكم ؟

— الله ورسوله أعلم .

— قال الله عز وجل : (أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا برحمة الله وفضله فهو مؤمن بى وكافر بالكواكب ، ومن قال مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بى) .

وأحس عبد الله بن أبى وخزا يخز روحه ولكنه لم يضطرب ، فيا طالما نافق ويا طالما قال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — استغفر لى فيستغفر له .

وأمر رسول الله عليه السلام بالرحيل فحملت الخيام على ظهور الإبل ورفعت النساء فى الهوادج ، وانطلق جيش المسلمين قاصدا المدينة وقد خلف وراءه شجرة الرضوان وذكريات أليمة على النفوس ، وقد كان أقساها أنهم طووا ملابس الإحرام دون أن يطوفوا بالبيت العتيق .

وظل الناس صامتين فى وجوههم أسى ، فقد حيل بينهم وبين نسكهم فهم بين الحزن والكآبة حتى سقط الليل ، ودنا عمر بن الخطاب من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فسأله عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فحرك عمر بعيره حتى تقدم أمام الناس وخشى أن يكون نزل فيه قرآن .

وبلغ رسول الله — ﷺ — كراع الغميم فوقف على راحلته فراح الناس ينشطون رواحلهم بالحداء ، فقال بعض الناس لبعض :

— ما بال الناس ؟

— أوحى إلى رسول الله — ﷺ .

فخرجوا يغذون[1] السير فوجدوا النبى — ﷺ — واقفا على القصواء ، فلما اجتمع إليه الناس قرأ :

﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما * وينصرك الله نصرا عزيزا * هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما * ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا * ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما * إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا * إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما . سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا

---

(١) أغذ السير : أسرع فيه .

وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا * ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا * ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما * سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا * قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما * ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما * لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا * ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما * وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما * وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا * ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا * سُنَّة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسُنَّة الله تبديلا * وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا * هم

الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محِلَّه ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم مَعرّة بغير علم ليدخل اللهُ في رحمته من يشاء لو تَزَيَّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما * إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميَّة حميَّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما * لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلِّقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركَّعا سجَّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مَثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾[1] .

فقال عمر :

ـــ أوفتح هو يا رسول الله ؟

ـــ نعم والذى نفسى بيده إنه لفتح .

وتكلم بعض الصحابة وقال :

ـــ ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت وصد هدينا .

---

(١) سورة الفتح .

فقال — ﷺ — لما بلغه ذلك :

— بئس الكلام بل هو أعظم الفتح . لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم وسألوكم القضية ويربحوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم الله سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح .

أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ؟

فقال المسلمون :

— صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح ..

وقدم رسول الله — ﷺ — المدينة ، وما كاد يستقر بها حتى هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وكانت أسلمت بمكة وبايعت قبل أن يهاجر رسول الله — ﷺ . إنها عرفت أن رسول الله عليه السلام أمر بقتل أبيها يوم بدر فلم تحقد على نبى الإسلام فقد كانت تعرف أنه على الحق وأن أباها على الباطل ، فلم تأخذها العزة بالإثم بل ظلت وفية لدينها الذى انشرح له صدرها واطمأن له فؤادها .

إنها سمعت بالمسلمين فى الحديبية فهزها الشوق إلى الخروج إلى إخوانها المسلمين فخرجت من مكة لتلحق بالأحبة ، ولكنها بلغت الحديبية بعد أن تركها رسول الله عليه السلام ، فلم ترض بالعودة إلى المشركين بل راحت تشتد على الطريق وحدها وقد تورمت قدماها من المشى ولكنها كانت تقاوم التعب ، فكل خطوة كانت تدنيها من النور

الذى شع من المدينة ليغمر العالمين .

إنها أخت عثمان بن عفان لأمه ، فلما بلغت المدينة لم تفكر فى أن تذهب إلى دار أخيها بل اتجهت إلى نبع النور إلى دور الرسول عليه السلام ، ودخلت على أم سلمة وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وراحت تبثها مخاوفها أن يردها رسول الله — ﷺ .

فلما دخل — ﷺ — على أم سلمة أعلمته بها فرحب بأم كلثوم ، فخرج أخواها عمارة بن عقبة والوليد بن عقبة بن أبى معيط فى ردها بالعهد ، فلما دخلا على رسول الله عليه السلام قالا :

— يا محمد أوف لنا بما عاهدتنا عليه .

ودخل عليه السلام على أم سلمة وعندها أم كلثوم فأخبرها أن أخويها يطلبان ردها بالعهد الذى بينه وبين قريش ، فقالت بنت عقبة :

— يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف فتردنى إلى الكفار يفتنونى ولا صبر لى .

وخرج رسول الله — ﷺ — من عندها وهو فى حيرة من أمره أيردها إلى الكفار ليفتنوها ولا صبر لها على إيذائهم أم يحبسها عنهم ، وفيما هو يفكر نزل عليه الروح الأمين : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وأتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم * وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾[١] .

ودخل عمر بن الخطاب ليمتحن أم كلثوم بنت عقبة فحلفها بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت لالتماس دنيا ولا رجل من المسلمين ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله .

وحلفت أم كلثوم فقطعت كل أمل يداعب أخويها فى ردها فعادا إلى مكة وأخبرا قريشا بذلك فرضوا أن تحبس النساء ، ولم يكن لأم كلثوم زوج بمكة . فلما قدمت المدينة زوجها عليه السلام زيد بن حارثة ولم تثر هذه الزيجة زوبعة بين المؤمنين ، بعد أن زوج نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه مولاه من ابنة عمته الشريفة النسب زينب بنت جحش . فقد قضى الإسلام على عادة استهجان زواج المولى من الحرة وغرس فى النفوس أن الناس سواسية وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

أمر الله المسلمين بألا يمسكوا بعصم الكوافر . فلما نزل نهى المسلمين عن البقاء على نكاح المشركات طلق الصحابة كل امرأة كافرة فى نكاحهم ، حتى أن عمر بن الخطاب كان له امرأتان فطلقهما فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان والأخرى صفوان بن أمية .

وجاءت إلى رسول الله — ﷺ — جماعة من النساء المؤمنات مهاجرات من مكة من جملتهن سبيعة بنت الحارث ، فأقبل زوجها وهو مسافر المخزومى طالبا لها ، فاستحلف — ﷺ — سبيعة

---

(١) الممتحنة ١٠ — ١١ .

فحلفت أنها ما هاجرت ناشزة ولا هاجرت إلا لله ولرسوله ، فأعطى — ﷺ — زوجها مسافرا ما أنفق عليها فتزوجها عمر بن الخطاب ، فما كانت تترك امرأة مؤمنة فى المدينة دون أن تحصن .

(٦)

خرج — ﷺ — على أصحابه فقال :

— أيها الناس إن الله بعثنى رحمة وكافة فأدوا عنى رحمكم الله ، ولا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم عليه السلام .

فقال أصحابه :

— وكيف اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام يا رسول الله ؟

— دعاهم لمثل ما دعوتكم له ، فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وأبى .

وكتب — ﷺ — كتابا إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام فقيل له :

— يا رسول الله إنهم لا يقرءون كتابا إلا إذا كان مختوما .

فاتخذ رسول الله — ﷺ — خاتما من فضة ، وكان نقش خاتمه ثلاثة أسطر محمد سطر ورسول سطر والله سطر . وبعد أن ختم الكتاب قال :

— من ينطلق بكتابى هذا فيسير إلى هرقل وله الجنة ؟

فتقدم دحية الكلبى وأخذ الكتاب ثم انطلق إلى بصرى فإذا بالرومان

والعرب يموج بعضهم فى بعض فى الأسواق وفى الطرق وفى كل مكان ، فإن هرقل قد انتصر على فارس وقد جاء ماشيا إلى بيت المقدس وفاء لنذره الذى نذره لربه إذا ما نصره الله .

كان النسر الرومانى يرفرف على الدور وعلى الحوانيت وعلى مبانى الحكومة ، وكانت الأسواق غاصة بالسلع التى جاءت من القسطنطينية ومصر وسورية واليمن ، وكان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وسادات قريش فى غزة عاكفين على شراء الحنطة والخمور والحرير وأوانى الذهب والفضة بعد أن باعوا البخور وما جلبوه من اليمن فى رحلة الشتاء .

وانطلق دحية إلى الحارث ملك غسان عظيم بصرى والتمس مقابلة قيصر ، فأرسل معه عدى بن حاتم ليوصله إلى قيصر فانطلقا إلى القيصر العظيم ببيت المقدس ، فلما دخلا على رجال القصر قالوا لدحية :

ـــ إذا رأيت الملك فاسجد له ثم لا ترفع رأسك أبدا حتى يأذن لك .

ـــ لا أفعل هذا أبدا ولا أسجد لغير لله .

ـــ إذًا لا يأخذ كتابك .

وشردوا يفكرون فقال رجل منهم :

ـــ أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له .

ـــ وما هو ؟

ـــ إن له على كل عتبة منبرا يجلس عليه ، فضع صحيفتك تجاه المنبر فإن أحدا لا يحركها حتى يأخذها هو ثم يدعو صاحبها .

فدخل دحية إلى قاعة العرش حيث ينظر هرقل المظالم ، فوضع

كتاب رسول الله — ﷺ — تجاه المنبر وعينه عليه لا تفارقه ، فلما جاء قيصر ومن خلفه من عظماء مملكته ورأى الكتاب تناوله وراح يقلبه وينظر فيه فوجد عليه عنوان كتاب العرب ، فدعا صاحبه فتقدم دحية الكلبى وقال إنه كتاب من محمد رسول الله — ﷺ — إلى قيصر العظيم .

فدعا هرقل الترجمان الذى يقرأ بالعربية فقرأ الرجل الرسالة وأخذ يترجمها ودحية الكلبى ينظر إلى قسمات وجه قيصر وقد حبست أنفاسه ، حتى إذا ما انتهى الترجمان من الرسالة قال هرقل :

— انظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه .

كان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام ورجال من قريش فى غزة فأتاهم والى شرطة قيصر فانطلق بهم حتى قدموا عليه فى بيت المقدس ، فإذا هو جالس وعليه التاج وعظماء الروم حوله ، فلما رأوه خروا له ساجدين ولم يرفعوا رءوسهم حتى أذن لهم .

ودعا قيصر ترجمانه وأمره أن يقرأ كتاب النبى — ﷺ — فراح الرجل يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (فلاحى القرى) ، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[1] .

---

(١) آل عمران ٦٤ .

وقال قيصر لترجمانه :

ـــ سلهم أيهم أقرب نسبا لهذا الرجل الذى خرج بأرض العرب يزعم أنه نبى ؟

فقال أبو سفيان :

ـــ أنا أقربهم نسبا إليه .

ـــ ما قرابتك منه ؟

ـــ هو ابن عمى .

ـــ ادن .

ثم أمر أصحابه فجعلوا خلف ظهره ، ثم قال لترجمانه :

ـــ قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى وإنما جعلتكم خلف ظهره لتردوا عليه كذبا إن قاله .

كان حكيم بن حزام ممن جلس خلف أبى سفيان وكان قد عزم على أن يرد كذب أبى سفيان إذا لجأ إلى الكذب ، فمحمد بن عبد الله زوج عمته خديجة الأثيرة عنده . فإن كان قلبه قد عمى عن النور الذى جاء به ابن عبد الله فقد أبى ضميره أن يسمع عنه كذبا ثم يلــزم الصمت . وخاف أبو سفيان أن يؤثر عنه الكذب ، ولولا أن ينقل عنه الكذب إلى قومه ويتحدثوا به فى بلاده لكذب عليه لبغضه إياه ومحبته نقصه .

ثم قال هرقل لترجمانه :

ـــ كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟

ـــ هو منا ذو نسب .

ـــ قل له هل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟

ـ لا .

ـ قل له هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال ؟

ـ لا .

ـ هل كان من آبائه ملك ؟

ـ لا .

ـ كيف عقله ورأيه ؟

ـ لم نعب عليه عقلا ولا رأيا قط .

ـ فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

ـ بل ضعفاؤهم .

ـ فهل يزيدون أم ينقصون ؟

ـ بل يزيدون .

ـ فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟

ـ لا .

ـ فهل يغدر إذا عاهد .

ـ لا ، ونحن الآن منه في ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

ـ فهل قاتلتموه ؟

ـ نعم .

ـ فكيف حربكم وحربه ؟

ـ دول وسجال ، ندال عليه مرة ويدال علينا أخرى .

ـ فما يأمركم به ؟

ـ يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وينهانا عما كان

يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والزكاة والعفاف ، ويأمرنا بالعهد وأداء الأمانة .

فقال لترجمانه :

ــ قل له إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل هذا القول قاله أحد منكم قبله فزعمت أن لا ، فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت هو يأتم بقول قبله ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آبائه ملك فقلت لا ، فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فزعمت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب إذا حصل به انشراح الصدور والفرح به لا يسخطه أحد ، وسألتك هل قاتلتموه قلت نعم وإن حربكم وحربه دول وسجال يدال عليكم مرّة وتدالون عليه أخرى . وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة ، وسألتك ماذا يأمركم به فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدقة ، والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر لأنها لا تطلب حظ الدنيا الذى لا يناله طالبه إلا بالغدر فعلمت أنه نبى ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه فيكم . وإن كان ما حدثتنى به حقا فيوشك أن يملك موضع قدمى .

وشرد هرقل لحظة تذكر خلالها تلك النبوءة التى قالها له المنجمون وهم يرتجفون فرقا : سيرث ملكك شعب مختون . كان يظن أن اليهود ذلك الشعب فصب عليهم سوط عذاب ، وما دار بخلده أبدا أن العرب هم ذلك الشعب فقد كانوا أهون من ذلك لولا أن شرفهم الله بالرسالة التى رفعتهم من الحضيض إلى ذروة المجد .

ثم قال قيصر فى تواضع :

ـــ ولو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت مع المشقة لقيه ، ولو كنت عنده لغسلت عند قدميه ولا أطلب منه ولاية ولا منصبا .

وعلت أصوات الذين حوله وكثر لغطهم ، وأكثر ابن أخى قيصر الغيظ الشديد . إنه قال لعمه يوم أن جاءه كتاب رسول الله عليه السلام :

ـــ قد ابتدأ بنفسه وسماك صاحب الروم ، ألق به .

فقال له هرقل وكان رجلا متدينا حارب الفرس ليعيد الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، وحج ماشيا من القسطنطينية إلى المدينة المباركة :

ـــ والله إنك لضعيف الرأى ، أرمى بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر وهو أحق أن يبدأ بنفسه ! ولقد صدق أنا صاحب الروم وما أملكهم ولكن الله سخرهم لى ولو شاء لسلطهم علىّ كما سلط فارس على كسرى .

وظل الصخب مدة وأبو سفيان والذين معه لا يدرون ما يقولون ، ثم أمر هرقل بإنزال دحية الكلبى وإكرامه وأمر بإخراج أبى سفيان وأصحابه . وبينا أبو سفيان والذين معه ينسحبون دون أن يولوا قيصر

ظهورهم قال قيصر لقومه :

ـ يا قوم ألستم تعلمون أن بين يدى الساعة نبيا بشركم به عيسى ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم ؟

قالوا :

ـ بلى .

ـ فإن الله قد جعله فى غيركم وهى رحمة الله عز وجل يضعها حيث يشاء .

وخرج أبو سفيان وأصحابه من القصر وهم صامتون تدور فى رءوسهم تلك المناقشة التى دارت بين هرقل وشيخ بنى أمية وقد تملكهم العجب . وتذكر حكيم بن حزام أحاديث عمته خديجة عن زوجها الأمين وأقوال ورقة بن نوفل فراح يسأل نفسه : ترى أيحجم عن التصديق خشية أن تذهب مفاخره فى قريش ؟ إنه صاحب دار الندوة وصاحب المكانة المرموقة فى مكة ، أفيضحى بكل أمجاده ليتبع أبا القاسم زوج سيدة نساء قريش ؟ !

ورفع أبو سفيان رأسه وقال :

ـ لقد أمر (عظم) أمر ابن أبى كبشة . هذا ملك بنى الأصفر يخافه .

وخطر على قلبه أن أبا القاسم سيظهر ، فراحت الغيرة تنهش صدره وانتابه خوف شديد .

(٧)

كانت بيت المقدس غاصة بالناس ، وراح الشعب يتدافعون بالمناكب ليصلوا إلى ميدان قصر قيصر ، فهرقل العظيم الذى جاء حاجا ماشيا على قدميه شكرا لله على أن نصره على أعدائه الفرس سيعود اليوم إلى حمص ومنها إلى القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية التى تزهو بالنصر ، وإن كانت المذاهب المتنافرة قد قطعت أوصالها ولم تجعلها على قلب رجل واحد .

كانت الأعلام تخفق على القصر وقد اصطف الجنود أمامه وقد لبسوا الخوذ ، والدروع تتألق فى الشمس تبهر الأبصار ، ووقف الناس على جانبى الطريق يمدون أعينهم إلى حيث سيخرج إمبراطورهم الظافر ، فلما نفخ فى الأبواق إيذانا بتحرك الركب العظيم ماج الناس بعضهم فى بعض واشرأبت الأعناق وحبست الأنفاس . ومس الآذان وقع حوافر الخيل فامتلأت النفوس نشوة ، فعما قليل يرون البطل الذى استرد الصليب وأعاده إلى كنيسته المقدسة فرد إلى الأرواح الحزينة بشرها ومسح عن كواهل شعبه ذل العار الذى جللهم[1] سنين مرت عليهم كأبشع كابوس يمر على شعب .

وخرج الفرسان على ظهور الجياد يحملون رماحا بأعلاها رايات تخفق بالنسر الرومانى ، فتعالت الأصوات بالهتاف حتى إذا ما ظهرت

---

(١) جللهم : غطى عليهم .

عربة الإمبراطور ضج الناس بالتصفيق وارتفعت هتافاتهم بحياة المنقذ تشق عنان السماء ، فجعل هرقل يرد تحياتهم بالتلويح إليهم بيده وابتسامة عريضة رسمها على شفتيه .

كان الموكب فخما ينم عن البذخ والثراء ، ولكن هرقل كان يعرف فى قرارة نفسه أن خزائنه قد خلت وأن حرب الفرس قد أذابت كل ما عنده وأنه قد استدان من البابا ورجال الدين مبالغ ضخمة قد تدفعه إلى فرض ضرائب جديدة على رعاياه الذين أنقضت الضرائب ظهورهم .

وكان البشر يبدو على وجوه الناس ولكن هرقل كان يعرف أن بشر اللحظة سرعان ما يغيض بعد أن يبتعد عن أعينهم ، فإمبراطوريته ممزقة بين المؤمنين بمذهب وحدة طبيعة المسيح والمؤمنين بأن للمسيح طبيعتين منفصلتين ، فهو إنسان لما كان على الأرض وهو إله بعد أن ارتفع إلى السماء . وقد خلفت المناظرات بين القائلين بوحدة طبيعة المسيح وبين القائلين باللاهوت والناسوت صدعا فى إمبراطوريته يهدد بالانهيار .

وشرد ذهنه يفكر فى إمبراطوريته المترامية الأطراف فكانت سورية ومصر أول ما شغل رأسه . فكنيسة بيت المقدس على مذهب يخالف مذهب القسطنطينية ، وكنيسة الإسكندرية تبث الثورة فى نفوس رعاياها الزنادقة المضطهدين المرهقين بالضرائب .

واحتلت كل كيانه تلك النبوءة القائلة بأن شعبا مختونا سينتزع منه ملكه ، ولوى شفته السفلى سخرية من تصرفاته . لقد سام اليهود ألوان الاضطهاد وما خطر له على قلب لحظة أن العرب هم ذلك الشعب ، فلو تمت لهم الوحدة السياسية واستثارهم الإلهام الدينى فسينزعون منه

سورية ومصر ، فعقيدة الإسلام الدينية أقرب إلى عقيدتهم من عقيدة خلقيدونية[١] .

إنه يجب أن يفوز بصداقة المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح ، وهذه الصداقة ستثير عليه البابا فى القسطنطينية وأتباع الكنيسة المؤمنة باللاهوت والناسوت والأم مريم حامية القسطنطينية ، ليته يستطيع أن يجد فكرة توحد قلوب المسيحيين المتنافرة .

واستولت على عين ذاته الأقوال التى قالها دحية الكلبى رسول نبى الإسلام عليه السلام ، إن دعوة محمد بن عبد الله تقضى على المتناقضات بين المذاهب السائدة فى إمبراطوريته ، وهى قادرة على أن تؤلف بين قلوب القائلين باللاهوت والناسوت والقائلين بالطبيعة الواحدة ، وهو يستشعر فى أعماقه أنه دين الفطرة الذى تقبله العقول والنفوس ، فما دام المسيح قد بشر بفارقليط آخر يبقى مع الناس إلى الأبد ، فلماذا لا يكون نبى الإسلام هو ذلك النبى الذى بشرت به الأنبياء ؟

أصبح يؤمن أن ملكه لن يثبت إلا إذا اعتنق الإسلام .

وراح شبح النبوءة القائلة بأن شعبا مختونا سيسلبه ملكه يتخايل له فيزداد رغبة فى أن يدخل فى الدين الجديد لينقذ عرشه ، فقد تركزت كل أمانيه فى الإبقاء على ملكه وبات يرتجف فرقا من أن يذهب سلطانه أو يثور عليه قومه فيقتلوه .

---

(١) مدينة اجتمع بها المجمع المسكونى الرابع وقد اعتبر مذهب وحدة طبيعة المسيح زندقة .

إنه فى حيرة لن يخلصه منها إلا أن يعرض الأمر على عظماء الروم إذا ما بلغ حمص . وجعل يتعجل الزمن حتى إذا ما لاحت حمص لعينيه راح قلبه يخفق بين جنبيه كجناح حمامة ، واستشعر رهبة لم يحس مثلها وهو يخوض غمار الحرب فهو مقبل على أخطر عمل يواجهه فى حياته ، وهل هناك أخطر من أن يطلب من الناس الانسلاخ من دينهم لاعتناق دين جديد ؟

ودخل حمص بين هتاف الجماهير ، وراحت عربته تخترق أقواس النصر حتى القصر وهو غارق فى مخاوفه لا يكاد يحس بالشعب الذى خرج لتحيته ولا يكاد يسمع الهتافات التى هزت جانب المدينة هزا .

ودخل القصر وهرع عظماء مملكته لتهنئته ، فأمر أن تغلق الأبواب ثم اطلع فقال :

— يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب وهم يقولون :

— أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيدا لأعرابى ؟

وأمر عظماء مملكته مناديا ينادى :

— ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه .

فدخلت الأجناد فى سلاحها وطافت بقصره تريد قتله . فأرسل إليهم :

— إنى أردت اختبار صلابتكم فى دينكم فقد رضيت .

وطلب من عظماء مملكته أن يعودوا ، فلما قفلوا راجعين قال لهم :

— إنى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت .

فسجدوا له ورضوا عنه وإن كان فى قرارة نفسه يستشعر عدم رضا عما وصلت إليه الأمور ، فهو يرجو فى قرارة نفسه أن يهتدى إلى فكرة توفق بين المذاهب المسيحية المتنازعة فى مملكته ، فإن كان عظماء الروم قد رفضوا اعتناق الإسلام فلابد من العثور على فكرة ترضى أصحاب المذاهب جميعا ليستريح من ذلك الشقاق الذى يهدد ملكه بالزوال .

وراحت القسطنطينية تتأهب لاستقبال هرقل المظفر ، فأخذ رجال الدين يعدون كنيسة الحكمة المقدسة أيا صوفيا للترحيب بالبطل الذى أعاد الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، وجعل رجال القصر يزينون التمثال الضخم المواجه للقصر وكان لثور يقاتل أسدا . وبين مدخل القصر وحلبة السباق أقيمت الزينات ورفعت الرايات ، وراح النسر الرومانى يرفرف على بوابة بيجاى التى تقود إلى حى البغايا .

وأضاءت نوافذ المركز التجارى لسوق الحرير ليلا ، فجاء الناس إلى دار الأنوار ينظرون ثم يتدفقون إلى ساحة استعراض الجيش التى غصت بكرائم البيزنطيات والشباب والبغايا .

وكانوا أخلاطا من سورية ومصر والبلقان والرومان ، وكان نصيب البيزنطى من التحزب العنصرى ضئيلا فدماؤهم كانت مختلطة ، وما كانوا يهتمون بالأصول بل بالدين فكل من آمن بالعقيدة الأرثوذكسية المقبولة فى البلاد واستطاع التحدث باليونانية يلقى منهم القبول كأخ فى المواطنة ، وكان احتقارهم العميق للأجانب لأنهم كفرة وزنادقة وأجلافا غير ملمين بتهذيبات الحضارة الإمبراطورية ورفاهيتها ، أما كل أجنبى يعتنق ديانة الدولة ويحصل على جنسيتها فله الحق فى الزواج من

بيزنطية مهما يكن أصله أو أصلها .

وكان هرقل يعرف شدة تعصب البيزنطيين لدينهم فطرد من ذهنه فكرة عرض الإسلام عليهم كما فعل فى حمص ، بل شغلته فكرة التوفيق بين المذاهب المتناحرة ليأمن عداوة أصحاب المذاهب المتعارضة مع مذهب القسطنطينية .

وأقبل الركب الملكى يتهادى فى حي زيجما على القرن الذهبى وقد قام فى وسطه تمثال عظيم لأفروديت[1] فإذا بالكتل البشرية قد اصطفت على جانبى الطريق واعتلت التماثيل والأشجار ، وراح النسوة ينثرن الورود على الموكب ، وانهمرت الدموع تأثرا من أعين العجائز ، فالقائد المظفر عائد من بيت المقدس بعد أن قبل صليب المسيح .

وانطلق الركب إلى كنيسة الحكمة المقدسة ، وما إن نزل هرقل من عربته حتى استقبله البابا هونوريوس الأول بالبركات ، وتجاوبت فى أرجاء الكنيسة التراتيل وحرقت أندر أنواع البخور . وسار هرقل وهو شارد اللب يفكر فى الصور والتماثيل التى زينت بها الكنيسة فقام فى نفسه سؤال : أيمكن رسم ألوهية المسيح وتصويرها ؟ فإن لم يكن أليس من الوثنية عبادة صور له ؟

كان ما سمعه عن الإسلام ومحاربته للوثنية هو المحرك لهذه الأفكار ، إنه وهو يتلو صلاته فى كنيسة أيا صوفيا قد اعتنق مذهب تحطيم الصور وإن طوى نفسه على أفكاره ، ولما انتهت المراسيم

---

(١) أفروديت : إله الحب والجمال والاخصاب .

وعاد إلى قصره واسترد أنفاسه بعث إلى البابا هونوريوس الأول وراح الرجلان يفكران فى تسوية لاهوتية توحد كلمة المسيحيين وترضى اليعاقبة والنساطرة وتقضى على الخلاف المشبوب حول طبيعة السيد المسيح ، فهداهما فكرهما إلى أن للمسيح طاقة واحدة ,فقط فراح هرقل يدعو إلى فكرة وحدة الإرادة وراح البابا هونوريوس الأول يؤيدها . ولقيت الفكرة بعض النجاح بالقسطنطينية ولم ترض أصحاب مذهب وحدة الطبيعة . ولم ينجح هرقل فى لم الشمل ورأب الصدع بل أضاف إلى المذاهب المسيحية التى يتعذر حصرها مذهبا جديدا فتح بابا واسعا للجدل والحوار .

كان أتباع وحدة الطبيعة يضيقون بالظلم الواقع بهم وما يملأ صدورهم من كراهية مقيمة لمراسيم خلقيدونية جعلتهم متذمرين على الدوام ، يبحثون عن الخلاص[1] .

وعاد دحية الكلبى إلى رسول الله — ﷺ — ومعه كتاب هرقل ، فقرىء عليه صلوات الله وسلامه عليه : (إنى مسلم ولكننى مغلوب) . فقال عليه السلام .

— كذب عدو الله ليس بمسلم .

وقدم دحية إليه عليه السلام هدية هرقل فقسمها بين المسلمين . وشح هرقل بالملك فطلب الرياسة وآثرها على الإسلام : ﴿ قل يا أيها

---

(١) وقع هرقل الوثيقة المحتوية على الاعتراف الجديد (Ezthesis) سنة ٦٣٦ م ، وفى نفس السنة وقعت معركة اليرموك بين العرب والروم وقد وجد السوريون الخلاص الذى كانوا ينشدونه .

الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل * واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾[1] .

(٨)

حبست قريش أبا بصير بن أسيد بن جارية الثقفي ومنعته من الهجرة إلى رسول الله عليه السلام ، فانفلت منهم وانطلق إلى المدينة ليلحق بإخوانه المسلمين . ولما علمت قريش بخروجه كتب فى رده أزهر بن عوف عم عبد الله بن عوف والأخنس بن شريق كتابا إلى رسول الله — ﷺ — وبعثا رجلا من بنى عامر بن لؤى ومعه مولى لهم وجعل لهما الأخنس فى طلب أبى بصير جعلا . فقدما على رسول الله عليه السلام بالكتاب فقرأه أبىّ على رسول الله — ﷺ — فإذا فيه : « قد عرفت ما شارطناك عليه من رد من قدم عليك من أصحابنا فابعث إلينا بصحابنا » .

فقال النبى — ﷺ :

— يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلى قومك .

— يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنوننى عن دينى ؟

---

(١) الزمر ٤١ ، ٤٢ .

ــ انطلق فإن الله سيجعل لك فرجا ومخرجا .

ودفعه إليهما والدموع فى أعين المسلمين ، وصار المسلمون يقولون له :

ــ الرجل يكون خيرا من ألف رجل .

يغرونه بالذين معه ، حتى إذا كانا بذى الحليفة على بعد ستة أميال من المدينة سل أحد الرجلين سيفه ثم هزه وقال :

ــ لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوما إلى الليل .

فقال له أبو بصير :

ــ أو صارم سيفك هذا ؟

ــ نعم .

ــ ناولنيه أنظر إليه .

فناوله إياه ، فلما قبض عليه ضربه به حتى فارق الحياة ، ولما رأى المولى مقتل صاحبه أطلق لساقيه الريح ، وراح أبو بصير يطلبه وفى يده السيف وكانت مطاردة رهيبة خيم عليها الموت ، المولى على دابته يطوى الأرض وقد تملكه الرعب وأبو بصير على عير العامرى يجدّ فى أثره ، واستشعر المولى تعبا وانبهرت أنفاسه وسال العرق حتى ملأ عينيه ولكنه لم يستطع أن يهدىء من سرعة عدو دابته ، والموت قد أصبح أدنى إليه من شراك نعله . ولاحت له المدينة فقوى الأمل من روحه حتى إذا بلغ مسجد الرسول عليه السلام نزل عن دابته فوسع من خطوه حتى أتى رسول الله ــ ﷺ ــ وهو جالس فى المسجد ، فلما رآه رسول الله ــ ﷺ ــ والحصا يطن تحت قدميه من شدة عدوه قال عليه السلام :

— إن هذا الرجل قد رأى فزعا .

فلما انتهى إلى رسول الله — ﷺ — وهو جالس فى المسجد قال له :

— ويحك مالك ؟

— قتل صاحبكم صاحبى وأفلت منه ولم أكد ، وإنى لمقتول .

واستغاث برسول الله — ﷺ — فأمنه ، فإذا أبو بصير أناخ بعير العامرى بباب المسجد ودخل متوشحا السيف ووثب على رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله وفت ذمتك وأدى الله عنك ، استلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه ويفتن بى .

فقال له رسول الله — ﷺ — :

— اذهب حيث شئت .

— يا رسول الله هذا سلب العامرى رحله وسيفه فخمسه .

— إذا خمسته رأونى لم أوف لهم بالذى عاهدتهم عليه ، ولكن شأنك بسلب صاحبك واذهب حيث شئت .

فخرج أبو بصير معه خمسة نفر كانوا قدموا مسلمين من مكة حيث قدم ولم يطلبهم أحد ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال !

وسار أبو بصير والذين معه حتى نزلوا بين العيص وذى المروة من أرض جهينة على طريق عيرات قريش مما يلى سيف البحر ، وجاءت قافلة لقريش فانقضوا عليها انقضاض الأسود الكاسرة فقتلوا بعض الرجال وفر الآخرون وسلبوا ما فى القافلة . فلما بلغ الخبر قريش نزل

بهم هم ثقيل ، ولكنهم راحوا يطمئنون أنفسهم أنها غارة من غارات قطاع الطريق .

وكان أبو جندل بن سهيل بن عمرو فى مكة حزينا بعد أن رده المسلمون إلى أبيه تنفيذا لصلح الحديبية ، فلما بلغه قول الرسول عليه السلام : (ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال) عزم على الخروج ليلحق بأبى بصير وليكون شوكة فى جنب المشركين ، فراح يدور على المسلمين المحبوسين فى مكة يزين لهم اللحاق بأبى بصير فاتفق معه سبعون رجلا على الخروج لإعلاء كلمة الله .

وفى جنح الليل انسل الرجال ، وما كادت الشمس تشرق فى الأفق الشرقى حتى كان سبعون راكبا يطوون الصحراء حتى إذا بلغوا مكان أبى بصير وجدوه يؤم أصحابه ويصلى بهم فصلوا خلفه ، فلما قضيت الصلاة أقبل الرجال على الرجال يتعانقون وقد انعكست أنوار القلوب على الوجوه .

وصار أبو جندل بن سهيل بن عمرو زعيم الفدائيين يؤمهم فى الصلاة ويقودهم فى الغارات على قوافل قريش ، واجتمع إليه الناس من بنى غفار وأسلم وجهينة وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل وهم مسلمون . ولاحت فى الأفق البعيد عير لقريش فامتطى الرجال صهوة الخيل ثم انقضوا على القافلة انقضاض النسور ، فدارت معركة بين المسلمين والحراس قعقع فيها السلاح وسالت الدماء وسقطت الجثث على الرمال وأصوات المسلمين تدوى بالتكبير فتتزلزل قلوب الكافرين . وانجلت المعركة عن قتل أصحاب العير وسقوط القافلة غنيمة فى أيدى أبى جندل وأبى بصير والذين معهما من المجاهدين .

وخرج رجال من مكة يتنسمون أخبار القافلة ، إنها غابت عن موعد أوبتها والمخاوف من أن يكون أبو بصير قد أخذها قد استولت على القلوب . وراح سادات قريش يتحدثون نجوى ، وأخذ أبو سفيان يلوم سهيل بن عمرو لأنه أعاد ابنه عنوة يوم الحديبية و لم يتركه يذهب مع المسلمين وقد ذهب أخ له من قبل ، فلو أن أزهر بن عوف والأخنس بن شريق لم يبعثا فى طلب أبى بصير لما انفلت إلى مكة ، ولو أن سهيل بن عمرو ترك ابنه يذهب حيث شاء ما نزلت بقريش النكبات التى أنزلها بهم هؤلاء الرجال الذين قطعوا مادة قريش من طريق الشام .

وعاد الرجال الذين خرجوا من مكة للبحث عن عير قريش القادمة من الشام مطأطئى الرءوس قد عبرت قسمات وجوههم عن النبأ الفاجع ، ودقت الأفئدة فزعا فى الصدور . ولاح الهلع فى الوجوه وندت صيحات وله من بين شفاه النسوة قبل أن يفتح رجل من العائدين فمه ، فقد قرأن فى أعينهم المأساة التى حاقت بأصحاب العير .

وتقدم أبو سفيان من الرجال والدماء تتدفق فى عروقه كالنار من الغضب وقال :

ـــ ماذا أصاب العير ؟

فراح رجل ينشد ما قال أبو جندل :

أبلغ قريشا عن أبى جندل ... أنا بذى المروة بالساحل

فى معشر تخفق راياتهم ... بالبيض فيها والقنا الذبل[1]

يأبون أن تبقى لهم رفقة ... من بعد إسلامهم الواصل

---

(١) الذبل : الدقيقة اللاصقة القشر .

أو يجعـــل الله لهم مخرجـــا والحق لا يغـلب بالباطـــل
فيسلـــم المرء بإسلامـــه أو يقتـــل المرء ولم يأتـــل(١)

وذاع النبأ فى مكة فامتلأت الدور بالنوح ، وانسل سادات قريش إلى دار الندوة ليتشاوروا فى ذلك البلاء الذى نزل بهم فهؤلاء الركب قد فتحوا على مكة بابا لا يصلح إقراره .

(٩)

هزم هرقل كسرى برويز واسترد الصليب المقدس من المدائن وأعاده إلى بيت المقدس ، ولكن ألقاب كسرى الثانى لم تهتز بل ظل الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل .

ولم يزر كسرى المظفر المدائن منذ حوالى سنة ٦٠٤ م حتى زمن غزو هرقل سنة ٦٢٧ ، وذلك لأن المنجمين والعافة نبئوه بأنها شؤم عليه ، إنما كانت إقامته المحببة إلى نفسه دستكرد التى تقع على الطريق الحربى الواسع الذى يذهب من المدائن إلى همدان .

وكان كسرى الثانى على الرغم من هزيمته يرتدى أفخر الثياب ، فملابسه قد زينت بأشرطة تتكون من ثوب ذى أكمام يتدلى إلى ما تحت الركبتين وسروال واسع وكلها مرصعة بالجواهر . وأطراف الثوب والحمالة وغمد السيف وكذلك السروال مزينة بفصوص كثيرة من

---

(١) يأتل : لم يقصر .

اللؤلؤ ، وقد زين رقبته بعقود من اللؤلؤ .

ودخل كسرى برويز قاعة العرش وجلس تحت التاج وكان معلقا بسلسلة ذهب من الإيوان ذرعها سبعون ذراعا كيما يماس رأس الملك ولا يؤذيه ولا يثقله ، وهو يزن واحدا وتسعين ونصف كيلو جرام .

وأحاط بالمظفر كبار رجال البلاط ، ونفذت إلى قاعة العرش أضواء أخاذة من خلال الخمسين ومائة كوة التى فى القبة والتى يبلغ قطر كل واحدة منها من اثنى عشر إلى خمسة عشر سنتيا .

وسمح لطالبى المثول بين يدى الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال بالدخول . فدخل بعضهم فخروا ساجدين . فلما أذن لهم برفع رءوسهم أخذوا بمنظر صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس فسردوا ما جاءوا من أجله وهم يرتجفون ، حتى إذا ما غادروا الرجل الخالد أخذوا يزفرون فى ارتياح كأنما يلفظون عن صدورهم عبئا ثقيلا .

ودخل عبد الله بن حذافة السهمى على كسرى ثابت الخطو ، فيا طالما دخل عليه من قبل و لم يسجد له بل سار يتقدم حتى وصل إليه فدفع إليه كتاب رسول الله — ﷺ ، فإذا به كتاب مختوم ، فجعل يقلبه لحظات بين يديه ثم دفعه إلى ترجمانه فراح يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس .

وغضب صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل ، فكيف بدأ محمد بنفسه ؟ وصاح ومزق الكتاب وأمر بإخراج عبد الله بن حذافة فخرج ثابت الجنان فقعد على راحلته وسار ، حتى إذا ما وصل إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أخبره الخبر فقال عليه السلام :

— اللهم مزق ملكه .

— غضب كسرى برويز غضبا استولى على كل تفكيره ، فقرآن ذلك الرجل الذى بعث إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام قد وعد بنصر الروم : ﴿ ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ﴾(١) .

لقد انتصر هرقل على كسرى ولكن ينبغى ألا يفرح محمد وأتباعه بهذا النصر بل ينبغى اعتباره ثائرا على المجوسية . فبين العرب قبائل تدين بالمجوسية وإن عليه وهو رأس الدولة المجوسية أن يحمى تلك القبائل وأن يعلن الحرب على محمد والمسلمين .

لم يعترف كسرى بمحمد رئيسا على الدولة الإسلامية بل كتب إلى باذان عامله على اليمن : « إنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلا فابعث إلىّ برأسه ، يكتب إلىّ هذا الكتاب وهو عبدى ؟ ! » .

فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبى — ﷺ — مع قهرمانه وبعث

---

(١) الروم ١ — ٥ .

معه رجلا آخر من فارس وبعث معهما إلى رسول الله — ﷺ — يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فخرجا وقدما الطائف فوجدا رجلا من قريش فى أرض الطائف فسألاه عنه فقال :

— هو بالمدينة .

فلما قدما عليه — ﷺ — المدينة قالا له :

— شاهنشاه ملك الملوك كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتى بك وقد بعثنا إليك ، فإن أبيت هلكت وأهلكت قومك وخربت بلادك .

إن فارس تعلن الحرب على المسلمين فإما أن يسلم رسول الله — ﷺ — نفسه للرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال ، واما يبعث الشاهنشاه جنده ليحارب المسلمين ويستولى على المدينة .

وقال لهما رسول الله — ﷺ — فى هدوء :

— ارجعا حتى تأتيانى غدا .

عاد كسرى الثانى بعد أن هرب من دستكرد رافضا عروض الصلح التى قدمها هرقل إلى قصره فى المدائن ، ثم لم يلبث أن تركه ليعبر دجلة ويقيم مع عشيقته شيرين . وحينئذ ثار القواد الفرس وكانوا ساخطين على إصرار كسرى على مواصلة حرب لا أمل فيها .

وعرف قائده شهربراز أن كسرى قد أمر قائدا ممن يرأسهم بقتله فأخذ حذره وتحلل من عهود الإخلاص له . ومرض كسرى بالزحار(١) فنقلوه إلى المدائن ليرتب وراثة العرش وكان معه شيرين

الزحار : الصوت والنفس بأنين واستطلاق البطن بشدة وتقطيع فى البطن (الدوسنتاريا) .

وولداه مردانشاه وشهريار ، وكانت نيته تثبيت مردانشاه على العرش .

ولما علم قباد الملقب بشيرويه وهو ابن كسرى من ماريا بما حدث عزم على الدفاع عن حقوقه . واستوثق من مساعدة القائد العام الجديد كشنسب اسباد وهو أخوه من الرضاعة وقد فاوض هذا هرقل وأبدى استعداده للصلح مع الفرس ، وانضم لشيرويه عظماء آخرون ممن كانوا حانقين على الشاهنشاه .

وأمر شيرويه ففتحت قلعة النسيان وأفرج عن عدد كبير من مسجونى الدولة فانضموا إلى الأمير ، فلما جن الليل ترك الحرس القصر حيث كان ينام كسرى وشيرين وفى الصباح الباكر سمع الناس يصيحون فرحين :

ــ قباد شاهنشاه .. قباد شاهنشاه .

وحينئذ هرب كسرى وقد أخذه الهلع ، فاختبأ فى حديقة القصر حيث عثر عليه فأخذوه . وكان إسكافى يجلس فى حانوت على الطريق فلما بصر بفرسان من الجند معهم فارس مقنع عرف أن المقنع كسرى فحذفه بقالب فعطف إليه رجل ممن كان مع كسرى من الجند فاخترط سيفه فضرب عنق الإسكاف ثم لحق بأصحابه .

وألقى الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل فى غياهب السجن . وتردد شيرويه فى الإقدام على قتل أبيه ولكن العظماء خيروه بين أن يقتل كسرى فيكونوا حوله باخعين له بالطاعة وبين أن يخلعوه ويحطوا الطاعة لكسرى . وقد حاول الملك الجديد أن يجد الفرصة فوجه إلى أبيه الاتهامات : قتل الملك هرمزد . قسوة كبرى على أبنائه ، إساءته إلى من أودع السجون ، سوء نظره فى استخلاص النساء لنفسه

مع ترك العطف عليهن بالمودة وحبسه إياهن قبله مكرهات ، ظلمه الرعية عامة فى جباية الخراج وما انتهك منهم فى غلظته وفظاظته عليهم وجمعه الأموال التى اجتباها الناس فى عنف شديد ، تجميره من جمر فى ثغور الروم وغيرهم من الجنود وتفريقه بينهم وبين أهليهم وغدره بموريق ملك الروم وكفره بأنعامه .

وفى جوف الليل قتل كسرى الثانى الذى لقب بالمظفر والذى لقب نفسه بالرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال ، صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل .

وأشرقت الشمس على المدينة وجلس رسول الله عليه السلام فى المسجد فجاء إليه رسولا باذان ، إنه عليه السلام قال لهما بالأمس : (ارجعا عنى يومكما هذا حتى تأتيانى الغد فأخبركما بما أريد) . فجاءاه الغد فقال لهما :

— أبلغا صاحبكما أن ربى قد قتل ربه كسرى فى هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها ، وأن الله تعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله .

فرجعا إلى باذان وقالا له :

— أمرنا أن نبلغك أن ربه قد قتل ربك كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى (سنة سبع من الهجرة) .

قال باذان :

— إن كان نبيا فسيكون ما قال :

ثم جاء الخبر بأن كسرى قتل تلك الليلة فكبر المسلمون ، وقال — ﷺ :

— لتفتحن عصابة من المسلمين كنوز كسرى التى فى القصر الأبيض

وكان عمر بن الخطاب يصغى إلى رسول الله عليه السلام ولم يدر بخلده أن فتح فارس سيكون فى خلافته وكان سعد بن أبى وقاص قد ألقى إلى رسول الله عليه السلام سمعه وما خطر له على قلب أنه الأسد الذى سيقود جيوش المسلمين وأنه القائد الذى سيبعث إلى المدينة كنوز كسرى التى فى القصر الأبيض .

(١٠)

قامت مصر بدور خطير فى تاريخ المسيحية ، وقد اختارت كنيسة الإسكندرية منذ أن أصبحت الكلمة لكنيسة القسطنطينية أن تقف فى جانب كل المذاهب المعارضة لكنيسة الأباطرة ، وكانت بما ملأها من نوازع البغضاء للحكومة الإمبراطورية تناصر الفتن والأمانى المحلية .

كان مذهب الثالوث مذهبا عسيرا كما أن مذهب التجسد لا يزيده يسرا ، فلا عجب أن كان الطريق السوى فى علم البحث عن طبيعة المسيح وشخصه من الحرج بصورة تجعل علماء اللاهوت أنفسهم مهما بلغ من حسن قصدهم عرضة للانزلاق فى هذا الاتجاه أو ذاك .

وقد انتصرت النصرانية على الوثنية وهى تخوض إحدى حروبها الأهلية يوم كان أتباع آريوس يحاولون بإنكارهم الألوهية التامة للمسيح أن يؤسسوا فكرة عن الربوبية تنطوى على قدر أكبر من التوحيد . وأصدر أول مجمع مسكونى وهو مجمع نيقية قرارا باستنزال اللعنة عليهم وقد اتهموا بالزندقة .

كانت الزندقة تعرف من الناحية الرسمية بأنها نبذ أى قانون يصدر عن

المجالس العامة للكنيسة ، ذلك أن القوم كانوا يـرون أن أى مجلس مسكونى هو جمعية تنعقد برياسة الإمبراطور وتمثل فيها كل الكنائس المتجانسة التى يتم الاتصال بينها والتشاور هو الهيئة الملهمة التى تعد قراراتها ملزمة لعالم المسيحية .

ومنذ الأيام الأولى للمسيحية كان أسقف روما بوصفه الأسقف الأكبر يصدر تصريحات مذهبية ، كما أن يوستنيانوس خلق للإمبراطور مركزا مماثلا لذلك ، ولكن كان لابد من قيام مجلس مسكونى عـام لضمان قبول مثل هذه التصريحات .

وقد عقدت مجالس مسكونية سبعة فأصبحت قراراتها والكـتب المقدسة أساسا للعقيدة الأرثوذكسية ، وقد ظل مذهب آريوس طوال القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحبة الدوائر الراقية بالقسطنطينية ، ولم يقض على ذلك المذهب ببلاد الشرق إلا بعد انعقاد المجمع المسكونى الثانى فى عام ٣٨١ ، وكان نصر الأرثوذكسية هو نفسه نصر الإسكندرية برئاسة أثاناسيوس . وظلت الإسكندرية طوال القرن الخامس وهـى تحاول أن تتابع نصرها بإرغام عالم المسيحية على الأخذ باللون الخاص الذى اتخذته للاهوتها .

وقد سنحت فرصتها المواتية عندما ذهب نسطوريـوس بطريـرك القسطنطينية إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتى والناسوتى ، وكانت تلك حركة بغضت إلى قلوب الناس لأنها تؤدى بصورة منطقية إلى مهاجمة مريم العذراء نصيرة القسطنطينية وراعيتها المحبوبة التى كانت مهددة عندئذ بالحرمان من لقبها أم الرب ، فاتحدت ضده الإسكندرية مع روما وشعب القسطنطينية ، وتناست الإسكندرية مؤقتا غيرتها بسبب

البطريركية الجديدة ، فالقسطنطينية التى أعطيت الرياسة عليها فى المجلس المسكونى الثانى ، وأصدر المجمع المسكونى الثالث المنعقد فى أفيسوس قراره بأن نسطوريوس الأنطاكى بطريرك القسطنطينية قد زل فوقع فى الزندقة حيث فرق بين الرب وبين الإنسان فى شخص المسيح ، وقد كان لقوة شخصية كيرلس بطريرك الإسكندرية أثرها البالغ فى صدور هذا القرار .

و لم يقف خصوم المذهب النسطورى عند هذا الحد ، فقد أذاع قسيس مغمور يقال له أوطيخا (يوتيخوس) مبدأ يقرر وحدة طبيعة المسيح اعترفت به الإسكندرية . ورغبة فى البت فى المسألة جمع الإمبراطور مرقيانوس المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية فى عام ٤٥١ م وكان مرقيانوس شغوفا من الناحية السياسية أن يكون على علاقة طيبة مع روما وكان البابا ليو يعارض تلك الحركة بشدة ، وعندئذ أدين مذهب وحدة طبيعة المسيح وكان ذلك نتيجة لضغط الإمبراطور وعد المذهب زندقة من الزندقات .

وكان مجلس خلقيدونية نقطة تحول فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية بمصر وسورية ، فنظرية وحدة طبيعة المسيح تناسب المزاج الشرقى فما لبثت أن انتشرت فى كل الكنائس المؤمنة بمذهب وحدة الطبيعة ، وقد جمعت بينها معارضتها لمجمع خلقيدونية ، وصارت تلك الزندقة نقطة التجمع لأهالى الولايات الذين فى صدورهم غل من السلطة المركزية للإمبراطورية فكانت وسيلة التعبير عن النزعات القومية والانفصالية .

وحملت الإسكندرية علم الثورة على قرارات مجمع خلقيدونية ، فبطريقها ديوسقوروس أخذ يغوص وراء نظرية أوطيخا عن المسيح . و لم

توافق روما على ذلك واتسعت هوة الخلاف بين روما والقسطنطينية من جهة أخرى .

وكانت المسائل اللاهوتية المختلف عليها فى الخصومات المتعلقة بوحدة طبيعة المسيح صغيرة فهى تدور حول الفرق بين طبيعة واحدة وطبيعتين لا يمكن الفصل بينهما ، ولكن النتائج السياسية كانت هائلة ذلك أن مذهب وحدة طبيعة المسيح ظل مشكلة فرضت نفسها على تاريخ الإمبراطورية زهاء قرنين من الزمان . وفى المجمع المسكونى الخامس المنعقد بالقسطنطينية فى عام ٥٥٣ م اعترف يوستنيانوس بإخفاقه فى نشر ميثاق يوفق بين الطرفين المتنازعين .

وفى عام ٥٧٠ م ولد رسول الله ـ ﷺ ، ومرت الأيام وبعثه الله رسولا للبشرية جميعا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وهاجر عليه السلام بدينه إلى المدينة وكان صلح الحديبية وكان أن بعث عليه السلام رسولا إلى هرقل إمبراطور الروم يدعوه إلى الإسلام ، ولم يؤمن هرقل بالدين الجديد ولكنه تأثر به فراح يحاول أن يوفق المذاهب المتناحرة على هدى الإسلام ، فأعلن ميثاق التوفيق المسمى بوحدة إرادة المسيح ، ثم راح يتأهب لحرب الصور والتماثيل فى الكنائس .

كان المصريون على خلاف مع الرومان فى المذهب الدينى وكانوا يئنون من وطأة الضرائب . وكانوا يتلفتون يبحثون عن الخلاص وما كانوا يدرون من أين تهب عليهم ريح النجاة ، فلما انتصر هرقل على الفرس استشعر المصريون أسى فقد حسبوا أن قبضةالنسر ستظل قابضة على أعناقهم ، فلما بلغهم بعد أن نهضة قد قامت فى قلب جزيرة العرب ، وحتى إن كانت قد وصلت إليهم أنباؤها فما كان ليخطر لهم على

قلب أن العرب المتنافرين سيكون لهم دولة تستطيع أن تقضى على الإمبراطوريتين العظيمتين المتنافستين على سيادة العالم .

* * *

كان رسول الله — ﷺ — فى مسجده بالمدينة ومن حوله أصحابه قد عاهدوا قريشا على السلم ، وما كان ذلك السلم ليجعل رسول الله عليه السلام يركن إلى الدعة والهدوء ، فالله قد أمره أن يبلغ رسالته فبعث عليه السلام رسله إلى ملوك الأرض وحكامها ، إنه أرسل إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام . وأرسل إلى كسرى كتابا مزقه الملك المغرور فكتب الله على نفسه أن يمزق ملكه وأراد أن يبعث بكتاب إلى مصر فقال :

— أيها الناس أيكم ينطلق بكتابى هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله .

فوثب إليه حاطب بن أبى بلتعة وقال :

— أنا يا رسول الله .

— بارك الله فيك يا حاطب .

فأخذ حاطب الكتاب وودع رسول الله — ﷺ — وسار إلى منزله ، وشد على راحلته وودع أهله ، وسار إلى مصر فهو يعرف الطريق وقد خرج إليها للتجارة أكثر من مرة ، ولكنه كان يستشعر طوال الرحلة أنه خرج فى تجارة لن تبور ، تجارة تنجيه من عذاب أليم .

كان على مصر جريج بن ميناء وقد لقب بالمقوقس ، والمقوقس لغةً المطول للبناء ، وكان مصريا صميما ولكنه كان يحكم مصر من قبل هرقل يجمع له الضرائب ثم يحملها إلى القسطنطينية ، وكان يحيا حياة الأباطرة الرومان . وكانت الإسكندرية مقر حكمه ليكون على مقربة

من عاصمة الإمبراطورية الرومانية .

وذهب حاطب إلى منف ولم يسر فيها وهو مبهور بمبانيها الضخمة وأبوابها الفخمة فقد زارها كثيرا من قبل . وانطلق إلى قصر الحاكم فلم يجده فذهب إلى الإسكندرية فأخبر أنه فى مجلس مشرف على البحر ، فركب حاطب سفينة وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه ، فلما رآه أمر بإحضاره بين يديه ، فلما جىء به نظر إلى الكتاب وفضه وقرأه :

ــ (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

والتفت إلى حاطب وقال له :

ــ ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها ؟

وصمت حاطب تأدبا فأعاد المقوقس قوله لما رأى من الموجودين استحسانا :

ــ ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم ؟

فقال له حاطب :

ــ ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله ؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى

رفعه الله إليه ؟

ونظر إليه المقوقس فى إعجاب ، إنه قابل كثيرا من العرب قبل أن يبعث فيهم محمد بن عبد الله ، كانوا فصحاء ولكنهم ما كانوا يدرون ما الكتاب ولا الإيمان بل كانوا عبدة أوثان ، فقال :

ـــ أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم .

ـــ إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك به .

وراح المقوقس ومن عنده يرمقون حاطب فى دهشتهم ، إنهم فهموا أنه يقصد فرعون موسى ، ولكن من أين لذلك العربى مثل هذا العلم ؟ واستمر حاطب يقول :

ـــ إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقربهم النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد ـــ ﷺ ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبى أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس :

ـــ إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فرأيته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب عنه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء « أى الشيء الغائب المستور » والإخبار بالنجوى ، وسأنظر .

أكرم هرقل وفادة دحية الكلبى رسول النبى العربى فلم يجد المقوقس

غضاضة فى أن يكرم حاطب فدفع له مائة دينار وخمسة أثواب وأنزله فى ضيافته ، فلما حان الرحيل دعا المقوقس كاتبا له يكتب بالعربية فكتب إلى النبى : « بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك . أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبيا قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبثياب ، وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام عليك » .

ما أقام حاطب عند المقوقس إلا خمسة أيام خرج بعدها من قصره وفى رفقته مارية القبطية وأختها سيرين وطبيب وبغلة بيضاء وهدايا المقوقس ، وما انفصل الركب وانساب فى الحقول حتى وقعت الأعين على جباة الضرائب الرومان يظلمون الفلاحين وينزلون بهم ألوان العذاب فلاح الأسى فى الوجوه وارتفعت الرءوس تنظر إلى السماء كأنما يسألون رب الكون الخلاص وما دروا أن الخلاص قريب وأن حاطب بن بلتعة رسول محمد بن عبد الله عليه السلام إلى عظيم القبط هو طلائع ذلك الخلاص .

وراح حاطب يفكر فيما قال له المقوقس وهو يودعه : « القبط لا تطاوعنى على اتباعه وأنا أضن بملكى أن أفارقه » . أيضحى إنسان بالحقيقة التى أشرقت لعين ذاته فى سبيل ملك زائل ؟ ! أيستمر يخبط فى الظلمات وهو يعرف طريق النور ؟ أيضحى بآخرته فى سبيل دنياه ؟

واستمر حاطب والذين معه يطوون الأرض فى حراسة جند مصر إلى أن دخل جزيرة العرب ، ووجد قافلة من الشام تريد المدينة فرد الجيش وارتفق بالقافلة حتى دخل على رسول الله عليه السلام وذكر له قول المقوقس : « القبط لا تطاوعنى على اتباعه ولا أحب أن تعلم بمحاورتى

إياك وأنا أضن بملكى أن أفارقه ، فارجع إلى صاحبك وارحل من عندى ولا تسمع منك القبط حرفا واحدا » . فقال عليه السلام :

— ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه .

وقال عليه السلام للطبيب :

— ارجع إلى أهلك ! نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع .

وأخذ عليه السلام مارية وعشرين ثوبا من قباطى مصر وهدايا العسل والبغلة البيضاء وسماها دلدل ، وما كان العرب يعرفون البغال من قبل وما كان فيهم بغلة غيرها ، وأهدى سيرين لحسان بن ثابت . وأعادت مارية ذكريات هاجر المصرية(١) أم العرب فقال — ﷺ — لأصحابه :

— إنكم ستفتحون مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما .

(١١)

كان اليهود فى خيبر يطوون أفئدتهم على البغضاء لمحمد رسول الله عليه السلام ، وكانوا يتحينون الفرص ليطعنوا الإسلام طعنة فى الصميم . فلما عاد المسلمون بعد صلح الحديبية إلى المدينة دون أن تسمح لهم قريش بدخول مكة والطواف حول البيت ظن اليهود أن نبى الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — لم يقبل شروط الصلح المجحفة بالمسلمين إلا

---

(١) كانت زوجا لسيدنا إبراهيم عليه السلام .

لو هن دب فى كيان ملكه ، فأرادو أن يستغلوا ذلك الضعف فبعثوا إلى غطفان ليؤلبوهم على حرب رسول الله — ﷺ .

وجاء الخبر إلى الرسول عليه السلام أن خيبر تتأهب لقتاله فلم ينتظر حتى يفجأه اليهود وحلفاؤهم بهجومهم ، فاستنفر — ﷺ — من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه ، وجاءه المخلفون عنه فى غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة فقال :

— لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد فأما الغنيمة فلا .

ثم أمر مناديا ينادى بذلك فنادى به ، وشق خروج المسلمين إلى خيبر على من بقى بالمدينة من اليهود ، وخرج رسول الله — ﷺ — فى المحرم افتتاح سنة سبع بعد أن أقام شهرا وبعض شهر من مرجعه من الحديبية واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وخرج معه من نسائه أم سلمة ، وقال — ﷺ — فى سيره لعامر بن الأكوع عم سلمة بن الأكوع :

— انزل فحرك بنا الركب .

فقال معتذرا :

— يا رسول الله قد تولى قولى .

لم يعد عامر يقول شعرا ، فقال له عمر :

— اسمع وأطع .

فنزل يرتجز بقوله :

والله لـولا الله مــا اهتدينــا	ولا تصدقنــا ولا صلينــا
إنــا إذا قــوم بغــوا علينــا	وإن أرادوا فتنــة أبينــا
فأنزلــن سكينــة علينــا	وثبت الأقــدام إن لاقينــا

فقال له رسول الله — ﷺ :

— يرحمك ربك .

وما خص بها رسول الله — ﷺ — أحدا قط إلا استشهد ، فقال عمر :

— وجبت والله يا رسول الله ، لو متعتنا بعامر .

ولما خرج رسول الله — ﷺ — من المدينة سلك على عصر (جبل) فبنى له فيه مسجدا ، ثم على الصهباء ، ثم أقبل بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع فنزل بين خيبر وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله — ﷺ ، فلما سمعت غطفان بمنزل رسول الله — ﷺ — من خيبر جمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا ساروا مرحلة من مراحل السفر سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسا وظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله — ﷺ — وبين خيبر .

كان المسلمون ألفا وستمائة مقاتل مجهزين تجهيزا حسنا منهم مائتا فارس ، وكان لكل مقاتل راحلته السريعة ، وقد خرج مع الجيش نساء المقاتلين ليعتنين بالجرحى وكان هذا يحدث لأول مرة فى تاريخ الحروب فقد كانت النساء يصاحبن الجيوش فى الغزوات للترفيه أو لتحريض الرجال على القتال .

وحمل الجيش الراية السوداء العظيمة المعروفة بالعقاب (النسر الأسود) وكانت من برد لعائشة ، ولما أشرف عليه السلام على خيبر قال لأصحابه :

— قفوا .

ثم قال :

ـــ اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله .

وأشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير :

ـــ الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فقال ـــ ﷺ :

ـــ أربعوا على أنفسكم (ارفقوا بأنفسكم) لا تبالغوا فى رفع أصواتكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم .

ولما نزل بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ، وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذانا أمسك وإذا لم يسمع أذانا أغار ، فنزلوا خيبر ليلا فبات رسول الله ﷺ ـــ حتى إذا أصبح لم يسمع أذانا ، فركب وركب المسلمون معه ، فركب أنس بن مالك خلف أبى طلحة وإن قدمه لتمس قدم رسول الله ـــ ﷺ ، وأصبح يهود وأفئدتهم تخفق وفتحوا حصونهم وغدوا إلى أعمالهم معهم المساحى والفئوس والمكاتل ، فلما نظروا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ قالوا :

ـــ محمد والخميس(١) .

فولوا هاربين إلى حصونهم وجعل رسول الله ﷺ ـــ يقول :

---

(١) سمى الجيش خميسا لأنه خمسة أقسام : المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب .

ـــ الله أكبر ، خربت خيبر . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

ووعظ رسول الله ـــ ﷺ ـــ الناس وفرق فيهم الرايات وارتفعت أصواتهم :

ـــ يا منصور أمت . يا منصور أمت .

كان يهود فى حصونهم يرتجفون ، إنهم عشرة آلاف مقاتل وكان عبد الله ابن أبىّ بن سلول كبير المنافقين أرسل إليهم يخبرهم بأن محمدا سائر إليهم فخذوا حذركم وأدخلوا أموالكم حصونكم واخرجوا إلى قتاله ولا تخافوا منه . إن عددكم كثير وقوم محمد شرذمة[1] قليلون عزل لا سلاح معهم إلا قليل .

فكانوا يخرجون ويصطفون صفوفا ثم يقولون مستهزئين :

ـــ محمد يغزونا ؟ هيهات هيهات .

كانوا واثقين من أنهم سيسيرون إلى محمد عليه السلام ليحاربوه فى المدينة ولكنهم أصبحوا فوجدوا محمدا عليه السلام وجيشه يتقدمون صوب الحصون .

كانت حصون خيبر حصونا ذوات عدد منها النطاة وحصن الصعب ابن معاذ وحصن ناعم وحصن قلعة الزبير ـــ هذه الحصون النطاة ، والشق وبه حصون منها حصن أبىّ وحصن النزار ، وحصون الكتيبة ومنها القموص والوطيح وسُلالم .

ونزل رسول الله ـــ ﷺ ـــ قريبا من حصون النطاة فجاءه الحباب

---

(١) شرذمة : جماعة قليلة العدد .

ابن المنذر فقال :

— يا رسول الله إنك نزلت منزلك هذا فإن كان عن أمر أمرت به فلا نتكلم ، وإن كان الرأى تكلمنا .

— هو الرأى .

— يا رسول الله إن أهل النطاة لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مرمى سهم منهم ، ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم ، ولا نأمن من بياتهم يدخلون فى حمرة النخل (النخل المجتمع بعضه على بعض) ، تحول يا رسول الله .

— أشرت بالرأى ، إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا .

ودعا رسول الله — ﷺ — محمد بن مسلمة فقال :

— انظر لنا منزلا بعيدا .

فطاف محمد بن مسلمة وقال :

— يا رسول الله وجدت لك منزلا .

— على بركة الله .

وتحول عليه السلام لما أمسى إلى الصخرة ، وأمر الناس بالتحول فتحولوا إليها ، واتخذوا ذلك الموقع معسكرا ، وابتنى رسول الله — ﷺ — هناك مسجدا يصلى به طول مقامه بخيبر .

وراح يهود يرمون المسلمين بالسهام وبالنبال من حصون النطاة ، فأمر — ﷺ — بقطع نخيل أهل الحصون فوقع المسلمون فى قطعها حتى قطعوا أربعمائة نخلة ثم نهاهم عن القطع ، وهجم المسلمون على حصن ناعم وراحوا يرمون بالسهام ويهود تقاتل ورسول الله — ﷺ — على فرس يقال له الظرب وعليه درعان ومغفر وبيضة وفى يده

قناة وترس ، وقد دفع — ﷺ — لواءه إلى عمر بن الخطاب ونهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر ، فانكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله — ﷺ — يجبنه أصحابه ويجبنهم ، وكان رسول الله قد أخذته الشقيقة[1]فلم يخرج إلى الناس فأخذ أبو بكر راية رسول الله — ﷺ ، ثم نهض فقاتل قتالا شديدا ، ثم رجع فأخذها عمر بن الخطاب فقاتل قتالا شديدا أشد من القتال الأول ، ثم رجع وهجم الأنصار على الحصون ، كان الحر شديدا وكان محمود بن مسلمة يحارب بلا هوادة حتى أعياه الحرب وثقل السلاح فانحاز إلى ظل حصن ناعم ، فرفع مرحب وكنانة بن الربيع حجر الرحى بينهما وألقياه عليه فهشم البيضة على رأسه ونزلت جلدة جبينه على وجهه وندرت عينه ، فأدركه المسلمون فأتوا به النبى فسوى الجلدة إلى مكانها وعصبه بخرقة فمات من شدة الجراحة .

وجاء أخوه محمد بن مسلمة إلى رسول الله — ﷺ — فقال فى غيظ :

— إن اليهود قتلوا أخى محمود بن مسلمة .

كان محمد بن مسلمة يريد أن يثأر لأخيه وأن يندفع إلى حصون اليهود يثخن فيهم القتل ، فقال — ﷺ :

— لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم ، فإذا لقيتموهم فقولوا : اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ، ثم الزموا الأرض جلوسا فإذا غشوكم

---

(١) الشقيقة : نوع من صداع يعرض فى مقدم الرأس وإلى أحد جانبيه .

فانهضوا و كبروا .

وخرجت كتائب اليهود يتقدمهم ياسر ، فكشف الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله — ﷺ — فى موقعه ، فاشتد ذلك على رسول الله عليه السلام وأمسى مهموما .

(١٢)

القتال رهيب وأهل حصون النطاة يخرجون للقتال ثم يعودون إلى الحصون يرمون المسلمين بالحجارة والسهام ، ورسول الله — ﷺ — يذهب كل يوم بمحمد بن مسلمة للقتال ويخلف على محل العسكر عثمان ابن عفان ، فإذا أمسى ورجع إلى ذلك المحل ومن جرح من المسلمين يحمل إلى ذلك المحل ليداوى جرحه .

وكان — ﷺ — يناوب بين أصحابه فى حراسة الليل ، فلما كانت الليلة السادسة استعمل عليه السلام عمر بن الخطاب فطاف عمر بأصحابه حول العسكر وفرقهم ، فأوتى برجل من يهود خيبر فى جوف الليل فأمر به عمر أن يضرب عنقه فقال :

— اذهب بى إلى نبيكم حتى أكلمه .

فأمسك عنه وانتهى به إلى النبى — ﷺ — فوجده يصلى ، فسمع — صلوات الله وسلامه عليه — كلام عمر فسلم وأدخله عليه ، فدخل باليهودى فقال رسول الله — ﷺ — لليهودى :

— ما وراءك ؟

— تؤمننى يا أبا القاسم ؟

ـــ نعم .

ـــ خرجت من حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة .

ـــ فأين يذهبون ؟

ـــ إلى الشق يجعلون فيه ذراريهم ويتهيئون للقتال ، وفى هذا الحصن الذى هو الحصن الصعب من حصون النطاة فى بيت فيه تحت الأرض منجنيق ودبابات ودروع وسيوف فإذا دخلت الحصن غـدا وأنت تدخله .

قال رسول الله عليه السلام :

ـــ إن شاء الله .

قال اليهودى :

ـــ إن شاء الله أوقفتك عليه فإنه لا يعرفه غيرى ، وأخرى .

ـــ ما هى ؟

ـــ يستخرج المنجنيق[١] وينصب على الشق ويدخل الرجال تحت الدبابات فيحفروا الحصن فتفتحه من يومك وكذلك تفعل بحصون الكتيبة .

وراح اليهودى يتلفت بعينين زائغتين ثم قال :

ـــ يا أبا القاسم احقن دمى .

ـــ أنت آمن .

ـــ ولى زوجة فهبها لى .

---

(١) المنجنيق : آلة حربية ترمى بالحجارة وتهدم الحصون .

ــ هى لك .
ثم دعاه إلى الإسلام فقال :
ــ أنظرنى أياما .
ثم قال عليه السلام لمحمد بن مسلمة :
ــ لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا يولى الدبر يفتح الله على يديه فيمكنه من قاتل أخيك .
وعند ذلك لم يكن من الصحابة أحد له منزلة عند النبى ــ ﷺ ــ إلا يرجو أن يعطاها . وتمنى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك الرجل فما أحب الإمارة إلا ذلك اليوم ، وبات الناس يذكرون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ــ ﷺ ــ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال رسول الله ــ ﷺ :
ــ أين على بن أبى طالب ؟
ــ هو يا رسول الله يشتكى عينيه .
ــ من يأتينى به ؟
فذهب سلمة بن الأكوع فدعاه ، فجاء على بعير له حتى أناخ قريبا من رسول الله ــ ﷺ ــ وهو أرمد قد عصب عينيه بشقة برد قطرى ، فراح سلمة يقوده إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فقال له رسول الله عليه السلام :
ــ ما لك ؟
ــ رمدت .
ــ ادن منى .
فوضع رأسه فى حجره عليه السلام وفتح له عينيه فدلكهما فبرأ حتى

كأن لم يكن بهما وجع ، وألبسه عليه السلام درعه وشد سيفه ذا الفقار فى وسطه وأعطاه الراية وقال له :

ــ امش ولا تلتفت .

فسار شيئا ثم وقف و لم يلتفت ، فصرخ :

ــ يا رسول الله علام أقاتل الناس ؟

ــ قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى : وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم .

فانطلق علىّ بالراية وعليه حلة أرجوان حمراء يهرول حتى ركزها تحت الحصن ، فاطلع عليه يهودى من رأس الحصن فقال :

ــ من أنت ؟

ــ على بن أبى طالب .

وخرج إليه أهل الحصن وكان أول من خرج الحارث أخو مرحب ، وكان معروفا بالشجاعة ، والتقى الجمعان ودار القتال ومشى الرجال إلى الرجال فانكشف المسلمون وثبت على كرم الله وجهه ، وهجم على الحارث فتضاربا فقتله ، فلما رأى المسلمون ثبات على كروا على أعدائهم الذين زلزل مقتل الحارث قلوبهم فانهزم اليهود إلى الحصن وأصوات المسلمين تهز خيبر :

ــ يا منصور أمت .. يا منصور أمت .

وخرج مرحب صاحب لحصن وعليه مغفر معصفر وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه وهو يرتجز :

قد علمت خيبر أنى مرحب   شاكى السلاح بطل مجرَّب

أطعن أحيانا وحينـا أضرب إذا الحروب أقبلت تلـهّب

كأن حماى كالحمى لا يُقرب

فبرز له على بن أبى طالب فقال :

أنا الذى سمتنى أمى حيـدرة كليث غابات شديد قسورة[(١)]

أكيلكم بالسيف كيل السندرة[(٢)]

وحمل مرحب عليه وضربه ضربة اتقاها بترسه ، ثم بدره علىّ كرم الله وجهه فضربه فقد الحجر والمغفر وفلق رأسه حتى أخذ السيف فى الأضراس .

وأراد عامر بن الأكوع أن يضرب بسيفه ساق يهودى فرجع إليه سيفه وجاءت ذبابته فى ركبته فسقط يتلوى من الألم ، فحمله المسلمون إلى معسكر رسول الله ـــ ﷺ .

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يرتجز :

قد علمت خيبر أنى يـاسر شاكى السلاح بطل مغاور

إذا الليـوث أقبـلت تبـادر إن حماى فيه موت حـاضر

وقال :

ـــ هل من مبارز ؟

فخرج له الزبير بن العوام وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ـــ ﷺ ـــ تنظر وقد استولى عليها خوف شديد فهى تعلم أن ياسر

---

(١) قسورة : اسم من أسماء الأسد .

(٢) السندرة : مكيال كبير .

من فرسان اليهود وشجعانهم ، ولم تستطع أن ترقب المبارزة بأعين مفتوحة وعصف بها الخوف فقالت :

ـــ يا رسول الله إنه يقتل ابنى .

ـــ بل ابنك يقتله إن شاء الله .

وراح الزبير يرتجز :

قد علمت خيبر أنى زبّار
قرم[(١)] لقرم غيرنكس[(٢)] فرار
أين حماة المجد أين الأخيار
ياسر ، لا يغررك جمع الكفار
فجمعهم مثل السراب الختار[(٣)]

و راح الزبير وياسر يتبادلان الضربات ثم ضرب الزبير اليهودى ضربة قاتلة فتركه كأمس الدابر ، فارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير ورفت على شفتى صفية بسمة اطمئنان وإن اغرورقت عيناها بالدموع ، وقال رسول الله عليه السلام :

ـــ فداك عم وخال ، لكل نبى حوارى وحواريى الزبير .

وجاء يسار وكان عبدا حبشيا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وكان أجيرا لرجل من اليهود كان يرعى غنمه وقال :

ـــ إن أسلمت فماذا لى ؟

ـــ الجنة .

---

(١) القرم هنا : السيد .
(٢) النكس : الضعيف الجبان .
(٣) الختار : الخداع .

فأسلم ، فلما أسلم قال :

— يا رسول الله إنى كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم فكيف أصنع بها ؟ إنها أمانة وهى للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك .

كان رسول الله عليه السلام يحارب اليهود وكانت الغنم لليهود فلم يأمر بمصادرتها بل أمر برد الأمانة إلى أصحابها ، فقال له عليه السلام :

— اضرب فى وجهها فإنها سترجع إلى ربها .

فقام يسار فأخذ حفنة من حصباء فرمى بها فى وجهها وقال :

— ارجعى إلى صاحبك فوالله لا أصحبك .

فخرجت مجتمعة كأن سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم يسار إلى الحصن منشرح الصدر قد غمرته سعادة لأنه هدى إلى الصراط وراح يقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله و لم يسجد لله سجدة ، فأتى به إلى رسول الله — ﷺ — ومعه نفر من أصحابه فقال — ﷺ :

— لقد كرم الله هذا العبد وساقه إلى خير ، وقد كان الإسلام من نفسه حقا .

وراح عامر بن سلمة يتلوى من الألم وعمر بن الخطاب يرنو إليه وهو على ثقة من أنه يجود بأنفاسه ، فعامر كان يرتجز لرسول الله عليه السلام فقال له : يرحمك ربك . فقال له عمر : وجبت يا رسول الله لولا أمتعتنا به . لأنه — ﷺ — ما قال ذلك لأحد فى مثل هذا الموطن إلا استشهد .

ومات عامر بن سلمة وخاض الناس فى موته فمن قائل : قتله سلاحه ، ومن قائل : قتل نفسه فليس بشهيد . فانطلق سلمة بن الأكوع إلى رسول الله — ﷺ — وقال وقد تملكه إشفاق أن لا يكون

أخوه شهيدا :

— يزعم أسيد بن حضير وجماعته من أصحابك أن عامرا أحبط عمله إذ قتل بسيفه .

فقال ﷺ :

— إنه لشهيد .

وصلى عليه — ﷺ — والمسلمون .

(١٣)

دار القتال رهيبا عند حصن ناعم ، على بن أبى طالب يتقدم ويضرب بسيفه لا يلتفت خلفه ، وأصوات المسلمين تدوى فى آذان يهود كأنها صواعق منذرة بالموت .

— يا منصور أمت أمت .

وبلغ علىّ كرم الله وجهه باب الحصن فاجتذبه وحمله على ظهره فراح المسلمون يصعدون عليه يبارزون يهود الذين كانوا بأعلى الحصن . ولاحت هزيمة يهود فانسل نفر منهم إلى حصن صعب ليتحصنوا به ، وقتل من قتل وأسر من أسر وتم فتح أول حصن من حصون اليهود فأخذ المسلمون يكبرون وقد غمرهم السرور .

وأصاب المسلمين مجاعة ، وأرسلت أسلم إلى رسول الله — ﷺ — أسماء بن حارثة وأمرته أن يقول له — ﷺ — إن أسلم يقرئونك السلام ويقولون أجهدنا الجوع . فلامهم رجل وقال :

— من بين العرب تصنعون هذا ؟

فقال أخو أسماء بن حارثة :

— والله إنى لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله — ﷺ — مفتاح الخير .

فجاءه — ﷺ — أسماء وبلغه ما قالت أسلم ، فقال :

— اللهم إنك قد عرفت حالهم وأن ليس بهم قوة وأن ليس بيدى شىء أعطيهم إياه .

ولم يجد المسلمون غير الحمر الإنسية فذبحوها ووضعوها فى القدور على النار . وبينا القدور تفور بها جاء داعى رسول الله — ﷺ — ينهى المسلمين عن أكل لحوم الحمر الأهلية فكفوا القدور على وجوهها .

وقام فيهم رسول الله — ﷺ — فقال :

— لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماؤه زرع غيره « يعنى إيتاء الحبالى من السبايا » ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبى حتى يستبرئها(١) ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى يقسم ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فىء المسلمين حتى إذا أعجفها(٢) ردها فيه ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فىء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه .

وأشرقت الشمس وعند رسول الله — ﷺ — وفد أسلم فدعا لهم :

— اللهم افتح أكثر الحصون طعاما وودكا(٣) .

---

(١) يستبرؤها : يتأكد من براءة رحمها من الحمل ، وذلك بالحيض .

(٢) أعجفها : هزلها وأضعفها .

(٣) الودك : الدسم .

ودفع اللواء للحباب بن المنذر وندب الناس فخرج مع الحباب صناديد المهاجرين والأنصار وانطلقوا إلى حصن الصعب وهم يكبرون ، وخرج من الحصن رجل يقال له يوشع مبارزا فخرج له الحباب بن المنذر وقد كشر عن أنيابه وقال :

— يا منصور أمت أمت .

وتبادلا ضربتين فبدره الحباب قائد جيش المسلمين بضربة أردته قتيلا فكبر المسلمون ، وقرع التكبير آذان يهود فى الحصن فزاغت أعينهم وانبهرت أنفاسهم ونزل بهم هم ثقيل واستولى عليهم يأس مرير ، فقد أطلت من سيوف المسلمين ريب المنون .

وخرج آخر مبارزا يقال له الديال فبرز له عمارة بن عقبة الغفارى فمشى كل منهما إلى صاحبه مشى الوعول ؛ اليهودى فى الدروع على رأسه خوذة تتألق فى الشمس وفى يده رمح ذو ثلاث شعب كان فى فخامة جالوت لما حارب الصبى داود عليه السلام[1] ، وكان عمارة فى يده ترس وفى الأخرى سيف يمنى ، وضرب الدبال عمارة ضربة اتقاها بالترس وفى مثل لمح البصر هوى بسيفه على هامة اليهودى فقتله وقال له :

— خذها وأنا الغلام الغفارى .

فقال الناس فى أسى :

— حبط جهاده .

لم يكبّر عمارة وهو يضرب اليهودى ولم يهتف بشعار المسلمين بل دعا بدعوة الجاهلية فساء ذلك الناس . وحملت اليهود حملة منكرة

---

(١) القصة فى سورة البقرة الآية ٢٤٦ — ٢٥١ .

فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وهو واقف قد نزل عن فرسه ، فثبت الحباب بن المنذر ، فحرض رسول الله عليه السلام المسلمين على الجهاد فأقبلوا وزحف بهم الحباب فراح الرجال الصناديد يلعبون بالسيوف يضربون الهامات ويطعنون فى القلوب . فاختلطت صرخات الفزع بأنات الألم بصوت ارتطام الأجساد بالأرض بأصوات التكبير بالهتاف بشعار المسلمين ، وسالت الدماء فى اليهود المنهزمين .

وزلزل اليهود زلزالا شديدا وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وراحوا يولون الأدبار لا يلوون على شىء حتى دخلوا الحصن وأغلقوه عليهم . ولم يقف الحصن فى وجه الليوث الذين أمدهم إيمانهم بالنصر المبين بقوة جعلتهم يتسلقون الحصن دون أن يفت فى عزيمتهم الحجارة التى تلقى عليهم والسهام التى تصوب إلى صدورهم .

وتمكن نفر من المسلمين من أن يتسلقوا الحصن وأن يثبتوا أقدامهم فوقه فدارت معركة رهيبة بين الفاتحين وبين الذين يدافعون عن أعناقهم وأعراضهم وأموالهم ، وتمكن فريق من المسلمين من أن يصلوا إلى باب الحصن ففتحوه فتدفق المسلمون كالسيل الجارف لتدور معركة فاصلة بينهم وبين الخمسمائة مقاتل الذين كانوا فى حصن الصعب ، ولما أصبحت الدائرة على اليهود انسل فريق منهم إلى حصن قلة وهو بقلة جبل ليستأنفوا القتال إذا ما تحول المسلمون للهجوم على ذلك الحصن .

وأخذ المسلمون يقتلون ويأسرون حتى وقع الحصن فى أيديهم فوجدوا فى ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن والعسل والسكر والزيت والودك شيئا كثيرا ، وراح الرجال يحملون ما تصل إليه أيديهم

فنادى رسول الله — ﷺ :

— كلوا واعلفوا ولا تحملوا .

كان نفر من المحاربين يريدون أن يخرجوا بما غنموا إلى بلادهم فنهى رسول الله — ﷺ — عن ذلك وأباح الأكل والعلف فى المعسكر ، وقد أصاب عبد الله بن مغفل من فىء خيبر جراب شحم فاحتمله على عنقه يريد رحله فلقيه صاحب المغانم الذى جعل عليها فأخذ بناصيته وقال :

— هلم بهذا حتى نقسمه بين المسلمين .

— والله لا أعطيكه .

فجعل أبو اليسر كعب بن عمرو بن زيد الأنصارى صاحب المغانم يجاذبه الجراب ، فرآهما رسول الله — ﷺ — وهما يصنعان ذلك فتبسم ضاحكا ثم قال لصاحب المغانم :

— لا أبا لك ، خل بينه وبينه .

فأرسله فانطلق به عبد الله بن مغفل إلى رحله وأصحابه فأكلوا .

وراح اليهودى الذى أمنه رسول الله — ﷺ — ووهب له زوجه يقود المسلمين فى سراديب تحت أرض الحصن حتى وصلوا إلى بيت تكدست فيه منجنيق ودبابات ودروع وسيوف ، فأخذوا يحملونها إلى حيث كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

وذكر الناس ما كان من عمارة بن عقبة الغفارى لما ضرب الدبال وقال له : خذها وأنا الغلام الغفارى وقول الناس حبط جهاده ، فقال — ﷺ :

— يؤجر ويحمد .

وراح المسلمون يحاصرون حصن قلة وهو آخر حصون النطاة ،

فراح اليهود يسددون إليهم السهام ويلقون عليهم الحجارة دون أن يخرجوا للمبارزة من حصنهم . وانقضى اليوم الأول من الحصار وما نال المسلمون من الحصن شيئا .

واستمر الحصار واليهود يرقبون ما يجرى أمام الحصن على نيران المسلمين حتى إذا ما صلوا الصبح وأشرقت الشمس وارتفعت أصوات المسلمين بشعارهم :

ــ يا منصور أمت أمت .

وشدت الأقواس وأطلقت السهام فسقطت أجساد من فوق الحصن تهوى كالشهاب . ولكن اليوم الثانى مر دون أن ينال المسلمون من الحصن شيئا فهو على قمة جبل يسيطر على كل الطرق التى تقود إليه .

وجاء اليوم الثالث وحاول المسلمون أن يزحفوا صاعدين إلى الحصن ولكن اليهود أمطروهم بوابل من السهام فعجزوا عن التقدم ، ورأوا أن يحاصروا الحصن حتى ينال الجوع والعطش من المحاصرين فينزلوا على حكم المسلمين .

وجاء الليل فانسل يهودى تحت جنح الظلام إلى معسكر المسلمين وكان محمد بن مسلمة يحرسه ، فالتمس اليهودى مقابلة رسول الله ــ ﷺ ــ فقاده ابن مسلمة إلى حيث كان عليه السلام فقال :

ــ يا أبا القاسم تؤمننى على أن أدلك على ما تستريح به ؟ فإنك لو مكثت شهرا لا تقدر على فتح هذا الحصن فإن به دُبولا[1] تحت الأرض يخرجون ليلا فيشربون منها ، فإن قطعت عنهم شربهم أهلكتهم .

---

(١) الدبول : جمع دَبْل : النهر الصغير .

وسار عليه السلام إلى دبولهم فقطعها فلم يجد اليهود مفرا من أن يخرجوا من الحصن ليقاتلوا دفاعا عن حياتهم التى أصبحت مهددة بالبوار من العطش ، فدارت معركة رهيبة بين أهل الكتاب الأول الذين تنكروا لكتابهم وبين الذين يريدون أن يحقوا الحق وأن تكون كلمة الله هى العليا . وزهقت أرواح نفر من اليهود وسقط من المسلمين شهداء وحمل المسلمون على اليهود حملة رجل واحد وأصواتهم تفعل فى أعدائهم ما تفعله السيوف البتارة ، فما أن يدوى بين السماء والأرض شعار المسلمين « يا منصور أمت أمت » حتى تتخلخل مفاصل أعدائهم ويكادوا أن يموتوا رعبا قبل أن تصل إلى أفئدتهم السهام أو تقطف رءوسهم السيوف .

ورأت النسوة من الحصون هزيمة الرجال فأخذن فى الولولة والعويل ورحن يحرضنهم على القتال ولكن أصواتهن ذهبت أدراج الرياح. فقد كان المقاتلون اليهود ذاهلين عن كل شيء إلا الحرص على النجاة بجلودهم .

ودخل اليهود الحصن والمسلمون فى أثرهم ، ودارت معركة داخل الحصن وأصوات الهلع تغطى على قعقعة السلاح . وجَرْى النسوة فى رعب فى أرجاء الحصن يفوق سرعة كر الرجال وفرهم .

وخفتت أصوات السيوف وارتفع الصراخ فقد كان المسلمون يأسرون الرجال والنساء والولدان ويحملون الغنائم إلى معسكر المسلمين .

ولاح فى الأفق البعيد ركب قادم من المدينة فاتجهت إليه الأنظار حتى إذا ما دنا من العسكر عرف الناس القادمين ، إنهم سبعون بيتا من دوس

على رأسهم الطفيل بن عمرو الدوسى وفيهم أبو هريرة . كان الطفيل قد أسلم قبل أن يهاجر رسول الله عليه السلام وعاد إلى قومه فأجابه أبو هريرة وحده وأبطأ عليه قومه ، فعاد إلى رسول الله — ﷺ — وأخبره بإبطاء قومه وقال له :

— ادع عليهم .

فقال — ﷺ — :

— اللهم اهد دوسا وائت بها .

ثم قال له :

— اخرج إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

فخرج إلى قومه فلم يزل بأرض دوس يدعوها حتى هاجر رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ومضت غزوة بدر وأُحُد والخَنْدق ، ثم قدم على رسول الله — ﷺ — بمن أسلم من قومه حتى نزل المدينة ، فصلى أبو هريرة الصبح خلف سباع بن عرفطة فقرأ فى السجدة الأولى بسورة مريم وفى الآخرة ويل للمطففين .

فقال أبو هريرة فى نفسه :

— ويل لأبى !

وتذكر أبو هريرة رجال الأزد فقلّ رجل كان بأرض الأزد إلا وكان له مكيالان : مكيال لنفسه وآخر يبخس به الناس .

ونزل الطفيل بن عمرو والذين معه فى معسكر المسلمين ينتظرون النهار ليدخلوا على رسول الله عليه السلام ، فضل غلام لأبى هريرة فجعل ينشد :

يا ليلة من طولها وعنائها   على أنها من دارة الكفر نجت

وأذن بلال بالفجر فنهض كل من فى المعسكر وصلوا خلف رسول الله عليه السلام ، فلما قضيت الصلاة دخل سادات الأزد على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال الطفيل بن عمرو :

— يا رسول الله اجعلنا ميمنتك واجعل شعارنا مبرور .

وطلع غلام أبى هريرة الذى كان ضل فى الليلة الماضية فقال له عليه السلام :

— هذا غلامك يا أبا هريرة ؟

فقال أبو هريرة وهو متفرح فى الله :

— هو حر لوجه الله .

(١٤)

فتح رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — حصون النطاة الثلاثة وخرج حصن قلة فى سهم الزبير بن العوام فعرف بقلة الزبير ، وسار المسلمون إلى حصار حصون الشق وقد صار الأزد ميمنة جيش المسلمين وصار شعارهم مبرور . وبدأ المسلمون بحصن أبىّ فقاتل أهله قتالا شديدا ، وخرج رجل منهم يقال له غزوال يدعو إلى البراز فبرز له الحباب وحمل عليه فقطع يده اليمنى ونصف ذراعه فبادر راجعا منهزما إلى الحصن ، فتبعه الحباب فقطع عرقوبه فوقع فذفف عليه ، فخرج آخر مبارزا فخرج له رجل من المسلمين فقتل اليهودى المسلم فارتفعت صيحات الفرح من فوق الحصن .

فقام اليهودى مكانه للبراز وقد انتفخت أوداجه[١] غرورا فخرج له أبو دجانة وعصب رأسه بعصابة حمراء . فاستبشر المسلمون ، فما خرج أبو دجانة يتبختر وقد عصب رأسه بعصابته إلا أذاق خصمه المنون .

وضرب أبو دجانة اليهودى فقطع رجله ثم ذَفف[٢] عليه فتركه جثة هامدة فنزل الرعب فى قلوب اليهود فأحجموا عن البراز ، فكبر المسلمون وتحاملوا على الحصن ودخلوه يتقدمهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثا ومتاعا وغنما وطعاما . وهرب من كان فيه ولحق بحصن يقال له حصن البرىء وهو الحصن الثانى من حصنى الشق فتمنعوا به أشد التمنع وكان أهله أشد رميا للمسلمين بالنبل والحجارة حتى أصاب النبل ثياب رسول الله — ﷺ — وعلقت به .

وثارت الدماء فى عروق المسلمين فحملوا على الحصن حملة رجل واحد ، ونصبوا المنجنيق الذى وجدوه فى حصن الصعب وجعلوا يصوبون القذائف إلى الحصن حتى أوجدوا به ثقبا فراحوا يتدفقون منه ويقاتلون المدافعين .

وسقط حصن أبىّ فوجدوا فيه فيما وجدوا آنية من نحاس وفخار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب ، فقال عليه السلام :

— سخنوا فيها الماء ثم اطبخوا بعد وكلوا واشربوا .

وانهزم من سلم من يهود تلك الحصون إلى حصون الكثيبة وهى ثلاثة حصون : القموص والوطيح وسلالم ، فراح المسلمون يحاصرون

---

(١) الأوداج : جمع مفرده ودَج وهو عرق يظهر فى صفحتى العنق .

(٢) ذفف عليه : أجهز عليه .

القموص عشرين ليلة وكان منيعا ، إنه حصن أبي الحقيق وفيه صفية بنت حيي بن أخطب وكرائم نساء اليهود .

وقاد على بن أبي طالب هجوم المسلمين فانطلق لا يلوى على شيء لا يهاب النبل الذى تساقط على المسلمين كالمطر ، فلما رأى اليهود تقدمه أوجسوا منه خيفة وراحوا يرمونه بالحجارة وهو كالليث يعدو إلى الحصن لا يلتفت خلفه . واندفع الرجال فى أثره وشعار الناس يا منصور أمت أمت ، وشعار ميمنته من الأزد مبرور .

وتداعى الحصن تحت هجمات على كرم الله وجهه وصناديد المسلمين . وسُبيت صفية بنت حيي وبنت عم لها وجاء بلال بهما فمر على قتلى يهود ، فلما رأتهم بنت عم صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها — ﷺ — قال :

— اغربوا عنى هذه الشيطانة .

والتفت إلى بلال وقال :

— أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟

وذهب بلال بهما إلى حيث جمع السبى فجاء دحية الكلبى فقال :

— يا نبى الله أعطنى جارية من السبى .

— اذهب فخذ جارية .

فأخذ صفية بنت حيي ، فجاء رجل إلى النبى — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أعطيت دحية صفية سيدة قريظة والنضير ، لا تصلح إلا لك .

— ادعوه بها .

فجاء بها : فلما نظر إليها النبى — ﷺ — قال :

ــ خذ جارية من السبى غيرها .

وذهب دحية إلى حيث جمع السبى وأخذ جارية أخرى هى أخت كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق زوج صفية .

وحاصر المسلمون حصن الوطيح وحصن السلالم ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوما فلم يخرج أحد منهما ، فهم ــ ﷺ ــ أن يجعل على من فيها المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ــ ﷺ ــ الصلح فى حقن دماء المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم وأن لا يصحب واحد منهم إلا ثوبا واحدا على ظهره ، فصالحهم على أن ذمة الله ورسوله بريئة منهم أن يكتموه شيئا من متاعهم يسألهم عنه .

ووجد فى الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة فرس عربية ، ووجدوا فى أثناء الغنيمة صحائف متعددة من التوراة فجاءت يهود تطلبها فأمر ــ ﷺ ــ بدفعها إليهم ، وغيبوا الجلد الذى كان فيه حلى بنى النضير وعقود الدر والجوهر الذين جلوا به ، فإنهم لما جلوا كان سلام بن أبى الحقيق رافعا له ليراه الناس وهو يقول بأعلى صوته : « هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها » فقال رسول الله ــ ﷺ ــ لكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق :

ــ أين مسك (جلد) حيى بن أخطب ؟

إن رسول الله يسأل عن كنز حيى عظيم بنى النضير فجحد أن يكون يعلم مكانه وقال :

ــ نفد فى النفقة والحروب .

فقال رسول الله ــ ﷺ ــ :

— كان أكثر من ذلك .

ثم جاء رجل من يهود إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة .

فقال رسول الله — ﷺ — لكنانة :

— أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك ؟

— نعم .

فأمر رسول الله — ﷺ — بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقى فأبى أن يؤديه ، فأمر رسول الله — ﷺ — الزبير بن العوام به فقال :

— عذبه حتى نستأصل ما عنده .

فراح الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه ، وجىء بكنز بنى النضير فإذا به أساور ودمالج وخلاخيل وأقرطة وخواتم الذهب وعقود الجوهر والزمرد وعقود أظفار مجزع بالذهب ، إنها الحلى التى كان أعيان مكة يستعيرونها من بنى النضير إذا كان لأحدهم عرس .

ودفع رسول الله — ﷺ — بكنانة لمحمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود ، وقال — ﷺ — لأصحابه :

— يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبا .

وراح المسلمون يتطلعون صوب المدينة فإذا ركب يشتد على الطريق ، إنه جعفر بن أبى طالب ومعه الأشعريون أبو موسى الأشعرى وأخوه أبو رهم وأبو بردة وسبعون رجلا عليهم ثياب الصوف ، منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية روميون من أهل الشام . وراح المسلمون القادمون من الحبشة يقولون فى شوق :

— غدا نلقى الأحبة ، محمدا وحزبه .

وأقبل عليه — ﷺ — جعفر فقام عليه السلام إلى جعفر وقبله بين عينيه وقال :

— جعفر أشد الناس بى خَلقا وخُلقا .

فانتشى جعفر بهذا القول ورقص من نشوة الخطاب ، وراح — ﷺ — يخدم وفد النجاشى بنفسه فقال له أصحابه :

— نحن نكفيك يا رسول الله .

— إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم .

واستمر رسول الله عليه السلام يخدم وفد النجاشى بنفسه وينظر إلى جعفر بن أبى طالب فى غدوه ورواحه وهو مسرور ثم قال :

— لا أدرى بأيهما أنا أسر ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر .

(١٥)

أمر رسول الله — ﷺ — بالغنائم فجمعت واستعمل عليها فروة بن عمرو البياضى ، وأمر بذلك فجزىء خمسة أجزاء وكتب فى سهم منها لله وسائر السُّهمان أغفال ، فكان أول ما خرج سهم النبى — ﷺ — ، وأمر ببيع الأربعة الأخماس فيمن يزيد فباعها فروة وقسم ذلك بين أصحابه .

وكان الذى ولى إحصاء الناس زيد بن ثابت فأحصاهم ألفا وأربعمائة رجل ، والخيل مائتى فرس ، فكانت السُّهمان على ثمانية عشر سهما لكل مائة سهم ، وكان الخمس الذى صار إلى رسول الله — ﷺ —

يعطى منه على ما أراه الله .

وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق ونطاة والكتيبة فكانت الكتيبة خمس الله وسهم النبى — ﷺ — وذوى القربى واليتامى والمساكين ، وطُعم أزواج النبى — ﷺ — وطُعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ ، وبين أهل فدك بالصلح . فإنه لما أقبل رسول الله — ﷺ — على خيبر ودنا منها بعث محيصة بن مسعود إلى أهل فدك يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم فجاءهم محيصة فجعلوا يتربصون ويقولون :

— إن بخيبر عشرة آلاف مقاتل فيهم عامر وياسر والحارث وسيد اليهود مرحب ، ما نرى أن محمدا يقرب إليه .

فمكث محيصة عندهم يومين ثم أراد الرجوع فقالوا :

— نحن نرسل معك رجالا منا يأخذون لنا الصلح .

كانوا يظنون أن رسول الله — ﷺ — لا يقدر على فتح خيبر حتى جاءهم أناس من حصن ناعم وأخبروهم أن رسول الله — ﷺ — فتحه ، فأرسلوا رجلا من رؤسائهم يقال له نون بن يوشع فى نفر يصالحون رسول الله — ﷺ — أن يحقن دماءهم ويجليهم ويخلوا بينه وبين الأموال ، فكانت فدك لرسول الله — ﷺ — لأنها لم تؤخذ بمقاتلة فكان عليه السلام ينفق منها ويعود منها على صغير بنى هاشم ويزوج منها أيمهم .

وأعطى عليه السلام من أموال خيبر مُحيِّصة بن مسعود أعطاه ثلاثين وسقا[1] من شعير وثلاثين وسقا من تمر . وكانت الشق والنطاة فى

(١) الوسق : ستون صاعا أو حمل بعير .

سُهمان المسلمين . وقسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب و لم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله — ﷺ — كسهم من حضرها .

وقسم رسول الله — ﷺ — من الكتيبة — وهو وادى خاص — لفاطمة ابنته مائتى وسق . ولعلى بن أبى طالب مائة وسق ، ولأسامة بن زيد مائتى وسق وخمسين وسقا نوى ، ولعائشة أم المؤمنين مائتى وسق ، ولأبى بكر الصديق مائة وسق ، ولعقيل بن أبى طالب مائة وسق وأربعين وسقا ، ولبنى جعفر خمسين وسقا ، واستمر عليه السلام يقسم السهمان فقد جاء الله بالفرج .

وكانت غطفان قد أرادت وسيدهم عيينة بن حصن أن يعينوا أهل خيبر وكانوا أربعة آلاف ، فإن يهود خيبر لما سمعوا بمجيئه — ﷺ — إليهم أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق وهودة بن قيس فى أربعة عشر رجلا إلى غطفان ليستمدوا بهم وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن غلبوا المسلمين ، فجمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود خيبر فلما ساروا قليلا سمعوا صوتا :

— أيها الناس أهليكم خولفتم إليهم .

فألقى الله الرعب فى قلوبهم فرجعوا على الصعب والذلول فأقاموا فى أهلهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله — ﷺ — وبين أهل خيبر :

وقدمت غطفان عليه — ﷺ — خيبر ، قال عيينة بن حصن لرسول الله عليه السلام وقد وجده فتح حصونها :

— أعطنى مما غنمت من حلفائى فإنى امتنعت عنك وعن قتالك .

فقال رسول الله — ﷺ :

— كذبت ولكن الصياح الذى سمعت أنفذك إلى أهلك ، ولكن لك

ذو الرقيبة .

قال عيينة فى دهش :

— وما ذو الرقيبة ؟

— الجبل الذى رأيت فى منامك أنك أخذته .

لما سمع عيينة بن حصن الخليع المطاع الذى تتبعه ألف امرأة الصوت ورجع إلى أهله و لم يجد شيئا رجع بعد ذلك بمن معه إلى خيبر ، فلما كانوا بالقرب منها نزلوا ليقضوا ليلتهم فنام عيينة وانتبه وقال لقومه :

— أبشروا فإنى رأيت الليلة فى النوم أنى أعطيت ذا الرقيبة (وهو جبل بخيبر) لقد والله أخذت برقبة محمد .

وقدم حجاج بن علاط السلمى وأسلم ، وكان الحجاج مكثرا من المال فقال :

— يا رسول الله إن مالى عند امرأتى بمكة ومتفرق فى تجارة مكة ، فأذن لى أن آتى مكة لآخذ مالى قبل أن يعلموا بإسلامى فلا أقدر على أخذ شىء منه .

فأذن له رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله لابد أن أقول .

كان الحجاج يلتمس من رسول الله عليه السلام أن يتقول وأن يذكر خلاف الواقع وأن يقول ما يحتال به لما يوصله إلى أخذ ماله ، فقال له ﷺ :

— قل .

وجعل رسول الله — ﷺ — صفية عند أم سليم التى هى أم أنس خادمه لتصلح من شأنها حتى تطهر من الحيض فلما اطمأن رسول

الله — ﷺ — أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلاّم بن مشكم شاة مشوية وقد سألت :

— أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله — ﷺ ؟

فقيل لها :

— الذراع .

فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله — ﷺ — تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ، ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله — ﷺ . فأما بشر فأساغها وأما رسول الله — ﷺ — فلفظها ثم قال :

— إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم .

ثم دعا بها فاعترفت فقال :

— ما حملك على ذلك ؟

— بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيُخبر .

فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ، ومات بشر من أكلته التى أكل .

وركب الناس وانطلقوا وكل خالجة فيهم تشكر الله على ما آتاهم من نصر ، ولما قطع عليه السلام ستة أميال من خيبر وأراد أن يعرس بصفية فأبت فوجد[1] النبى — ﷺ — فى نفسه ، فلما سار ووصل الصهباء مال إلى دومة هناك ودخل على صفية وما من الناس أحد أكره إليها منه ،

(١) وجد : حزن .

قتل أباها وزوجها وقومها ، فقال — ﷺ :

— أما إنى أعتذر إليك مما صنعت بقومك ، إنهم صنعوا كذا وكذا .

وما زال يعتذر إليها حتى ذهب ذلك الكره من نفسها ، وخيرها عليه السلام بين أن يعتقها فترجع إلى من بقى من أهلها أو تسلم فيتخذها لنفسه فقالت :

— أختار الله ورسوله .

ورأى عليه السلام بأعلى عينها خضرة فقال :

— ما هذه الخضرة ؟

— كان رأسى فى حجر ابن أبى الحقيق وأنا عروس وأنا نائمة ، فرأيت كأن القمر وقع فى حجرى فأخبرته بذلك فلطمنى فقال :

— والله ، ما تتمنين إلا ملك العرب .

وأعرس بها رسول الله — ﷺ — بعد أن طهرت من الحيض فى قبة ، فما قامت من مقعدها ومن الناس أحد أحب إليها منه — ﷺ .

وبات تلك الليلة أبو أيوب الأنصارى متوشحا سيفه يحرسه ويطوف بتلك القبة حتى أصبح رسول الله — ﷺ — فرأى مكان أبى أيوب فقال :

— مالك يا أبا أيوب ؟

— يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة قتلت أباها وزوجها وقومها وهى حديثة عهد بكفر ، فبت أحفظك .

— اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى .

فأصبح النبى — ﷺ — عروسا فقال :

— كل من عنده شىء فليجىء به .

وبسط نَطعا فجعل الرجل يجيء بالتمر وجعل الرجل يجيء بالسمن وجعل الرجل يجيء بالأقط[1] والسويق[2] وخلط السمن والتمر والأقط والسويق وصنع الحيس ، وقال عليه السلام لأنس بن مالك :

ــ آذن من حولك .

وأولم عليه السلام على صفية ، فلما انتهى الناس من الوليمة قالوا :

ــ إن لم يحجبها فهى أم ولد وإن حجبها فهى امرأته .

وأقام عليه السلام بذلك المحل ثلاثة أيام ، وحان أوان الرحيل فوضع ــ ﷺ ــ ركبته لتركب صفية عليها فأبت أن تضع قدمها على ركبته ووضعت فخذها على ركبته وركبت على عجز ناقته ، فجاء الليل فجعلت تنعس فتضرب رأسها مؤخرة الرحل فيمسها بيده ويقول :

ــ يا هذه مهلا .

ووجدت منه رقة وكياسة ولطفا فقالت :

ــ ما رأيت أحدا قط أحسن خلقا من رسول الله ــ ﷺ .

وحجبها عليه السلام فأصبحت صفية بنت حيى بن أخطب أم المؤمنين .

---

(١) الأقط : يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك .

(٢) السويق : طعام يصنع من الحنطة والشعير .

بلغ قريش أن رسول الله ـ ﷺ ـ سار إلى خيبر فأظهر جماعة منهم السرور وقالوا إنها قرية الحجاز ريفا ومنعة ورجالا ، وأن محمد بن عبد الله سيذوق الهزيمة عند حصون خيبر ، وقال حويطب بن عبد العزى إن رسول الله يغلب أهل خيبر ، ووقع بين الفريقين مراهنة على مائة بعير ، وخرجوا يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان . فلما رأوا الحجاج قالوا :

ـ الحجاج بن علاط عنده والله الخبر .

وخفوا إليه وقالوا :

ـ أخبرنا يا حجاج فإنه بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر وهى بلد يهود وريف الحجاز .

ـ قد بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسركم .

فعدوا إلى ناقته وطافوا بها يقولون :

ـ إيه يا حجاج !

ـ هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمد أسرا وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم ممن أصاب من رجالهم .

فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا :

ـ لقد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل

بين أظهركم .

وقال حجاج :

ـــ أعينونى على جمع مالى بمكة على غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فلّ[١] محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هنالك .

فقاموا فجمعوا له ماله كأحث جمع سمع به ، وجاء صاحبته فقال :

ـــ مالى لعلّى ألحق بخيبر فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقنى التجار .

وأظهر المشركون الفرح والسرور وانكسر من كان بمكة من المسلمين ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب فجعل لا يستطيع أن يقوم ، ثم بعث إلى حجاج غلاما وقال :

ـــ قل له يقول لك العباس الله أعلى وأجل من أن يكون الذى جئت به حقا .

فقال له الحجاج :

ـــ اقرأ على أبى الفضل السلام وقل له ليخل لى بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره واكتم عنى .

فأقبل الغلام فقال :

ـــ أبشر أبا الفضل .

فوثب العباس فرحا كأن لم يمسه شىء وأخبره بذلك ، فأعتقه العباس وقال :

---

(١) الفل : الجمع .

ـــ لله عليّ عتق عشر رقاب .

ولم يستطع العباس صبرا فخرج إلى حيث كان حجاج حتى وقف إلى جنبه وهو فى خيمة من خيام التجار فقال :

ـــ يا حجاج ، ما هذا الخبر الذى جئت به ؟

ـــ وهل عندك حفظ لما وضعت عندك ؟

ـــ نعم .

ـــ فاستأخر عنى حتى أفرغ .

فلما فرغ حجاج من جمع كل شىء كان له بمكة وأجمع الخروج لقى العباس فقال :

ـــ احفظ عليّ حديثى يا أبا الفضل فإنى أخشى الطلب ثلاثا ثم قل ما شئت .

ـــ أفعل .

ـــ إنى قد أسلمت وإن لى مالا عند امرأتى ودينا على الناس ، ولو علموا بإسلامى لم يدفعوه إلى . إنى تركت رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد فتح خيبر وجرت سهام الله وسهام رسوله فيها وتركته عروسا بابنة ملكهم حيى بن أخطب وقتل ابن أبى الحقيق .

فلما أمسى حجاج خرج وطالت على العباس تلك الليالى الثلاث ، فلما مضت الثلاث عمد العباس إلى حلة فلبسها وتخلق بخلوق وأخذ بيده قضيبا ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مر بهم :

ـــ لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل . هذا والله التجلد بحر المصيبة .

فقال العباس فى هدوء ليخفى شماتته :

ـــ كلا والله الذى حلفتم به لم يصبنى إلا خير بحمد الله ، أخبرنى

حجاج أن خيبر فتحها الله على يد رسول الله — ﷺ — وجرت فيها سهام الله وسهام رسول الله ، واصطفى رسول الله صفية بنت ملكهم حيى بن أخطب لنفسه وأنه تركه عروسا بها . وإنما قال ذلك لكم ليخلص ماله وإلا فهو ممن أسلم .

فرد الله الكآبة التى كانت بالمسلمين على المشركين ، فقال المشركون :

— انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن .

ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك وأن رسول الله لما فرغ من خيبر انصرف إلى وادى القرى فنزل به مع غروب الشمس ومعه غلام له يقال له مدعم أهداه إليه رفاعة بن زيد الجذامى ، فبينا هو يضع رحل رسول الله — ﷺ — أتاه سهم غرب فقتله فقال الناس :

— هنيئا له الجنة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— كلا والذى نفس محمد بيده ، إن شَملته لتحترق عليه فى النار .

كان غلها من فىء المسلمين يوم خيبر ، فسمعها رجل من أصحاب رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أصبت شراكين لنعلين لى .

— يقد لك مثلهما من النار .

كانت يهود وادى القرى قد ثوى إليها ناس من العرب ، فلما نزل المسلمون استقبلوهم بالرمى حيث نزلوا ، ولم يكن المسلمون على تعبئة وهم يصيحون من آطامهم ، فعبأ رسول الله — ﷺ — أصحابه وصفهم للقتال ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة وراية إلى الحباب بن المنذر

وراية إلى سهل بن حنيف وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله ، فبرز رجل منهم فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبى طالب فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه أبو دجانة الأنصارى فقتله ، حتى قتل منهم إثنا عشر رجلا كلما قتل رجل منهم دعى من بقى إلى الإسلام .

ولقد كانت الصلاة تحضر فيصلى عليه السلام بأصحابه ثم يعود فيدعو أهل وادى القرى إلى الله ورسوله ، فقاتلهم — ﷺ — حتى أمسى ، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم وفتحها عنوة وغنم أموالهم وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا ، فأقام رسول الله — ﷺ — بوادى القرى أربعة أيام وقسم ما أصاب على أصحابه وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود وعاملهم عليها . فلما بلغ يهود تيماء ما كان من أمرَ خيبر وفدك ووادى القرى صالحوا رسول الله — ﷺ — على الجزية .

وشرد سلمان الفارسى يفكر ، إنه يرى نفسه وقد انتهت رحلة البحث عن الحقيقة إلى عمورية ببلاد الروم ، إنه سمع هناك أنه قد أظل زمان نبى يبعث بدين إبراهيم حنيفا يهاجر إلى أرض ذات نخل بين حرتين ، ومر به ركب ذات يوم فسألهم عن بلادهم فعلم أنهم من جزيرة العرب مبعث ذلك النبى الأمى ، فأعطاهم بقراته وغنمه على أن يحملوه معهم إلى أرضهم . واصطحبوه معهم حتى قدموا به هذا الوادى وادى القرى ، وتذكر سلمان كيف ظلموه وُباعوه إلى رجل من يهود فإذا بالدموع تطفر إلى عينى الباحث عن الحقيقة وراح يقلب عينيه فى

النخيل ، إنه طمع فى ذلك اليوم أن تكون هى البلدة التى وصفت له والتى ستكون مهاجر النبى المنتظر .

وانثالت الذكريات على رأس سلمان فإذا به يرى ذلك اليهودى الذى قدم يوما من بنى قريظة إلى وادى القرى فابتاعه من مولاه ، واختلطت مشاهد بيعه بمشاهد خروج بنى قريظة من حصونهم بمشاهد عمله فى نخل بنى قريظة بتلك اللحظات التى لا تنسى لحظات أول مرة سمع فيها بمقدم رسول الله — ﷺ — إلى المدينة .

وتزاحمت فى رأسه ذكريات إسلامه وذكريات أيامه مع رسول الله عليه السلام ، ثم شرد إلى الأفق البعيد وهو يحمد الله على أن هداه إلى الصراط المستقيم وأن سكب فى قلبه أنوار اليقين .

وانصرف رسول الله — ﷺ — راجعا إلى المدينة ، فلما كان ببعض الطريق قال من آخر الليل :

— من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام ؟

فقال بلال :

— أنا يا رسول الله .

فنزل رسول الله — ﷺ — ونزل الناس فناموا وقام بلال يصلى ، فصلى ما شاء الله أن يصلى ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه[1] فغلبته عينه فنام فلم يوقظهم إلا مس الشمس ، وكان رسول الله — ﷺ — أول أصحابه استيقاظا فقال :

— ماذا صنعت بنا يا بلال ؟

---

(١) يرمقه : ينظر إليه .

— يا رسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك .

— صدقت .

ثم اقتاد رسول الله — ﷺ — بعيره غير كثير ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس ، ثم أمر بلالا فأقام الصلاة فصلى رسول الله — ﷺ — بالناس ، فلما سلم أقبل على الناس فقال :

— إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾[1] .

(١٧)

خرجت لمدينة تستقبل رسول الله — ﷺ — عند عودته من غزوة خيبر ، الرجال تتهلل وجوههم بالبشر والولدان يغمرهم الفرح والنساء على أسطح المنازل قد عمرت أفئدتهم بالسرور ، والمنافقون فى كمد يظهرون غير ما تخفى الصدور .

وكانت النسوة فى دور الرسول عليه السلام يتأهبن لاستقبال نبى الإسلام الذى نصره الله بقلوب سليمة ، إلا عائشة فقد أخذت الغيرة تنهش قلبها بعد أن جاءها نبأ زواج رسول الله عليه السلام من صفية بنت حيى ملك اليهود الشابة الجميلة ذات السبعة عشر ربيعا .

وكانت أم حبيبة أم المؤمنين ترقب عودة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فى لهفة ؛ إنها عادت من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب وعمرو بن أمية الضمرى والمهاجرين الذين كانوا فى الحبشة واستقرت فى المدينة تنتظر أوبة النبى عليه السلام ، بينا انطلق الرجال إلى خيبر

---

(١) طه ١٤ .

ليجاهدوا فى سبيل الله .

وكانت عائشة على علم بأن رسول الله — ﷺ — كتب إلى النجاشي يزوجه بنت أبى سفيان . فلما جاءت أم حبيبة إلى المدينة لم تستشعر عائشة نحوها غيرة فهى فى الأربعين من عمرها ، وهى تستشعر فى أعماقها أن ذلك الزواج مبعثه سياسى أما الزواج من اليهودية الحسناء فقد شغلها وأرق نومها .

وبلغ الركب المدينة ، وآثر النبى عليه السلام ألا يدخل على زوجاته بصفية فأنزلها فى بيت حارثة بن النعمان ، وتسامعت نساء الأنصار بها فجئن ينظرن إلى جمالها . وراح عليه السلام يزور أهل بيته فبدأ بالزهراء وأخذ يقبل الحسن والحسين ، ثم دار على نسائه فأخذن يرحبن بمقدمه ويهنئنه بما فتح الله عليه ، وقد قرأ عليه السلام الغيرة فى عينى بنت الصديق فراح يرقبها .

وخرجت عائشة متنقبة على حذر وأخذ رسول الله عليه السلام يتتبع خطاها ، إنها تسير إلى دار الحارثة بن النعمان حيث استقرت ضرتها الجديدة . ودخلت عائشة وانتظر رسول الله عليه السلام حتى خرجت فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكا :

— كيف رأيت يا شقيراء ؟

وجاهدت عائشة لتئد غيرتها وقالت وهى تهز كتفها فى استخفاف :

— رأيت يهودية .

— لا تقولى ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها !

وعادت عائشة إلى حفصة لتبثها نجواها ، وكانت حفصة موضع سر عائشة ، وكانت عائشة أكثر نساء النبى غيرة عليه حتى إنها كانت تغار

من خديجة إذا مدحها رسول الله عليه السلام ، فقد قالت له ذات يوم لما ذكر حاضنة الإسلام بخير :

ـــ قد بدلك الله خيرا منها .

فغضب رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ والله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها .

واتفق له عليه السلام أنه أرسل لحما لامرأة تناوله ـــ ﷺ ـــ ودفعه لآخر يدفعه لها ، فسألته عائشة عن تلك المرأة فقال :

ـــ إن خديجة أوصتنى بها .

فقالت عائشة فى غضب :

ـــ لكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة .

فقام رسول الله ـــ ﷺ ـــ مغضبا ، فلبث ما شاء الله ثم رجع فإذا أم رومان أم عائشة فقالت :

ـــ يا رسول الله مالك ولعائشة ؟ إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها .

فأخذ شدق عائشة وقال :

ـــ والله لقد آمنت بى إذ كفر بى قومى ، ورزقت منها الولد وحرمتموه .

كانت تغار من الأموات فما بالك بالأحياء الحسان !

وانتقلت صفية إلى دور النبى عليه السلام فآثرت السلامة ، فقد فطنت مذ وطئت قدماها وجود حزبين فى دور رسول الله ـــ صلوات

الله وسلامه عليه : حزب بقيادة عائشة ومعها حفصة وحزب من الزوجات الأخريات تؤيده فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام ، فعزمت على أن تكون صديقة الجميع فأهدت الزهراء حلية لها من ذهب رمز مودة وولاء .

وراحت تتقرب من بنت الصديق وبنت عمر ، وكانت حفصة فيها حدة وكانت تعارض رسول الله عليه السلام وما كان عمر ليتصور أن ابنته تراجع الرسول الكريم . وذات يوم صخب على امرأته فراجعته فأنكر أن تراجعه ، فقالت :

— ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى — ﷺ — ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل .

فأفزعه ذلك منهن فدخل على حفصة فقال لها :

— أتغاضب إحداكن النبى — ﷺ — حتى الليل ؟ !

— نعم .

— قد خبت وخسرت ، أفتأمنين أن يغضب الله بغضب رسوله فتهلكى ؟ لا تستكثرى النبى — ﷺ — ولا تراجعيه فى شيء ولا تهجريه وسلينى ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبى — ﷺ — .

وذهبت نصيحة عمر أدراج الرياح ، فحفصة معتزة بشخصيتها لا تتحرج من معارضة الرسول عليه السلام ، إنه عليه السلام يذكر عندها أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال :

— لا يدخل النار إن شاء الله أحد من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها .

— بلى يا رسول الله !

فانتهرها . فتلت الآية :

— ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾[١]

— قال الله : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾[٢] .

وشجر بين النبى — ﷺ — وبين حفصة أمر ، فقال لها :

— اجعلى بينى وبينك رجلا .

— نعم .

— فأبوك إذًا .

فأرسلت إلى عمر فجاء ، فلما دخل عليهما قال لها النبى — ﷺ :

— تكلمى .

— بل أنت يا رسول الله تكلم ولا تقل إلا حقا .

فرفع عمر يده فوجأها[٣] فى وجهها ، فقال له النبى — ﷺ :

— كف يا عمر .

فقال عمر فى غضب :

— يا عدوة الله ، النبى — ﷺ — لا يقول إلا الحق والذى بعثه بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدى حتى تموتى .

كانت صفية ترى ما يجرى فى دور الرسول عليه السلام فكانت وهى العاقلة الفاضلة تحاول أن تنأى بنفسها عن المعارك الخفية الناشبة بين زوجات الرسول عليه السلام . وكانت تتودد إلى عائشة وحفصة لعلها

(١ ، ٢) مريم ٧١ — ٧٢ .

(٣) وجأها ضربه بها .

تنعم بالهدوء وتسعد بحبها لنبى الإسلام ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولكنها لم تسلم من التحقير . دخل عليها — ﷺ — يوما وهى تبكى فقال لها فى ذلك فقالت :

— بلغنى أن عائشة وحفصة ينالان منى ويقولان نحن خير من صفية ، نحن بنات عم رسول الله — ﷺ — .

— قولى لهن كيف تكن خيرا منى وأبى هارون وعمى موسى عليهما الصلاة والسلام ، وزوجى محمد .

وظلت صفية تحس فى أعماقها أنها غريبة فى دور الرسول ، فأزواجه عليه السلام لا يستطعن أن ينسين أصلها . إنه كان فى سفر وهى معه وزينب بنت جحش فاعتل بعير صفية وفى إبل زينب فضل ، فقال لها :

— إن بعير صفية اعتل فلو أعطيتها بعيرا ؟

— أنا أعطى تلك اليهودية ؟

فهجر زينب بنت جحش لذلك ذا الحجة والمحرم وبعض صفر ، ثم أتاها بعد وعاد إلى ما كان عليه معها .

(١٨)

المدينة تحتفل بنصر الله والفتح قد ملأت النشوة أفئدة الناس ، فما كان يدور بخلد أحد من الأوس والخزرج قبل أن يشرفهم الله برسالته أن يأتى يوم تكون فيه كلمة العرب هى العليا ، وأن يضرب الذلة والمسكنة على بنى إسرائيل الذين عبدوا أنفسهم غرورا وقالوا فى تبجح إنهم وحدهم الناس .

وكانت أم حبيبة بنت أبى سفيان فى الدار تنتظر دخولها على رسول الله — ﷺ — وقد غمرها سرور امتزج برهبة ، وترامى إليها أصوات الرجال الذين اجتمعوا حول الوليمة التى أعدها عثمان بن عفان فتهللت بالفرح فأمنيتها التى عاشت لها مذ أرسل عليه السلام عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ليزوجها منه ، ﷺ — تتحقق ، فلن ينقضى الليل قبل أن تناجى الرسول — صلوات الله وسلامه عليه . ومس أذنيها صوت ذى النورين عثمان بن عفان فإذا بها تتذكر أيام أن كان عثمان وزوجه رقية بنت رسول الله — ﷺ — فى الحبشة ، كانا ملاذ المسلمين هناك وكان عثمان على خلق كريم يخشى الله ويستحى منه الناس ، فكان زينة المسلمين ، وكانت وشائج القربى تربط بينه وبينها فصفية بنت أبى العاص بن أمية أمها عمته ، وكانت سعيدة بهذه القرابة ولكن أخوة الإسلام كانت تجعله أقرب إلى نفسها من أبيها أبى سفيان .

ودخلت أم حبيبة على رسول الله — ﷺ — وأخذت تخبره كيف كانت الخطبة ، قالت :

— رأيت فى المنام كأن قائلا يقول لى يا أم المؤمنين ففزعت فأولتها بأن رسول الله — ﷺ — يتزوجنى ، فما شعرت إلا وقد دخلت علىّ جارية النجاشى فقالت لى إن الملك يقول لك إن رسول الله — ﷺ — كتب إليه يزوجك منه ، فقلت لها بشره الله بالخير .

ويقول لك وكلى من يزوجك ، فأرسلت بالوكالة إلى خالد بن سعيد وأعطيت تلك الجارية سوارين وخَدَمتين (خلخالين) وخواتم فضة سرورا بما بشرت به .

فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ومن معه من

المسلمين فحضروا ، وخطب النجاشي فقال : الحمد لله الملك القدوس ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم عليه السلام ، أما بعد فإن رسول الله — ﷺ — كتب إلىّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان فأجبنا إلى ما دعا إليه رسول الله — ﷺ ، وقد أصدقها أربعمائة دينار — ثم سكب الدنانير بين يدى القوم ، فتكلم خالد بن سعيد بن العاص فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أما بعد فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله — ﷺ — وزوّجته أم حبيبة بنت أبى سفيان فبارك الله لرسول الله — ﷺ . ودفع النجاشى الدنانير لخالد ابن سعيد فقبضها منه .

ثم لما أرادوا أن يقوموا بعد العقد قال لهم النجاشي : اجلسوا فإن من سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا . فلما كان من الغد جاءتنى جارية النجاشى فردت علىّ جميع ما أعطيتها وقالت : إن الملك عزم على ألا أرزأك شيئا ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر .

وجاءت بورس وعنبر وزباد كثير وقالت : حاجتى إليك أن تقرئى رسول الله — ﷺ — منى السلام وتعلميه أنى قد اتبعت دينه .

وكانت كلما دخلت علىّ تقول : لا تنسى حاجتى إليك .

فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال :

— وعليها السلام ورحمة الله وبركاته .

كانت أم حبيبة راضية مستبشرة بينا كان أبوها أبو سفيان فى حيرة قد

نزل به هم ثقيل . إنه فى دار الندوة يتشاور مع سادات قريش ، فأبو بصير وأبو جندل ومن معهما من المسلمين لا يظفرون بأحد من قريش إلا قتلوه ، وما تمر بهم عير إلا أخذوها . كان سهيل بن عمرو يوم اشترط فى صلح الحديبية أن من جاء رسول الله — ﷺ — مسلما من قريش رده إليهم يحسب أنه انتصر لما أملى ذلك الشرط ، وقد برهنت الأيام أنه فتح على قريش بابا من الشر تصطلى بناره ؛ فقوافل قريش الرائحة الغادية بين مكة والشام باتت فى خطر ، وتجارة قريش توشك أن تبور .

ثار أبو سفيان ثورة عارمة وقال لو أنه حضر صلح الحديبية ما أصر على ذلك الشرط الذى ظن المسلمون أنه مجحف بهم وكاد يصدع ائتلافهم لولا قوة شخصية نبى الإسلام ، وقد برهنت الأيام أنه عليه السلام كان وحده يعرف أن ذلك الشرط الذى يبدو نصرا لقريش سيصبح شوكة فى جنوبهم تقض مضاجعهم وتجعلهم يهرعون إليه يلتمسون منه أن يخلصهم من ثورة الذين لن تقبلهم المدينة ولن يعودوا إلى مكة ليفتنوا عن دينهم ويساموا ألوان العذاب .

وراح سادات قريش يقلبون وجوه الرأى ، قال قائل منهم :

— نكتب له نسأله بالأرحام إلا آواهم ولا حاجة لنا بهم .

وكادوا يستقرون على هذا الرأى ولكنهم خشوا ألا تكون الكتابة وحدها كافية لإسقاط شرط فى صلح أقره الجانبان وشهد عليه شهود ، فقرروا أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة ليقر بأن من أتى رسول الله عليه السلام من مسلمى مكة فهو آمن ولا حاجة لهم به .

وشد أبو سفيان بن حرب الرحال إلى المدينة وهو يحس فى عين ذاته أن اليوم غير الأمس . إنه قاد جيش قريش يوم أحد وهو يرجو أن

يستأصل شأفة المسلمين ، وقاد الأحزاب يوم الخندق وهو فى زهوه لا يخالجه شك أن النصر حليفه ، أما اليوم فهو ينطلق إلى المدينة ليلتمس من محمد أن يسقط شرطا فى المعاهدة كان سادات قريش يحسبونه عين النصر .

ودخل زعيم قريش وسيدها المدينة فهرع إليه المسلمون يقودونه إلى حيث كان رسول الله — ﷺ ، واجتمع الرجلان فى المسجد و لم يكن يفصل بين أبى سفيان وابنته أم حبيبة سوى جدار الدار ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يذهب إليها ليملأ عينيه منها ، فهى قد اختارت الله ورسوله على أبيها و كل قومها الذين عميت قلوبهم التى فى صدورهم عن النور .

وقال أبو سفيان : إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط ، من جاء منهم إليك فأمسكه فى غير حرج ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره .

وراح عمر بن الخطاب ينظر إلى ما يجرى أمامه وهو مشدوه : إنه يحس عرق الخجل يغمره وتذكر ثورته يوم الحديبية إذ وثب فأتى أبا بكر فقال : أليس هو برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

ورن فى أغواره صوت أبى بكر وهو يقول : « يأيها الرجل إنه رسول الله — ﷺ — وليس يعصى ربه وهو ناصره ، استمسك بغرزه[١] حتى تموت » فأحس كأن الأرض تميد به[٢] ، ووقعت عيناه على أبى

(١) الغرز للإبل والركاب للفرس والمراد : لازمه .

(٢) تميد : تضطرب .

عبيدة بن الجراح فإذا بقوله يوم الحديبية يخز روحه ويضنيه : « ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله — ﷺ — يقول ما يقول ؟ تعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

إنه تكلم فى ذلك اليوم كلاما رجا أن يكون خيرا فإذا به يعلم الساعة أن غضبه لرد أبى جندل إلى قريش مع أبيه سهيل بن عمرو لم يكن صوابا ، وأن طاعة رسول الله — ﷺ — خير مما أحبه . وعزم عمر على أن يصوم ويتصدق ويصلى ويعتق مخافة كلامه الذى تكلم به فى صلح الحديبية .

وكتب رسول الله — ﷺ — إلى أبى جندل وإلى أبى بصير أن يقدما عليه ، وأن من معهما من المسلمين يلحقون ببلادهم وأهـليهم ولا يتعرضوا لأحد مر بهم من قريش ولا لعيراتهم .

كان أبو بصير وأبو جندل ومن انضم إليهما من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب قد نزلوا محلا من طريق الشام تمر به عيرات قريش ، وكانوا ثلاثمائة مقاتل لا تمر بهم عير إلا أخذوها . فضاقت قريش بفعالهم وكانوا يعرفون خطر ما يقومون به فكانت نفوسهم راضية وإن كانوا فى شوق إلى رؤية رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

وأحس أبو بصير بالوهن يـدب فى كيانه وعرف أنه الموت فلم يجزع ، ولكن فؤاده كان يهوى إلى المدينة وإلى رسول الله عليه السلام . وسجى فى فراشه ليجود بأنفاسه ، وبينا هو يقاسى سكرات الموت قدم كتاب رسول الله فلما قرءوه ارتفعت الأصوات بالتكبير ، فمد أبو بصير عينيه إلى حيث كان أبو جندل لكأنما كان يسأله عن النبأ العظيم الذى أشاع الفرح بين الرجال ، فمد أبو جندل إليه يده بالكتاب فأخـذ

أبو بصير يقرأه بعينين واهيتين ورفت على شفتيه بسمة رضا ، ثم مات وكتاب رسول الله — ﷺ — فى يده .

وراح الرجال ينظرون إليه بأعين دامعة ويترحمون عليه ويتذكرون قول رسول الله — ﷺ — فى حقه :

— ويل أمه مسعر حرب أن لو كان معه رجال .

وكان معه رجال .

(١٩)

وفد على رسول الله — ﷺ — قبل صلح الحديبية تسعة رهط من بنى عبس فكانوا من المهاجرين الأولين ، قالوا :

— إنه قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا أموال ومواشى هى معاشنا ؛ فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— اتقوا الله حيث كنتم ، فلن يلتكم[١] من أعمالكم شيئا ولو كنتم بصمد وجازان[٢] .

ولما سمعت سعد العشيرة بخروج النبى — ﷺ — وثب رجل من بنى أنس الله بن سعد العشيرة إلى صنم يقال له فراس فحطمه ، ثم وفد

---

(١) يلتكم : ينقصكم .

(٢) موضع فى طريق حاج صنعاء .

إلى النبى — ﷺ — فأسلم وقال :

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى
وخلفت فرّاصا بدار هوان
شددت عليه شدّة فتركته
كأن لم يكن والدهر ذو حدثان
فلما رأيت الله أظهر دينه
أجبت رسول الله حين دعانى
فأصبحت للإسلام ما عشت ناصرا
وألقيت فيها كلكلى وجرانى
فمن مبلغ سعد العشيرة أننى
شريت الذى يبقى بآخر فانى

ووفد إليه عليه السلام عبد العزى بن بدر بن زيد بن معاوية الجهنى ومعه أخوه لأمه أبو روعة وهو ابن عم له ، فقال رسول الله — ﷺ — لعبد العزى :

— أنت عبد الله .

وقال لأبى روعة :

— أنت رعت العدو إن شاء الله .

وقال :

— من أنتم ؟

— بنو غيَّان .

— أنتم بنو رشدان .

وكان لهم صنم وكانوا يعظمونه ، وكان عمرو بن مرة الجهنى

سادنه ، فلما سمع برسول الله — ﷺ — كسره وخرج حتى أتى النبى — ﷺ — فأسلم وشهد شهادة الحق وآمن بما جاء به من حلال وحرام ، ثم قال :

شهدت بأن الله حق وأننى
لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساق الإزار مهاجرا
إليك أجوب الوعث بعد الدكادك(١)
لأصحب خير الناس نفسا ووالدا
رسول مليك الناس فوق الحبائك(٢)

فبعثه رسول الله — ﷺ — إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه إلا رجلا واحدا رد عليه قوله .

وكان أول من وفد على رسول الله — ﷺ — من مضر أربعمائة من مزينة ، وذلك فى شهر رجب سنة خمس ، فجعل لهم رسول الله — ﷺ — الهجرة فى دارهم وقال :

— أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم .

وكان أول من قدم منهم خزاعى بن عبد نهم فبايعه على قومه مزينة ، وقدم معه عشرة فيهم بلال بن الحارث والنعمان بن مقرّن ، ثم خرج إلى قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله — ﷺ — حسان بن

---

(١) الوعث : المكان السهل والدكادك : أرض فيها غلظ .

(٢) الحبائك : طرائق النجوم . أراد فوق السموات .

ثابت فقال :

ــ اذكر خزاعيا ولا تهجه .

فقال حسان :

ألا أبلــــغ خزاعيـــــا رسولا
بــأن الـــذم يغسلـــه الوفـــاء

وأنك خير عثمان بـــن عمـــرو
وأسناهــــا إذا ذكـــر السنـــــاء [1]

وبايــعت الــــرسول وكان خيرا
إلى خير وآداك الثنـــــــــــاء

فمـــا يعجــزك أو مـــا لا تطقـــه
مـــن الأشيـــاء لا تعجــز عـــداء

وعداء بطنه الذى هو منه ، فقام خزاعى فقال :

ــ يا قوم قد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله .

ــ فإنا لا ننبو[2] عليك .

فأسلموا ووفدوا على النبى ــ ﷺ .

وبعث بنو سعد بن بكر إلى رسول الله ــ ﷺ ــ رجلا منهم يقال له ضمام بن ثعلبة فى شهر رجب سنة خمس ، فقدم وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله . ثم دخل المسجد رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين فأقبل حتى وقف على رسول الله ــ ﷺ ــ فى أصحابه فقال :

---

(١) أسناها : أكثرها ضياء والمراد أشرفها .

(٢) نبعد عنك .

ـــ أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ أنا ابن عبد المطلب .

ـــ أمحمد ؟

ـــ نعم .

ـــ يا بن عبد المطلب ! إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجد[1] فى نفسك .

ـــ لا أجد فى نفسى فاسأل عما بدا لك .

ـــ أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إلينا رسولا ؟

ـــ اللهم نعم .

ـــ فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد[2] التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟

ـــ الهم نعم .

ـــ فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نصلى هذه الصلاة الخمس ؟

ـــ نعم .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام

---

(١) لا تجد فى نفسك : لا تضمر غيظا .

(٢) الأنداد : جمع ند ، وهو النظير المعادل .

والحج وشرائع الإسلام كلها ينشده عن كل فريضة منها كما ينشده فى التى قبلها ، حتى إذا فرغ قال :

— فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض . وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص .

ثم انصرف إلى بعيره راجعا ، فقال رسول الله — ﷺ :

— إن صدق ذو العقيصتين (الضفيرتين) دخل الجنة .

فأتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به :

— بئس اللات والعزى .

فقالوا :

— مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون .

— ويلكم ! إنهما والله لا ينفعان ولا يضران . إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا فاستنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

فما أمسى من ذلك اليوم فى حيه رجل أو امرأة إلا مسلما .

وقدمت أشجع على رسول الله — ﷺ — عام الخندق وهم مائة ، رأسهم مسعود بن رجيلة بن نويرة بن طريف فنزلوا شعب سلع (جبل بضاحية المدينة) فخرج إليهم رسول الله — ﷺ — وأمر لهم بأحمال التمر ، فقالوا :

— يا محمد ! لا نعلم أحدا من قومنا أقرب دارا منك منا ولا أقل عددا ، وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك .

فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك .

كانت الوفود تأتى إلى رسول الله عليه السلام قبل صلح الحديبية ، وقد جاءت الوفود بعد الصلح ، قدم أبو ثعلبة الخشينى على رسول الله — ﷺ — وهو يتجهز إلى خيبر فأسلم وخرج معه فشهد خيبر ، ثم قدم بعد ذلك نفر من خشين فنزلوا على أبى ثعلبة فأسلموا وبايعوا ورجعوا إلى قومهم .

ووفد الأشعريون مع جعفر وأصحابه على رسول الله ﷺ ، وكان الأشعريون خمسين رجلا منهم أبو موسى الأشعرى ومعهم رجلان من عك ، وقدموا فى سفن فى البحر وخرجوا بجدة ، فلما دنوا من المدينة جعلوا يقولون :

غدا نلقى الأحبة　　　محمدا وحزبه

ثم قدموا فوجدوا رسول الله — ﷺ — فى سفره بخيبر ، فلقوه — ﷺ — فبايعوه وأسلموا ، فقال رسول الله — ﷺ :

— الأشعريون فى الناس كصرة فيها مسك .

وقدم على رسول الله — ﷺ — رجل من بنى سليم يقال له قيس بن نسيبة ، فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابه ووعى ذلك كله ، ودعاه رسول الله — ﷺ — إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه فقال :

— قد سمعت برجمة[1] الروم وهينمة فارس وأشعار العرب وكهانة الكهان وكلام مقاول حمير ، فما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم فأطيعونى وخذوا نصيبكم منه .

(١) رطانة .

كانت هدنة الحديبية سببا فى انتشار الإسلام ، فإن الكفار لما أمنوا القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام فأسلم كثير منهم حتى إن الذين أسلموا فى سنتين بعد الصلح يعدلون الذين أسلموا قبلهما ، وقال أبو بكر الصديق :

ـــ ما كان فتح الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد ـــ ﷺ ـــ وربه ، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد الله .

(٢٠)

أنزل رسول الله ـــ ﷺ ـــ مارية فى بيت لحارثة بن النعمان فكانت على قرب من مسجد الرسول ودور نسائه . إنها جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله عليه السلام فكان عامة الليل والنهار عندها ، فجزعت عائشة بنت أبى بكر وما غارت على امرأة إلا دون ما غارت على مارية .

كانت مارية من قرية من صعيد مصر تدعى « حفن » قريبة من بلدة « أنصنا » على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين ، وكانت لأب قبطى وأم مسيحية رومية فجاءت جميلة جمعت أروع ما فى الدم المصرى والدم الرومانى .

وأعاد وفود مارية فى هدايا المقوقس إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ واصطفاؤها لنفسه ذكريات بعيدة ، ذكريات إهداء ملك مصر هاجر المصرية إلى خليل الرحمن عليه السلام فقد أصبحت أم العرب لما أنجبت إسماعيل أبا العرب . ترى أتنجب مارية لرسول الله ولدا فيجدد الأواصر

بين العرب والمصريين ويصبح الجسر بين حضارة الماضى ودين المستقبل ؟

وراحت عائشة ترقب فى قلق هذه الجارية الحلوة التى وفدت من وادى النيل لتثير غيرتها فجزعت لما رأت الرسول الحبيب عليه السلام يكثر من التردد عليها ويمكث لديها طويلا ، ولما كانت عائشة وحفصة صديقتين لا سر بينهما فقد عبرت عائشة عن قلقها وهى تناجى بنت عمر وتمنت لو أن الله يريحها من بنت شمعون القبطية .

وطال الحديث بين مارية ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه حول هاجر المصرية وإبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل الذى تكونت ببركته مكة حول البئر التى فجرها الله تحت قدميه وقد أشرف على الهلاك عطشا ، فألفت مارية حين تخلو بنفسها أن تفكر فى هاجر ومصريتها وأمومتها لإسماعيل والعرب ، وباتت أحلامها المجنحة تتمنى أن تهب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الولد كما وهبت هاجر جده إبراهيم الولد .

وكان ﷺ — فى بيت حفصة فاستأذنت فى زيارة عائشة لأنهما كانتا متصادقتين فأذن لها ، فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى مارية وأدخلها بيت حفصة فرجعت حفصة فأبصرت مارية مع النبى — ﷺ — فى بيتها فلم تدخل حتى خرجت مارية ، ثم دخلت وقالت له :

— إنى رأيت من كان معك فى البيت .

وغضبت وبكت وقالت :

— يا رسول الله لقد جئت إلى بشىء ما جئت به إلى أحد من نسائك ، فى يومى وفى بيتى وعلى فراشى !

فلما رأى رسول الله فى وجهها الغيرة قال لها :

— أما ترضين أن أحرمها على نفسى ولا أقربها أبدا ؟

— بلى .

وحلف ألا يقربها وقال :

— اكتمى علىّ .

ولم تستطع حفصة أن تكتم السر فانطلقت إلى عائشة وقالت :

— قد أراحنا الله من مارية فإن رسول الله — ﷺ — قد حرمها على نفسه .

وعرف رسول الله عليه السلام أن حفصة لم تكتم عليه وأنها أنبأت عائشة بأمر مارية ، فلما أخبر عائشة ببعض ما أسرته لها حفصة قالت عائشة :

— من أنبأك هذا ؟

— نبأنى العليم الخبير .

وسرعان ما ذاع الخبر بين نساء رسول الله عليه السلام فجئن يخضن فى الحديث ، فأقسم عليه السلام أن لا يجتمع بهن شهرا ، وصعد إلى مشربة له يرقى إليها بعجلة وهو جذع يرقى عليه إلى المشربة وينحدر منها عليه ، وغلام له أسود يقال له رباح على رأس العجلة ، وأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم * وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير * إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه

فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾[1] .

وجاء الليل ورسول الله عليه السلام فى المشربة ، فقدم على عمر بعض أصدقائه من الأنصار فدق عليه بابه وناداه فخرج إليه فقال :

— حدث عظيم .

— ماذا ؟ أجاءت غسان ؟

كانوا حدثوا أن غسان تنعل الخيل لغزوهم ، فحسب عمر أن غسان قد جاءت تدهم المدينة فقال الأنصارى :

— لا بل أمر أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله — ﷺ — نساءه .

— خابت حفصة وخسرت ! كنت أظن هذا كائنا .

— حتى إذا صلى الصبح شد عليه ثيابه ودخل على حفصة وهى تبكى فقال :

— أطلقكن رسول الله — ﷺ ؟

— لا أدرى هو هذا معتزلا فى هذه المشربة .

— لأقولن من الكلام شيئا أضحك به النبى — ﷺ .

وأتى رباح وهو واقف على رأس العجلة فقال :

— استأذن لعمر .

فدخل الغلام ثم خرج وقال :

---

(١) التحريم (١ — ٥) .

— قد ذكرتك له فصمت .

فانطلق عمر حتى أتى المسجد فجلس قليلا ثم غلبه ما يجد ، فأتى الغلام فقال :

— استأذن لعمر .

فدخل ثم خرج إليه فقال :

— قد ذكرتك له فصمت .

فلما كان فى المرة الرابعة وقال له مثل ذلك ولى مدبرا فإذا الغلام يدعوه فقال :

— ادخل قد أذن لك .

فدخل فسلم على رسول الله — ﷺ — فإذا هو متكىء على رمل حصير قد أثر فى جنبه فقال :

— أطلقت يا رسول الله نساءك ؟

فرفع رأسه إلى عمر وقال :

— لا .

— الله أكبر.

— ثم قال :

— كنا معشر قريش بمكة نغلب على النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن منهن ، فكلمت زوجتى فراجعتنى فأنكرت عليها فقالت تنكر أن راجعتك فوالله لقد رأيت أزواج النبى — ﷺ — يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك وخسر ، أتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب زوجها رسول الله — ﷺ ؟

فذهبت إلى حفصة فقلت أتراجعن رسول الله — ﷺ ؟ فقالت نعم وتهجره إحدانا اليوم إلى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله — ﷺ ؟ لا تراجعنَّ رسول الله — ﷺ — ولا تسألينَّه شيئا وسليني ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك أحب إلى رسول الله — ﷺ — منك .

فتبسم عليه السلام فقال عمر :

— أستأنس يا رسول الله ؟

— نعم .

فجلس وقال :

— يا رسول الله قد أثر فى جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله .

فاستوى — ﷺ — جالسا وقال :

— أفى شك أنت يا بن الخطاب ! أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا .

— أستغفر الله يا رسول الله .

ومرت الأيام ورسول الله عليه السلام يمضى سحابة يومه فى شئون الناس وطرفا من الليل فى مسجده يصلى ثم يصعد إلى المشربة ، وخلت دور الرسول عليه السلام من البهجة وران عليها ترقب وقلق وانتظار .

فلما مضى تسع وعشرون يوما أنزل الله تعالى عليه أن يخير نساءه فى قوله تعالى : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله

ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما * يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما * يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا * واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾[1] .

فنزل عليه السلام ودخل على عائشة فقالت له :

— يا رسول الله أقسمت أن لن تدخل علينا شهرا وقد دخلت وقد مضى تسع وعشرون يوما أعددهن .

— إن هذا الشهر تسع وعشرون .

ثم قال — ﷺ :

— يا عائشة إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تعجلى حتى تستأمرى أبويك .

— فما هو يا رسول الله ؟

فقرأ عليهما : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ... ﴾ .

— أفى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

---

(١) الأحزاب ٢٨ — ٣٤ .

ثم قالت له :

ـــ لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت لك .

ـــ لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها أن الله لم يبعثنى متعنتا ولكن بعثنى معلما ميسرا .

ثم فعل بقية أزواجه ـــ ﷺ ـــ مثل ما فعلت عائشة ، وعاد إلى دور الرسول عليه السلام النور الذى غاب عنها .

(٢١)

كان أبو هريرة يلزم رسول الله ـــ ﷺ ـــ بشبع بطنه حتى لا يأكل الخمير ولا يلبس الحبير ولا يخدمه أحد . وكان فى سبعين رجلا من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما بردة أو كساء قد ربطوها فى أعناقهم يشتد بهم الألم من الجوع ، فيخرج من بيته إلى المسجد لا يخرجه إلا الجوع ، فيجد نفرا من أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيقولون :

ـــ يا أبا هريرة ما أخرجك هذه الساعة ؟

ـــ ما أخرجنى إلا الجوع .

ـــ نحن والله ما أخرجنا إلا الجوع .

فقاموا فدخلوا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ ما جاء بكم هذه الساعة ؟

ـــ يا رسول الله جاء بنا الجوع .

فدعا رسول الله ـــ ﷺ ـــ بطبق فيه تمر فأعطى كل رجل منهم تمرتين ، فقال عليه السلام :

ـــ كلوا هاتين التمرتين واشربوا عليهما من الماء فإنهما ستجزيانكم يومكم هذا .

فأكل أبو هريرة تمرة وجعل تمرة فى حجرته ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ يا أبا هريرة لم رفعت هذه التمرة ؟

ـــ رفعتها لأمى .

ـــ كلها فإنا سنعطيك لها تمرتين .

فأكلها فأعطاه عليه السلام لها تمرتين ، وكانت أمه بقيت على الشرك فدخل يدعوها إلى الإسلام فلم تستجب لدعوته وأعرضت عنه فأحس أبو هريرة أسى ، إنه يحب أمه وإنه يجاهد على أن يزحزحها عن النار ولكنها تأبى فى صلف واستكبار .

صحب أبو هريرة رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى حله وترحاله يدخل بيته ويحضر مجلسه وقد اتخذ الصفة مكانا له ينتقل بين الصحابة يقرئونه القرآن ، وجعله رسول الله ـــ ﷺ ـــ عرّيف أهل الصفة فإذا أراد رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يجمعهم لطعام حضر تقدم إلى أبى هريرة ليدعوهم ويجمعهم لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم .

وقضيت صلاة العشاء فانصرف الناس إلى دورهم وبقى أبو هريرة يمضى ليله فى المسجد . ودخل الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ منزله ونام أصحابه ، ولما انقضى من الليل ثلثه خرج الرسول عليه السلام إلى المسجد وقال لأبى هريرة :

ـــ ادع لى أصحابى .

فجعل أبو هريرة يأتيهم رجلا رجلا فيوقظهم حتى جمعهم فجاءوا باب

الرسول عليه السلام فاستأذنوا فأذن لهم ، فدخلوا وكانوا قرابة ثلاثين رجلا فوضع الرسول لهم صحفة فيها صنيع شعير ووضع يده عليها وقال :

ــ خذوا باسم الله ، والذى نفس محمد بيده ما أمسى فى آل محمد طعام ليس شيئا ترونه .

كان أبو هريرة يقاسى من الجوع ولكن ما كان يعانيه من أمه أقسى وأشد ؛ إنه يدعوها إلى الإسلام فلا تستجيب فأصابه من الهم والحزن ما أضناه .

وكان أبو هريرة يحب رسول الله ــ ﷺ ــ حبا جما ويحب من أحبه رسول الله ــ ﷺ ــ فقد لقى أبو هريرة الحسن بن علىّ فقال له :

ــ أرنى أقبل منك حيث رأيت رسول الله ــ ﷺ ــ يقبل .

فرفع القميص وقبل سرته .

وذات يوم كان الجوع يمزق أمعاءه فأتى عمر بن الخطاب فقام له وهو يسبح بعد الصلاة ، فانتظره فلما انصرف دنا منه فقال :

ــ أقرئنى آيات من كتاب الله .

وما يريد إلا الطعام فأقرأه آيات من سورة آل عمران ، فلما بلغ أهله دخل وتركه على الباب فقال :

ــ ينزع ثيابه ثم يأمر لى بطعام .

فلم ير شيئا فلما طال عليه قام فمشى ، فاستقبله رسول الله ــ ﷺ ــ فكلمه فقال :

ــ يا أبا هريرة إن خلوف فمك الليلة لشديد ؟ !

ــ أجل يا رسول الله لقد ظللت صائما وما أفطرت بعد وما أجد ما

أفطر عليه .

— انطلق .

فانطلق معه عليه السلام حتى أتى بيته فدعا جارية له سوداء فقال :

— آتينا بتلك القصعة .

فأتتهم بقصعة فيها بقية من طعام قد أكل وبقى فى جوانبها بعضه ، فسمى عليه السلام وجعل أبو هريرة يتبعه عليه السلام فأكل حتى شبع .

كان أبو هريرة لا ينقطع عن مجالس رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وكان جريئا على أن يسأل رسول الله — ﷺ — عن أشياء لا يسأله أصحابه عنها ، قال :

— يا رسول الله إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شىء .

— كل شىء خلق من ماء .

— يا رسول الله أنبئنى عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة ؟

— أفش السلام وأطعم الطعام وصل الأرحام وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام .

وكان أبو هريرة حريصا على أن يتعلم من رسول الله عليه السلام . فبينا زيد بن ثابت وأبو هريرة وآخر فى المسجد ذات يوم يدعون الله تعالى ويذكرونه إذ خرج عليهم النبى — ﷺ — حتى جلس إليهم فسكتوا ، فقال عليه السلام :

— عودوا إلى الذى كنتم فيه .

فدعا زيد هو وصاحبه قبل أبى هريرة ، وجعل رسول الله — ﷺ — يقول :

ــ آمين .

ثم دعا أبو هريرة فقال :

ــ اللهم إنى أسألك ما سألك صاحباى وأسألك علما لا ينسى .

فقال ــ ﷺ :

ــ آمين .

فقالا .

ــ يا رسول الله ونحن نسأل الله علما لا ينسى ، فقال :

ــ سبقكما بهما الغلام الدوسى .

كان أبو هريرة فى الثلاثين وكان ملازما أمه ، ولم يكن يعكر صفو حياته إلا إعراض أمه الحبيبة عن الإسلام . إنه يتوسل إليها أن تلقى إليه سمعها ، ولكنها كانت تضع أصابعها فى أذنيها وتشيح عنه فيستشعر كأن خناجر تصوب إلى قلبه وكأن أشواك الأرض تحز روحه فلا يجد عزاء إلا أن يتوجه إلى الله يدعوه أن يهدى أمه الصراط المستقيم .

كان حريصا على إسلام أمه حرصه على شكر الله على هدايته ، فكان يقول :

ــ الحمد لله الذى هدى أبا هريرة للإسلام ، الحمد لله الذى علم أبا هريرة القرآن ، الحمد لله الذى من على أبى هريرة بمحمد ــ ﷺ .

وكان حريصا على أن يحفظ أحاديث رسول الله ــ ﷺ ــ حرص عبد الله بن عمر على أن يتبع آثار النبى ــ ﷺ ــ فى منازله ، قال عليه السلام :

ــ من يأخذ من أمتى خمس خصال فيعمل بهن أو يعلمهن من يعمل بهن ؟ .

قال أبو هريرة :

ـــ أنا يا رسول الله .

فأخذ عليه السلام بيده فعدهن فيها ثم قال :

ـــ اتق المحارم تكن أعبد الناس .

وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا .

وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما .

ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .

وذات يوم رفع رسول الله ﷺ ـــ الدرة ليضربه بها فقال أبو هريرة :

ـــ لأن يكون ضربنى بها أحب إلى من حمر النعم ، ذلك بأنى أرجو أن أكون مؤمنا وأن يستجاب لرسول الله ـــ ﷺ ـــ دعوته .

كان أبو هريرة راضيا بحياته سعيدا بصحبة رسول الله عليه السلام ، ولم يكن يعكر صفو حياته إلا إعراض أمه عن الإسلام ، فذهب إليها ودعاها إلى الإسلام فأسمعته فى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما يكره ، فجاء إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو يبكى فقال :

ـــ يا رسول الله انى كنت أدعو أم أبى هريرة إلى الإسلام فتأبى على ، وإنى دعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادع الله أن يُعدى أم أبى هريرة إلى الإسلام .

ففعل ، فجاء أبو هريرة البيت فإذا الباب مجاف وسمع خضخضة الماء ، وسمعت حسه فقالت :

ـــ كما أنت .

فلبست درعها وعملت عن خمارها ثم قالت :

ــ ادخل يا أبا هريرة .

فدخل فقالت :

ــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

فجاء يسعى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ يبكى من الفرح كما بكى من الحزن فقال :

ــ أبشر يا رسول الله فقد أجاب الله دعوتك ، قد هدى الله أم أبى هريرة إلى الإسلام .

وتهللت أساريره من الفرح وقال :

ــ يا رسول الله ادع الله أن يحببنى وأمى إلى المؤمنين والمؤمنات وإلى كل مؤمن ومؤمنة .

ــ اللهم حبب عُبيدك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة .

واشتد فرح أبى هريرة ، فلما عاد إلى الدار وقف على بابها فقال :

ــ السلام عليك يا أمتاه ورحمة الله وبركاته .

رحمك الله كما ربيتنى صغيرا .

ــ رحمك الله كما بررتنى كبيرا .

خاض سابور الثانى غمار معارك مع العرب انتهت بأن احتلت فارس البحرين ، وعرف سابور بذى الأكتاف لأن ساسان الأول تنبأ بأن ملك الساسانيين سيزول على أيدى أصحاب نبى عربى بشر به زرادشت بقوله : اتبعوا وصاياى حتى يأتى صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب ، فكان سابور ينقب أكتاف أسراه العرب .

وحكم البحرين منذ ذلك الوقت مرزبان من قبل كسرى فراح يبنى بيوت نار فى الولاية وينشر الدين المجوسى فتغلغلت المجوسية فى عرب البحرين وآمنوا بالأوستا الساسانية وعكفوا على « الزند » تفسير الكتاب المقدس وتكلموا فى المبدأ والمعاد وغيرهما من أركان الدين ، وتزوجوا المحارم كما كان يفعل السادة الإيرانيون ، وعبدوا ميترا إله العقد ونور الصباح الذى عرفه البابليون بشَمَس . وكانوا يرتلون : لا سلطان لك لترفض عبادة الشمس التى تضىء بنورها الكون كله ، والتى تنضج بحرارتها غذاء الناس والحيوان ، والتى سميت بالإله مهر بسبب سخائها الشامل وكرمها العادل لأنه ليس فيها مكر أو جهل .

وقدسوا عناصر الطبيعة ، وحافظوا على الماء والنار من النجاسة حتى إنهم لا يغسلون بالماء وجوههم ولا يلمسونه إلا أن يكون ذلك للشرب أو رى الزرع ، وميزت الأوستا (كتابهم المقدس) بين خمسة أنواع من النار : نار المعابد والنار التى ينتفع بها الناس عادة ، والنار التى توجد فى

جسد الإنسان والحيوان ، والنار التى توجد فى النباتات ، والنار الكامنة فى السحاب ، والنار التى تشتعل أمام أهورامزدا فى الجنة .

وعرف عرب البحرين الصراع بين أهورامزدا عالم النور وأهرمين عالم الظلمات واختلاط الخير والشر والصراط المستقيم والبعث والجنة ، وما بقى من دين زرادشت القيم بعد أن طغت عليه الخرافات لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

وظلت قبضة الفرس قوية على البحرين حتى إذا ما انتهت الحروب بين الفرس والروم بانتصار هرقل على كسرى الثانى تراخت قبضة الفرس وأصبح أمر البحرين للمنذر بن ساوى ، وعرف الإسلام طريقه إلى تلك البلاد فقد أرسل الرسول عليه السلام إلى المنذر العلاء بن الحضرمى وبعث معه كتابا ورجالا فيهم أبو هريرة ووصاه عليه السلام به فجعله العلاء مؤذنا بين يديه ، وكان العلاء يصلى بأصحابه وقد سبقهم بآمين بعد أن قرأ الفاتحة ، فقال له أبو هريرة :

ـــ لا تسبقنى بآمين أيها الأمير .

وبلغ الركب البحرين فإذا بأهلها على دين المجوس واليهودية يهرعون إلى بيوت النار أو الكنيس إذا ما أرادوا شكر الله على ما أتاهم من خير .

ودخل العلاء على المنذر وراح يعرض عليه الإسلام ، وقال فيما قال :

ـــ يا منذر إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة . إن هذه المجوسية شر دين ينكح فيها ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتكره من أكله ، وتعبدون فى الدنيا نارا تأكلكم يوم القيامة ، ولست بعديم عقل ولا رأى فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا ألا نصدقه ؟ ولمن لا يخون ألا نأتمنه ؟ ولمن لا يخلف ألا نثق به ؟ فإن كان هكذا فهذا

هو النبى الأمى الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه أو ما نهى عنه أمر به .

وراح المنذر بن ساوى يقرأ كتاب رسول الله — ﷺ — على أهل البحرين ، وجعل العلاء وأبو هريرة ومن معهما من المسلمين يشرحون للناس أركان الدين الذى جاء به محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — فانشرحت له صدور وأضاءت أنواره أفئدة هداها الله الصراط المستقيم ، فاعتنق كثير من أهل البحرين الإسلام . كانوا يؤمنون بالبعث والحساب والخلود فلما حدثهم المسلمون عن الإسلام وجدوه من نفس النبع الذى اغترف منه زرادشت إلا أن الإسلام قد أزاح عنه الأساطير وما تمجه النفوس . ورانت الدهشة على المنذر فما كان يصدق أن الناس يقبلون دينا جديدا فى مثل ذلك اليسر .

وأطرق المنذر يفكر فيما جاء به رسول الإسلام عليه السلام فوجده يطابق الفطرة ولا يدعو إلا لكل كريم ودوى بين جنبيه حديث العلاء وتذكر ما أوصى به زرادشت من الاستمساك بما جاء به إلى أن يأتى صاحب الجمل الأحمر من جزيرة العرب ، وها هو ذا صاحب الجمل الأحمر يبعث إليه رسله ليدعوه إلى الهداية والرشد . أو يغلق قلبه دون النور ؟

ودخل العلاء وصحبه على المنذر بن ساوى فقال :

— قد نظرت فى هذا الذى فى يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت فى دينكم فرأيته للآخرة والدنيا . فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت ؟ ولقد عجبت أمس ممن يقبله وعجبت اليوم ممن يرده . وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله وسأنظر .

وكتب المنذر إلى رسول الله — ﷺ — كتابا جاء فيه : يا رسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث لى فى ذلك أمرك .

وقرأ عليه السلام كتاب المنذر وسمع من رسله ، ثم كتب له كتابا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك فإنى أحمد إليك الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد فإنى أذكر الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية) .

(٢٣)

كانت الهدنة قائمة بين المسلمين وقريش ، ولكن بعض قبائل العرب كانت تفكر فى غزو المدينة أو الإغارة على سرحها للنيل من هيبة المسلمين ، فصلح الحديبية شجع كثيرا من الناس على أن يشدوا الرحال إلى المدينة وأن يلقوا إلى نبى الإسلام عليه السلام آذانهم فيدخلوا فى دين الله أفواجا ، مما يزعزع عقائد العرب ودين الآباء .

ولم يكن الرسول عليه السلام ليبدأ بالعدوان فهو على نور من ربه لا

يخالف أمره وهو جل من قائل : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾(١) ، ولكنه ما كان يتريث حتى يدهمه فى داره فما إن تلوح له عليه السلام بادرة من عدوه بأنه يتأهب للعدوان حتى يبعث البعوث ليقضى على الفتنة قبل أن تتحرك ، ويلقى الرعب الذى نصر به فى قلوب الأعداء .

جاءه عليه السلام أن بنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة وهم بالميفعة — وهى وراء بطن نخل إلى النقرة قليلا بناحية نجد — يستعدون لشن غارة على المدينة ، فبعث إليهم عليه السلام فى شهر رمضان سنة سبع من مهاجره غالب بن عبد الله الليثى فى مائة وثلاثين رجلا كان فيهم أسامة ابن زيد حب رسول الله عليه السلام .

وفى الصباح هجم المسلمون على القوم وكان فيهم رجل يدعى مرداس بن سهنيك إذا أقبل القوم كان من أشدهم على المسلمين وإذا أدبروا كان من حاميتهم . وانتهت المعركة بانهزام الكافرين وولى مرداس الأدبار فتبعه أسامة بن زيد ورجل من الأنصار ، فرفع أسامة عليه السيف فقال :

— لا إله إلا الله .

فكف الأنصارى فطعنه أسامة برمحه حتى قتله ، ثم وجد فى نفسه من ذلك موجدة شديدة حتى ما يقدر على أكل الطعام حتى قدم على رسول الله — ﷺ — فقبله واعتنقه . وكان عليه السلام إذا بعث أسامة بن زيد يسأل عنه أصحابه ويحب أن يثنى عليه خيرا ، فلما رجعوا لم يسألهم عنه

---

(١) البقرة ١٩٠ .

فجعل القوم يحدثون رسول الله ـ ﷺ ـ ويقولون :

ـ يا رسول الله لو رأيت ما فعل أسامة ! لقيه رجل فقال الرجل لا إله إلا الله فشد عليه أسامة فقتله .

وراح ـ ﷺ ـ يعرض عنهم ، فلما أكثروا عليه رفع رأسه لأسامة فقال :

ـ يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟

ـ يا رسول الله إنه إنما قالها تعوذا من القتل .

ـ أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ ! فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟

ـ إنما قالها خوفا من السلاح .

ـ هلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

وود أسامة أن ما مضى من إسلامه لم يكن وكان أسلم يومئذ وقال :

ـ يا رسول الله استغفر لى .

فاستغفر له وقال :

ـ اعتق رقبة .

وودى رسول الله عليه السلام مرداس بن سهنيك وعاهد أسامة بن زيد الله ألا يقتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا .

وفى شوال من نفس السنة بلغ رسول الله ـ ﷺ ـ أن جمعا من غطفان قد واعدهم عيينة بن حصن ليكون معهم ليزحفوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، فدعا عليه السلام بشر بن سعد فعقد له لواء وبعث معه ثلاثمائة رجل ، فساروا حتى أتوا يمْن وجَبار فدنوا من القوم فأصابوا لهم نعما كثيرا ، وتفرق الرعاء فحذروا القوم فتفرقوا ولحقوا بعلياء

بلادهم ، وخرج بشير بن سعد فى أصحابه حتى أتى محالهم فلم يجد
أحداً فرجع بالنعم ، وأصاب منهم رجلين فأسرهما وقدم بهما المدينة
رسول الله — ﷺ .

ودخل الرجلان على رسول الله عليه السلام وهما يرتجفات ، فـ
وقعت أعينهما عليه حتى أحسا شيئا من الطمأنينة . إنه جهير الصـ
حسن النغمة طيب الريح خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من
إلى السماء ، لا يتكلم من غير حاجة ، يتكلم بجوامع الكلم فصـ
فضول فيه ولا تقصير .

وراح الأسيران يصغيان إليه عليه السلام وقد سكنت الطمـ
أفئدتهما . انه ليس بالجافى ولا بالمهين لا يغضب لنفسه ، ولا ينتقـ
وإنما يغضب للحق حتى ينصره ، لا يستخفه فرح ولا غم ، .
الحسن ويصوبه ويقبح القبيح ويهينه ، يعطى كل جليس له نصيبه
لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

يؤثر الداخل بوسادته ويبسط له ثوبه ، من سأله حاجة لا يرده
أو بما يسر من القول ، وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم آبا و...
عنده فى الحق سواء متفاضلين بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء
لا ترفع فيه الأصوات .

وراح عليه السلام يتكلم فأطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الـ
فلما سكت تكلموا متواضعين يشع من أحاديثهم التقوى ، فـ
الأسيران يصغيان وهما فى دهشة من أمرهما فقد ظنا أنه سيأمر بـ
عنقهما فإذا به عليه السلام يعرض عليهما الإسلام ويقرأ القـ
فيشعران أنهما قد أصبحا أكثر حرية مما كانا عليه وهما فى أهلهم

صفت قلوبهما وأطلق لهما حرية الفكر والاختيار ورفعا إلى السماء ليقرعا أبواب الملكوت ، فامتلأ بنشوة روحية لم يسعدا بمثلها من قبل .

وإنهما ذاقا لذة المعرفة وتتوجا بشرف المعلومات وأحسا قربا حقيقيا من رب الناس إله الناس ، فحديث رسول الله — ﷺ — أضاء لبصيرتهما الحقائق فظهرت فى قلوبهما الأنوار واستعدت لحمل الأمانة .

وأحسا بنسائم الألطاف تهب عليهما ، وبالحجب تنكشف عن أعين أفئدتهما ، وبالرحمة تفيض عليهما وبانشراح الصدر ، وبحقائق الأمور الإلهية تتلألأ فى النفوس ، وبالنور يغمر الوجدان فإذا الوجود كله أنوار ، فقالا وهما متفرحان فى الله :

— نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

(٢٤)

دار العام وظهر هلال ذى القعدة من السنة السابعة وهو الشهر الذى صده عليه السلام فيه المشركون عن البيت الحرام ، فأمر أصحابه أن يعتمروا وألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف إلا من مات أو قتل بخيبر ، وخرج مع رسول الله — ﷺ — قوم المسلمين عمارا ممن لم يشهد الحديبية فكانوا ألفين .

واستخلف رسول الله — ﷺ — على المدينة أبا ذر الغفارى ، وساق — ﷺ — ستين بدنة وقلدها وجعل على هديه ناجية بن جندب الأسلمى .

وحمل رسول الله — ﷺ — السلاح والدروع والرماح وقاد مائة

فرس عليها محمد بن مسلمة وعلى السلاح بشير بن سعد . وأحرم — ﷺ — من باب المسجد فلما انتهى إلى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه فقيل :

— يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا ألا ندخلها عليهم بسلاح إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القرب !

فقال رسول الله — ﷺ — :

— لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن يكون قريبا منه ، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريبا منا .

فمضى بالخيل محمد بن مسلمة فلما كان بمر الظهران وجد نفرا من قريش فسألوه فقال :

— هذا رسول الله — ﷺ — يصبح هذا المنزل غدا إن شاء الله .

وقد رأوا سلاحا كثيرا فخرجوا سراعا حتى أتوا قريشا فأخبروهم بالذى رأوا من الخيل والسلاح ، ففزعت قريش وقالوا :

— ما أحدثنا حدثا وإنا على كتابنا ومدتنا ففيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟ !

وأقبل المسلمون يلبون :

— لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك .

وارتج مر الظهران بالتلبية ، وجاء مكرز بن حفص فى نفر من قريش إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— والله يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر ، تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر

السيوف فى القرب !

— إنى لا أدخل عليهم بالسلاح .

— هو الذى تعرف به البر والوفاء .

ثم رجع إلى مكة سريعا وقد رضى عن سفارته ، فقريش التى ساقت الجيوش من قبل وجمعت الأحزاب لاستئصال المسلمين باتت ترتجف فرقا من أن يغزوها عليه السلام . وقدم الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — السلاح إلى بطن يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم وخلف عليه أوس بن خولى الأنصارى فى مائتى رجل ، فلما اتصل خروجه لقريش خرج كبراؤهم من مكة حتى لا يروه — ﷺ — يطوف بالبيت هو وأصحابه . كانت العداوة تنهش قلب أبى سفيان فما كان يطيق أن يرى المسلمين يطوفون بالبيت وهم يلبون تلبية التوحيد ، وكان عكرمة بن أبى جهل يبغض محمدا عليه السلام فخرج من مكة وهو حانق فطواف الصابىء بالبيت العتيق وهم ينظرون هزيمة للكفاح الطويل الذى خاضوه لكتم أنفاس الإسلام .

وخرج خالد بن الوليد مع الخارجين وإن كانت مشاعره تختلف عن مشاعر الشانئين[١] ، إنه أصبح يستشعر ميلا إلى الإسلام ولو طاوع قلبه لهرول إلى حيث كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وأعلن شهادة الحق ولكنه كان يتربث ، وفكر فى أن يبقى فى مكة إلا أنه خشى أن تلتقى عيناه بعينى أخيه الوليد بن الوليد الذى كان فى صفوف المسلمين فهو واثق فى أغوار نفسه لو أن ذلك حدث لخفق قلب فارس

---

(١) الشانئين : الحاقدين .

قريش رهبة وهو الذى لم يعرف الخوف فى حومة القتال .

وخرج صفوان بن أمية حسدا لرسول الله عليه السلام ، وانطلق سهيل بن عمرو مع المنطلقين وبقى حكيم بن حزام وقد أشرف على الستين فهو يحب أن يرى زوج عمته سيدة نساء قريش . فما أسعد الأوقات التى أمضاها وهو يصغى إلى عذب حديث أبى القاسم ، ولولا دعوته بأن الله قد أرسله إلى الناس لما كان بين حكيم وابن عبد الله أى خلاف .

وقدم رسول الله — ﷺ — الهدى أمامه فحبس بذى طوى ، وخرج على راحلته القصواء والمسلمون متوشحون السيوف محدقون به[1] — ﷺ — يلبون وقد تدفقت أرق المشاعر إلى الصدور واشتد وجيب الأفئدة وامتلأت المآق بالدموع ، فالمهاجرون ينطلقون إلى أحب أرض الله إليهم ، إلى أرض الذكريات التى ما فتئوا يحلمون بالعودة إليها مذ أخرجوا من ديارهم ، والأنصار يلمسون ما وعدهم به الله ورسوله ، إنها أميال قليلة ثم يطوفون بأول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد .

ودخل صاحب الجمل الأحمر الذى بشرت به الأنبياء على الثنية التى تطلعه على الحجون وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير فى رسوله
يا رب إنى مؤمن بقيله ... أعرف حق الله فى قبوله
نحن قتلناهم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يذيل الهام[2] عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

---

(١) محدقون به : ملتفون حوله .

(٢) يذيل الهام عن مقيله : يذيل الرءوس يقصد : ضربا شديدا تهون له الرءوس

فقال له عمر بن الخطاب :

— إيها يا بن رواحة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— يا عمر إنى أسمع .

فأسكت عمر وقال رسول الله — ﷺ :

— إيها يابن رواحة ! قل : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وأطرق عليه السلام تواضعا لله وهو يلبى حتى استلم الركن بمحجنه[١] مضطبعا[٢] بثوبه وطاف على راحلته والمسلمون يطوفون معه وقد اضطبعوا بثيابهم ، وقريش على جبل أبى قبيس وقينقاع تنظر لا تكاد تصدق أن ابن أبى كبشة قد جاء بأصحابه يطوف بالبيت بعد أن خرجوا من مكة إلى رءوس الجبال :

وقال قائل من قريش :

— إن المهاجرين أوهنتهم حمى يثرب .

فأطلع الله نبيه على ما قالوا ، ثم قال — ﷺ :

— رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة .

وكشف عضده اليمنى ففعلت الصحابة كذلك وراحوا يسعون بين الصفا والمروة ، ثم أمرهم أن يرملوا (يهرولوا) الأشواط الثلاثة ليروا

(١) المحجن : العصا المعوجة .

(٢) اضطباع الثوب : جعله كملابس الإحرام حيث يظهر أحد الضبعين أى الجانبين

المشركين أن لهم قوة ، فلما رأى المشركون أصحاب محمد يهرولون قال بعضهم لبعض :

ــ هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، إنهم لينفرون نفر الظبى .

فلما كان الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهدى عند المروة قال :

ــ هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر .

فنحر عند المروة وحلق هناك وكذلك فعل المسلمون . وأمر رسول الله ــ ﷺ ــ ناسا منهم أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج فيقيموا على السلاح ويأتى الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا .

وعاد رسول الله عليه السلام ، وصحبه إلى الكعبة ودخلها فلم يزل بها حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة ، فراح سادات قريش ينظرون إلى مؤذن الرسول فى حنق ، وقال قائل منهم للحارث بن هشام :

ــ ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد ؟

ــ دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيره .

وقال عكرمة بن أبى جهل :

ــ لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول .

وقال صفوان بن أمية :

ــ الحمد لله الذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا .

وقال خالد بن أسيد :

ــ الحمد لله الذى أذهب أبى و لم يشهد هذا اليوم حيث يقوم بلال ينهق فوق الكعبة .

وغطى سهيل بن عمرو وجهه فقد كانوا يعجبون أن يكون لهذا الكون ربا واحدا بينا أصنام الآلهة تكدست فى جوف الكعبة ومن حولها .

وخرج عليه السلام من الكعبة وأم الصحابة وقد اصطفوا خلفه ورجال مكة ونساؤها مدوا أعينهم وأرهفوا أذانهم ليسمعوا قرآن محمد ، فإذا به يبده عقولهم فما أكثر ما سمعوا الشعر وحفظوه وألقوا أسماعهم إلى زمزمة السحرة وسجع الكهنة ، إنه شيء آخر يحرك العواطف ولولا عمى القلوب لانحدروا من الجبال مؤمنين .

وذهب رسول الله — ﷺ — إلى قبته التى نصبها بالأبطح ليستريح بينا كان قلب برة بنت الحارث الهلالية يهفو إليه عليه السلام . إنها أخت أم الفضل زوج العباس أول من آمنت به من النساء بعد خديجة ، وأخت أسماء بنت عميس الخثعمية زوج جعفر بن أبى طالب ، وسلمى بنت عميس زوج حمزة بن عبد المطلب أسد الله . إنهن الأخوات المؤمنات وإنها أرملة فى السادسة والعشرين من عمرها مات عنها زوجها فصارت أمنيتها أن تصبح أم المؤمنين . وإن رسول الله — عليه الصلاة والسلام — قد جاء إلى مكة وصار على مقربة منها فأصبح عليها أن تتحرك قبل أن تنقضى الأيام الثلاثة التى حددتها قريش لمكث المسلمين بأم القرى . إنها كلمة تتحرك بها شفتاه ثم تتحقق الأحلام .

وجاء العباس إلى قبة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ليطفىء نار الشوق وليرى جعفرا وعليا ورجال بنى هاشم . وفيما كان الحديث دائرا بين رسول الله عليه السلام ومن جاءوا لتحيته التفت — ﷺ — إلى الوليد بن الوليد وقال :

— أين خالد ؟

فقال الوليد بن الوليد فى ثقة :

— يأت الله به .

— ما مثله يجهل الإسلام .

وخرج الوليد بن الوليد يطلب خالدا فلم يجده ، فكتب إليه كتابا وهو يدعو الله أن يهدى أخاه إلى الإسلام .

وكانت برة قد حدثت أم الفضل بأمنيتها أن تكون زوجة لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ليكون لبنى هلال شرف مصاهرة رسول الله — ﷺ — كما نالت بنى تيم وبنى عدى وبنى أمية وبنى مخزوم وهوازن وبنى أسد وبنى المصطلق ذلك الشرف ، فحدثت أم الفضل زوجها العباس فأفضى العباس إلى ابن أخيه بأمنية برة ، فبعث عليه السلام جعفر بن أبى طالب إليها ليخطبها . فما إن خرج جعفر من عندها حتى استخف بها الطرب فركبت بعيرها وانطلقت إلى حيث كان نبى الإسلام عليه السلام ، فلما أن وقعت عيناها عليه — صلوات الله وسلامه عليه — قالت :

— البعير وما عليه لله ولرسوله .

وتحدث الناس عما فعلت برة ، إنها لم تستطع الانتظار فجاءت تهب نفسها لله ولرسوله ، وقد سماها عليه السلام ميمونة . وكثر الهمس استخفافا بالشابة التى استجابت استجابة صادقة لعواطفها دون رياء ، ووجد المنافقون فرصة للغمز واللمز ومحاولة بذر بذور الاستياء فى قلوب المسلمين ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك

وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما ﴾[١] .

(٢٥)

انساب المهاجرون فى دروب مكة يشمون عبير أرض الذكريات ويلثمون بأعينهم الدور ويهرعون إلى مراتع الصبا والشباب فرحين . كانت بعض بيوتهم خاوية لا حركة ولا نأمة قد خيم عليها السكون تبعث الأسى فى النفوس ، ولكنهم ألقوا عليها نظرات عابرة دون أن تنزل بأفئدتهم الهموم فقد كان اليوم يوم نصر وحبور .

كانوا فى المدينة يستشعرون شوقا طاغيا إلى مكة وكانت أعز أمانيهم أن يعودوا إلى أم القرى وأن يرووا ظمأهم من ماء زمزم وأن يطوفوا بالبيت العتيق وأن يسمروا بالحجون ، فإذا بكل آمالهم تتحقق ، ولم ينغص عليهم صفو انتصارهم إلا تلك الأصنام التى تقع أعينهم عليها فى كل مكان فإذا بأمنية جديدة تطغى على كل الأمانى ، أن يأتى ذلك اليوم الذى يسود فيه الحق ربوع أحب بقاع الأرض إلى نفوسهم وأن ترفرف راية التوحيد على البيت العتيق .

---

(١) الأحزاب ٥٠

وكان حكيم بن حزام قد اشترى حلة سيف بن ذى يزن بثلاثمائة دينار من سوق عكاظ ، فلما وجد أن زوج عمته خديجة أم المؤمنين فى مكة وأن بينه وبينهم هدنة رأى أن يهدى إليه تلك الحلة فانطلق بها إلى حيث كان الرسول عليه السلام وأهداها إليه ، فأبى رسول الله عليه السلام أن يقبلها وقال :

— لا أقبل هدية مشرك .

فجزع حكيم جزعا شديدا حيث رد هديته فباعها من أول سائم سامه ، ودس رسول الله إليها زيد بن حارثة فاشتراها فلبسها رسول الله ، فلما رآه حكيم فيها قال :

ما ينظر الحكام بالفصل بعدما بدا سابق ذو غرة وحجول[1]

واستمر حكيم يملأ عينيه من رسول الله عليه السلام فما رأى أحدا قط أجمل ولا أحسن من رسول الله فى تلك الحلة .

وخلعها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فما كان يحب أن يزهو بجيد الثياب فكساها أسامة بن زيد بن حارثة ، فرآها عليه حكيم فقال :

— بخ بخ يا أسامة ، عليك حلة ذى يزن !

فقال لأسامة رسول الله :

— قل له وما يمنعنى وأنا خير منه وأبى خير من أبيه ؟

وانقضت الأيام الثلاثة ورسول الله — ﷺ — مع الأنصار يتحدث

---

(١) الغرة : بياض فى جبهة الفرس والمراد هنا الإشراق والنور ، والحجول : بياض فى أرجل الخيول والمراد هنا جمال المنظر .

مع سعد بن عبادة ، فجاء إليه سهل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى فى نفر من قريش فصاح حويطب :

— ناشدتك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث .

فغضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظ كلامهم للنبى — ﷺ — فقال لحويطب :

— كذبت لا أم لك ليس بأرضك ولا أرض آبائك ، والله لا يبرح منها إلا طائعا راضيا .

فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا سعد لا تؤذ قوما زارونا فى رحالنا .

وأراد رسول الله — ﷺ — أن يبنى بميمونة فى مكة ، فقال لحويطب وصحبه :

— إنى قد نكحت فيكم امرأة . فما يضركم إن مكثت حتى أدخل بها وأصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا !

— لا حاجة لنا فى طعامك . اخرج عنا من أرضنا هذه الثلاثة قد مضت .

وهم سعد بن عبادة بأن يتكلم وتأهب حويطب للرد عليه فأسكت عليه السلام الفريقين ، ثم إنه — ﷺ — أمر أبا رافع أن ينادى بالرحيل لا يمسى بها أحد من المسلمين ، وخلف أبا رافع ليأتى له بميمونة حين يمسى .

وتدفق المسلمون على الحرم يطوفون طوف الوداع وينسحبون بظهورهم دون أن يولوا الكعبة الأدبار تعظيما لها ، وفى الأعين دموع

وفى الحلوق غصص ، وكفار قريش على رءوس الجبال ينظرون فى دهش فقد قيل لهم فيما قيل إن محمداوصحبه لا يوقرون البيت ، فإذا بتلك الحجة تنهار فالمسلمون يعظمون بيت أبيهم إبراهيم ويتجشمون المشاق لزيارته والطواف به ورفع أكف الضراعة إلى الله عند باب بيته .

وفعلت الأيام الثلاثة فى قلوب مشركى قريش الأفاعيل ، كانوا يرصدون حركات المسلمين ويرقبون صلواتهم ويلقون السمع إلى القرآن المجيد فخطر لأناس منهم أن ينحدروا من الجبال إلى حيث استقر المسلمون لينهلوا من النبع الصافى الرقراق الذى هفت[1]إليه الأفئدة لولا الخوف من الناس وخشية بطش الجبارين .

واسل المسلمون من مكة حتى إذا ما غابت الشمس خلف الجبال وبدأ زحف الليل لم يكن بها غير أبى رافع وميمونة ، فذهب أبو رافع ليقود بعير ميمونة إلى معسكر رسول الله عليه السلام ، وطفق أبو رافع يشق طريقه بين الجموع المادرة فى غضب فى جهد شديد ، وكان يؤذيه ما لقى من عناء من أهل مكة ويزيد فى غضبه ما نال النبى — ﷺ — من أذى ألسنتهم وميمونة ، فلم يجد مفرا من التهديد فقال لهم :

— ما شئتم ، هذه والله الخيل والسلاح ببطن يأجج وأنتم تريدون نقض العهد والمدة .

كانوا يرتجفون من فكرة نقض العهد فقد أصبح من الواضح وضوح النهار أنه لا قبل لهم بمحمد وصحبه ، فإن أراد أن يميل عليهم فلن يجد من يقف فى وجهه وإنهم بهذه السباب المتدفقة من أفواههم يعطونه فرصة

---

(١) هفا إليه : مال إليه وأحبه .

نقض العهد وفتح مكة ، فتقاصرت أنفس السفهاء فولوا راجعين منكسين .

ولما خرج رسول الله — ﷺ — من مكة جاءه على بن أبى طالب وكلمه فى عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب وكانت مع أمها سلمى بنت عميس ، فقال :

— علام نترك بنت عمنا يتيمة بين أظهر المشركين ؟

وبعث عليه السلام إلى أبى رافع أن يأتى بعمارة ، فخرج أبو رافع بميمونة وعمارة حتى إذا ما لحق بركب المسلمين تناول على كرم الله وجهه ابنة عمه فأخذ بيدها وقال لفاطمة الزهراء :

— دونك ابنة عمك .

وسار ركب المسلمين حتى إذا بلغوا سرِف نزلوا بها ونصبت قبة رسول الله عليه السلام تحت شجرة هناك ، ودخل بميمونة بعد أن صنع طعاما لأصحابه . وسعدت الزوجة الشابة بذلك الزواج الذى شرفها وشرف قومها وحفرت فى عين ذاتها ذكريات هذه البقعة المباركة التى جعلت منها أما للمؤمنين ، إن لحظات سرف هى زاد حياتها وهى خير زاد يغذى روحها حتى الممات .

وانصرف المسلمون راجعين إلى المدينة ، واختلف على بن أبى طالب وزيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب فى أيهم يكفل عمارة بنت حمزة أسد الله وأسد رسوله ، فقال زيد بن حارثة :

— أنا أحق بها لأنها بنت أخى وأنا وصيه .

وقال زيد حقا فالنبى — ﷺ — كان قد آخى بين حمزة وزيد وجعل حمزة وصيه .

وقال على كرم الله وجهه :

ــ أنا أحق بها لأنها بنت عمى وجئت بها من مكة .

وقال جعفر :

ــ أنا أحق بها لأنها بنت عمى وخالتها تحتى .

وكانت أسماء بنت عميس زوجة جعفر ، وكانت سلمى بنت عميس أم عمارة بنت حمزة ، وكان جعفر يرى أنه أحق الثلاثة بكفالة بنت عمه ، فلما بلغ الأمر رسول الله عليه السلام قضى بها لجعفر وقال :

ــ الخالة بمنزلة الأم .

وهز الفرح جعفر فحجل حول النبى ــ ﷺ ــ فقال عليه السلام :

ــ ما هذا يا جعفر ؟

ــ يا رسول الله كان النجاشى إذا رضى أحد أقام فحجل حوله .

وقدّم رسول الله ــ ﷺ ــ الخالة فى الحضانة على العمة فقد كانت صفية بنت عبد المطلب موجودة ، وقال ــ ﷺ ــ لعلىّ :

ــ أنت أخى وصاحبى ، أنت منى وأنا منك .

وقال جعفر :

ــ أشبهت خَلقى وخُلقى .

وقال لزيد :

ــ أنت مولى الله ومولى رسوله .

(٢٦)

عاد خالد بن الوليد إلى داره وهو مطرق يفكر فيما رأى من محمد بن عبد الله وصحبه . إنه قد خيل إليه أنهم مصابيح نور وأن فؤاده قد هفا إليهم وأن صدره قد انشرح لما سمع من الذكر الحكيم ، وراح يسأل نفسه ما الذى يجعله يحجم عن الحق ما دام قد استبان الطريق ؟ ! إنه يستشعر نسائم الألطاف تهب عليه والحجب تنكشف عن عين قلبه فاشتعل سراج فؤاده بأنوار بصيرته فإذا به يشاهد ما وراء حواسه الخمس وينفذ فى عالم الملكوت .

وخف إليه أحد مواليه وقال له :

ـــ إن مولاى الوليد بن الوليد قد طلبك فلم يجدك فكتب لك هذا الكتاب .

وتناول خالد الكتاب فى لهفة وراح يقرأ :

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وقلة عقلك ومثل الإسلام لا يجهله أحد . قد سألنى عنك رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال أين خالد ؟ فقلت يأتى الله به . فقال ما مثله يجهل الإسلام ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيرا له . فاستدرك يا أخى ما فاتك فقد فاتك مواقف صالحة » .

ونشط خالد للخروج وزاده الكتاب رغبة فى الإسلام وسرته مقالة رسول الله . وأطلق لخياله العنان ، إنه حارب محمدا ـــ ﷺ ـــ وهو

يعتقد أنه فى جانب الحق ، وإنه شهد المواطن كلها على محمد عليه السلام فليس موطن يشهده إلا ينصرف وهو يرى فى نفسه أنه موضع[1] فى غير شيء وأن محمدا — ﷺ — يظهر ، حتى إذا كانت عمرة القضية قذف الله فى قلبه الإسلام وحضر له رشده .

تفتحت نفسه لاستقبال الأنوار واستعد للمعرفة بفؤاده لا بجارحة من جوارحه ، ففاضت عليه الرحمة وانشرح صدره وتألقت فى وجدانه حقائق الأمور .

واختلجت الخواطر فى نفسه فتذكر تلك الأيام التى كان أبوه الوليد ابن المغيرة يغشى النبى وأبا بكر حتى حسبت قريش أنه أسلم ، وتمنى فى قرارة نفسه لو أن أباه قد أسلم فى تلك الأيام كما أسلم أخوه الوليد ، وأحس أسى لما تذكر أنه أذاق أخاه العذاب وهو يحسب أنه يحسن صنعا . ليت ربه يغفر له ما كان منه من قتل المؤمنين وتعذيب المستضعفين .

ولو أن أباه قد أسلم قبل أن يهاجر رسول الله عليه السلام إلى المدينة لحقن دماء كثيرة روت أرض بدر وأحد ، ولمات قرير العين كما يموت المؤمنون . ولكنها إرادة الله لا راد لقضائه فعال لما يريد .

ودار فى وجدانه ذلك الحوار الذى نشب بين أبيه وأبى جهل :

— إن قريشا تزعم أنك إنما تأتى محمدا وابن أبى قحافة تصيب من طعامهما .

— إنكم ذوو أحساب وذوو أحلام وإنكم تزعمون أن محمدا

---

(١) وضع : حمل ركابه على العدو ، والمراد هنا أن لا فائدة من عداوته للرسول .

مجنون ، وهل رأيتموه يتكهن قط ؟

— اللهم لا .

— تزعمون أنه شاعر ، هل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟

— لا .

— فتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

— لا ، فما هو ؟

— ما هو إلا ساحر وما يقوله سحر .

— لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

— فدعنى حتى أفكر فيه .

وكاد خالد بن الوليد يصرخ فى مجلسه يقول فيم تفكر يا أبى وقد استبان لك الحق ؟ فأبوه الوليد قد عرف جوهر رسالة محمد — ﷺ — وألقى إليه سمعه وقال عن قرآنه إن هذا إلا سحر يؤثر ، فلماذا استكبر و لم يتبع النور ؟ لو أنه أسلم لكان حال قريش غير الحال ولكن الله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

وراحت آيات من القرآن المجيد تضيء وجدان خالد وتمس أذنيه مسا رقيقا فيخشع قلبه ويفيض دمعه من عينيه وتتفرح نفسه بالله : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[١] .

---

(١) البقرة ١٦٤ .

﴿ ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا * وخلقناكم أزواجا * وجعلنا نومكم سباتا * وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا * وبنينا فوقكم سبعا شدادا * وجعلنا سراجا وهاجا * وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا * لنخرج به حبا ونباتا * وجنات ألفافا ﴾(١) .

﴿ أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون * أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾(٢) .

فإذا بخالد بن الوليد يتمتم فى إيمان عظيم :

— سبحان الله .

ودخل خالد ونام فرأى فى المنام كأنه فى بلاد ضيقة جدبة فخرج إلى بلاد خضراء واسعة . فلما هب من نومه ذهب ليتجهز لينطلق على جناح الشوق إلى المدينة ليلقى محمدا — ﷺ — وليعلن على الملأ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فقد كان خالد فارسا حقا حارب الإسلام لما اعتقد أنه فى جانب الحق ، وعزم على الهجرة لما أزاح الله

---

(١) النبأ ٦ — ١٦ .

(٢) الواقعة ٥٨ — ٩٦

الحجب عن بصيرته وألقى فى صدره أنوار اليقين .

وخرج خالد من داره وقد عزم على الانطلاق إلى المدينة ، فلقى صفوان بن أمية فقال :

ـــ يا أبا وهب أما ترى محمدا ظهر على العرب ؟ فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا .

فقال صفوان فى انفعال :

ـــ لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبدا .

فانصرف عنه خالد وهو يقول فى نفسه : « هذا رجل قتل أبوه وأخوه ببدر » . فلقى عكرمة بن أبى جهل فقال له :

ـــ يا بن أخى أما ترى محمدا ظهر على العرب ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا .

فقال عكرمة مثل ما قال صفوان ، فقال خالد :

ـــ فاكتم ذكر ما قلت .

ـــ لا أذكره .

ثم لقى عثمان بن طلحة الحجبى فقال فى نفسه : « هذا لى صديق » . فأراد أن يذكر له ثم تذكر أن أباه طلحة وعمه عثمان وإخوته الأربعة مسافع والحلاس والحارث وكلاب كلهم قتلوا يوم أحد فكره أن يذكر له . ثم قال فى نفسه : « وما علىّ ؟ » فقال له :

ـــ إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب فيه ذنوب ماء لخرج .

فالتفت إليه عثمان بن طلحة فى انتباه وهو يرقب ما يقصده خالد من هذا الحديث ، فقال خالد :

ـــ أما ترى محمدا ظهر على العرب فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه

شرف لنا ؟

فقال عثمان فى فرح :

ـــ هذا هو الرأى .

فواعد عثمان بن طلحة خالد بن الوليد إن سبقه أقام بمحل كذا وإن سبقه خالد إليه انتظره . فلم يطلع الفجر حتى التقيا فانطلقا على رواحلهما حتى انتهيا إلى الهدة فوجدا عمرو بن العاص بها ، فقال عمرو :

ـــ مرحبا بالقوم .

ـــ وبك .

وقال عمرو لخالد :

ـــ يا أبا سليمان أين تريد ؟

فقال خالد بن الوليد فى حماس :

ـــ والله لقد استقام الميسم (الطريق) وظهر الأمر ، وإن هذا الرجل لنبى فاذهب فأسلم فحتى متى ؟ !

وقال عمرو :

ـــ وأنا ما جئت إلا لأسلم .

وانطلقوا وعمرو بن العاص يقص ما كان بينه وبين نجاشى الحبشة وكيف أن النجاشى قد نصحه أن يتبع النبى الأمى الذى يجده مكتوبا عنده فى التوراة والإنجيل وكيف بايعه على الإسلام ، وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة يصغيان وهما يحسان أن روحيهما أصبحتا قادرتين على التحليق وقرع أبواب الملكوت .

وأناخوا بظهر الحرة ركابهم وأخبروا رسول الله أنهم قدموا ليشهدوا

شهادة الحق ، فسر بهم وقال لأصحابه :

ــ رمتكم مكة بأفلاذ كبدها .

وذاع بين المسلمين أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة قد جاءوا طائعين ليدخلوا فى دين الله بعد أن استبان لهم الأمر ، وطاف بالمدينة سرور وهرع بعض الناس إلى رحالهم ، وكان الوليد بن الوليد يهرول وهو يكاد يطير من الفرح فإن نبأ إسلام أخيه خالد كان أحب إليه من كنوز الأرض .

وراح خالد وعمرو وعثمان بن طلحة يلبسون من صالح ثيابهم وقد اشتد وجيب قلوبهم فهم لا يقدمون على الصابىء ولا ابن أبى كبشة بل يقدمون على رسول الله ــ ﷺ ــ الذى أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

وارتفع صوت بلال يؤذن بالعصر فإذا بخالد وصحبه يرهفون السمع فيستشعرون كأن أنوارا تملأ جوانحهم ، والتفت الوليد بن الوليد إلى أخيه وقال :

ــ أسرع فإن رسول الله ــ ﷺ ــ قد سر بقدومكم وهو ينتظركم .

فأسرعوا المشى حتى بلغوا المسجد ، فانطلقوا إلى حيث كان رسول الله عليه السلام وأعين المسلمين تمتد إليهم وقد ترقرقت فيها الدموع من الانفعال ، ولو طاوعوا عواطفهم لانطلق التكبير من حناجرهم فإسلام فارس قريش وعمرو بن العاص داهية قريش وعثمان بن طلحة سادن الكعبة شيء يهز المشاعر ويملأ القلوب بالبشر .

ورأى عليه السلام خالد وهو يتقدم فتبسم إليه ، وما زالت البسمة

تتوج شفتيه حتى وقف خالد بعد خطوات منه وقال فى صوت متهدج من التأثر :

ــ السلام عليك يا رسول الله .

فرد عليه النبى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بوجه طلق فقال :

ــ وعليك السلام يا أبا سليمان ورحمة الله .

فقال خالد وهو يهتز من رأسه إلى قدمه من شدة الانفعال :

ــ أشهد أن لا الله إلا الله ، وأنك رسول الله .

فقال عليه السلام فى رضا :

ــ الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير .

فقال خالد فى ابتهال :

ــ يا رسول الله ادع الله لى أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك .

فقال عليه السلام :

ــ الإسلام يجب ما كان قبله .

وتقدم عمرو بن العاص إلى رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وإن لوجهه عليه السلام تهللا والمسلمون حوله يترقرق فى محياهم السرور ، فما هو إلا أن جلس عمرو بين يديه ــ عليه الصلاة والسلام ــ فما استطاع أن يرفع طرفه حياء منه ــ ﷺ ، إنه هجاه فى مكة هجوا فاحشا وعلم الأطفال الشعر لينشدوه خلفه فى دروب أم القرى ، وآذاه وأنزل ألوان العذاب بأصحابه وهو يأتى اليوم تائبا ، فقال بعد أن شهد شهادة الحق :

ـــ أبايعك يا رسول الله على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى .
ولم يحضره ما تأخر ، فقال عليه السلام :
ـــ إن الإسلام يجب ما قبله والهجرة تجب ما قبلها .
وأسلم الرجال الثلاثة ووقفوا خلف رسول الله يصلون مع المسلمين أول صلاة وقد خشعوا لله .
﴿ قـــل لله المشرق والمغـــرب يهدى مـــن يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[1] .

(٢٧)

كانت سليم ترى فى الإسلام قيدا يحد من حريتهم ويفرض عليهم الزكاة التى نظروا إليها على أنها أتاوة ، وقد أسلم بعض رجال سليم فلم يقابل الناس ذلك بالارتياح بل كانوا يعيرون الذين اعتنقوا الدين الجديد ويهجونهم ، وقد قال أبو شجرة بن الخنساء قصيدة طويلة يقرع فيها من قد أسلم :

ألا أيها المولى بـــكثرة قومـــه ... وحظك منهم أن تضام وتقهـرا

وقد رأت سليم نفسها بعد زوال المستعمرات اليهودية أنها أمام الدولة الإسلامية وجها لوجه ، فلم يكن أمامها إلا أن تعتنق الإسلام أو تنضم إلى غطفان وهوازن وأعدائها الألداء الذين يقفون فى وجه الدعـوة الجديدة ، واستمرت سليم فى حيرتها لا تدرى إلى أى المعسكرين تنضم .

---

(1) البقرة ١٤٢ .

...... وأذاقت سليم أبناءها الذين دخلوا فى دين الله صنوف العذاب . لقد بدأتهم بالعدوان فبعث رسول الله — ﷺ — ابن أبى العوجاء السلمى فى خمسين رجلا إلى بنى سليم — فكان لهم جاسوس مع القوم فخرج يعدو إلى بنى سليم وحذرهم فجمعوا جمعا كثيرا وأخذوا ينتظرون سرية ابن أبى العوجاء فانقلب الحال . كان ابن أبى العوجاء يعتمد على المفاجأة فى الإغارة على قومه فإذا بفرسان سليم يرصدون مقدمه وقد تأهبوا للقتال .

ووقف ابن أبى العوجاء السلمى والذين معه أمام فرسان بنى سليم وجها لوجه ، فتقدم ابن أبى العوجاء إلى صفوف بنى سليم ودعاهم إلى الإسلام فقالوا :

— أى حاجة لنا بما تدعونا إليه ؟

فتراموا بالنبل ساعة وجعلت الأمداد تأتى بنى سليم وأحدقوا بالمسلمين من كل ناحية ، ودارت رحى معركة رهيبة لم تكن متكافئة ، وثبت المسلمون يقاتلون فى ثقة يرجون إحدى الحسنيين الاستشهاد أو النصر .

وسالت دماء طاهرة واستشهد عامة المسلمين ، وقد عجب فرسان بنى سليم من تلك الروح القتالية العالية والاستبسال الذى أبداه المؤمنون فأثرت فيهم مواقف الشجاعة الرائعة حتى إنهم فكروا فى ذلك الدين الذى يقدم له أتباعه أرواحهم مستبشرين .

وأصيب ابن أبى العوجاء جريحا مع القتلى ، وأدار النصر رءوس بنى سليم فلم يجهزوا على الجرحى . وتحت جنح الليل راح ابن أبى العوجاء يتحامل حتى أتى رسول الله — ﷺ — وأخبره نبأ خيانة ذلك

الجاسوس وما حاق بالمسلمين .

وبعث عليه السلام غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى المُلوِّح فى بضعة عشر رجلا لما بلغه أن القوم يأتمرون بالمسلمين ، فخرج غالب فى أصحابه حتى إذا كانوا بقديد لحقوا الحارث الليثى فأسروه فقال :

— إنما خرجت إلى رسول الله — ﷺ — أريد الإسلام .

فقالوا له :

— إن كنت مسلما لم يضرك ربطنا لك يوما وليلة ، وإن كنت غير ذلك استوثقنا منك .

فشدوه وثاقا وخلفوا عليه رجلا أسود منهم وقالوا له :

— إن نازعك فاحترز رأسه .

وساروا حتى أتوا محل القوم عند غروب الشمس فكمنوا فى ناحية الوادى ، وأرسل القوم جندب الجهنى جاسوسا لهم فخرج حتى أتى تلا مشرفا على القوم المقيمين بمحلهم ، فلما استوى على رأسه انبطح عليه لينظر إذ خرج رجل منهم فقال لامرأته :

— إنى لأنظر على هذا الجبل سوادا ما رأيته قبل ، انظرى إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرت منها شيئا .

فنظرت فقالت :

— والله ما فقدت من أوعيتى شيئا .

— ناولينى قوسى ونبلى .

فناولته قوسه وسهمين فأرسل سهما فما أخطأ ما بين عينى جندب ، وودّ جندب أن يئن ولكنه كتم آلامه فانتزع السهم وثبت مكانه ، وأرسل الرجل سهما آخر فوضعه فى منكب جندب فانتزعه وثبت

مكانه ، فقال الرجل لامرأته :

— والله لو كان جاسوسا لتحرك ، لقد خالطه سهمان لا أبا لك ، فإذا أصبحت فانظريهما لا تمضغهما الكلاب .

ثم دخل ، فلما اطمأن بنو الملوح وناموا شن المسلمون عليهم الغارة ، فدارت معركة فى سواد الليل أسفرت عن قتل المقاتلة وسبى الذرية واستاقوا النعم والشاة . ومروا على الحارث الليثى فاحتملوه واحتملوا صاحبهم الذى تركوه عنده ، فخرج صريخ القوم فى قومهم فجاء ما لا قبل للمسلمين بهم فصار بين المسلمين وبينهم الوادى .

وأيقن المسلمون أنه الموت فاستلوا سيوفهم وتأهبوا لخوض معركة حتى آخر رجل ، فلم يعد هناك ملجأ إلا الله والسيوف . واشتد بنو الملوح ليقتلوا الذين تستروا بالليل لشن غارتهم وإذا بسحابة تحجب السماء وإذا بمطر يهطل مدرارا فسال الوادى فلم يستطع الكافرون أن يجوزوا به فصاروا وقوفا ينظرون فى غيظ شديد إلى المسلمين وهم متوجهون إلى المدينة .

وكان رسول الله فى المدينة يعقد اللواء للزبير بن العوام لينتقم لسرية بشير بن سعد الأنصارى التى بعثها عليه السلام إلى بنى مرة بفدك فأحاط بهم القوم وفتكوا بهم فتكا ذريعا . وقبل أن يتحرك الزبير قدم غالب من الكديد مؤيدا منصورا فبعثه عليه السلام فى مائتى رجل إلى حيث أصيب أصحاب بشير بن سعد وقال عليه السلام للزبير :

— اجلس .

فسار غالب وصحبه ، فلما دنا من أعدائه ليلا قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن تطيعونى ولا تخالفوا لى أمرا فإنه لا رأى لمن لا يطاع .

ثم ألف بين القوم فقال :

— يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان ، لا يفارق رجل منكم زميله ، فإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبك فيقول لا أدرى ، فإذا كبرت فكبروا .

وأحاطوا بالقوم لما بدا نور الصباح ، ودوى صوت غالب فى الفضاء :

— الله أكبر .

وإذا بأصوات المسلمين تهدر كأنها الهزيم[1] :

— الله أكبر .. الله أكبر .

وجردوا السيوف وخرج بنو مرة للقتال فقاتلوا ساعة ، ووضع المسلمون فيهم السيوف وهم يصيحون :

— أمت .. أمت .

وانجلت المعركة عن هزيمة بنى مرة والثأر لأصحاب بشير بن سعد ، وساق المسلمون النعم والشاء والذرية ، فكان سهم كل رجل عشرة أبعرة .

كانت الهدنة قائمة بين المسلمين وقريش ، ولم يرض ذلك بعض قبائل العرب فكانوا يطمعون أن يقضوا عليهم . ولكنهم كانوا يريدون أن يعلنوا على الملأ أن العداوة بينهم وبين الإسلام لا تزال قائمة . فكان عليه

---

(١) الهزيم : صوت الرعد .

السلام يبعث السرايا ليهاجموا هؤلاء الثائرين فى عقر دارهم ليقضى على الفتنة قبل أن تستفحل ، وليصون عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة من العبث .

(٢٨)

المسلمون فى مسجد رسول الله — ﷺ — التفوا حول جعفر بن أبى طالب وعمرو بن العاص يصغون إلى ما كان بين الرجلين عند النجاشى ، وكان عمرو يروى طرفا من الحديث وقد رفت على شفتيه بسمة هازئة من أقواله وأفعاله ، فإنه كان يحسب فى ذلك الوقت أنه يستطيع بدهائه أن يطفىء نور الله وما دار بخلده أن الله ناصر دينه ، فلما أشرق قلبه بالأنوار أصبحت نفسه تتقاصر كلما تذكر ما كان ، وحمد الله أن الإسلام يجب ما قبله .

قال عمرو بن العاص :

— لما هاجر جعفر وأصحابه إلى الحبشة واستقرت بهم الدار . وهاجر رسول الله — ﷺ — إلى المدينة وكان من أمر بدر ما كان ، اجتمعنا فى دار الندوة وقلنا : «إن لنا فى أصحاب محمد الذين عند النجاشى ثأرا عمن قتل منا ببدر ، فاجمعوا مالا وأهدوه إلى النجاشى لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم ، ولينتدب لذلك رجلان من ذوى الرأى » .

فبعثونى وعمارة بن أبى معيط مع الهدايا والأدم وغيره ، فركبنا البحر وأتينا الحبشة . فلما دخلنا على النجاشى سجدنا له وسلمنا عليه وقلنا :

« إن قومنا لك ناصحون شاكرون ، ولصلاحك محبون ، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء القوم الذين قدموا عليك ، وكنا قد ضيَّعنا عليهم الأمر وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم أحد قد قتلهم الجوع والعطش ، فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك ، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم ، وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التى يحييك بها الناس رغبة عن دينك وسنتك » .

وشرد المسلمون يتذكرون أيام الشدة ، أيا أن ذاق المهاجرون ألوان الاضطهاد وحبسوا فى شعب أبى طالب . وارتجف سعد بن أبى وقاص فى مجلسه ، إنه تذكر ذلك اليوم الذى استبد به الجوع حتى إنه وجد شيئا طريا على الأرض فابتلعه وهو لا يدرى حتى الآن ما كان ، إن حديث عمرو ليعيد إلى ذاكرتهم أيام الكفاح يوم كانوا عزلا من كل سلاح إلا سلاح الإيمان : إنهم عذبوا بما لم يعذب به أحد واضطهدوا فى الله وصبروا وصابروا فنصرهم الله ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وتذكر الزبير بن العوام عمته خديجة ، إن الطاهرة سيدة نساء قريش قد تلوت من الجوع ، ولولا رقة قلب حكيم بن حزام على عمته لمات المسلمون جوعا فى شعب أبى طالب ، فحكيم كان يحمل البعير بالأقوات ويأتى بها إلى باب الشعب ثم يطلقها إلى المحصورين الجائعين ، وراح الزبير يعجب من أمر حكيم فإن مثله لا يجهل الإسلام ، وقد كان يحسب أن حكيم بن حزام سيأتى إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — مهاجرا ليعلن إسلامه قبل أن يأتى ابن العاص طائعا يعلن على الملأ الإيمان

والتسليم .

وراح عمرو يروى قصته قال : « فدعاهم النجاشى فلما حضروا صاح جعفر بالباب : يستأذن عليك حزب الله . فقال النجاشى : مروا هذا الصائح فليعد كلامه . فقال جعفر : يستأذن عليك حزب الله . قال النجاشى : نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته . فنظرت إلى صاحبى فقلت : ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله وما أجابهم النجاشى ؟ ! فساءنا ذلك ثم دخلوا عليه و لم يسجدوا له ، فقلت ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك ؟

والتقط جعفر بن أبى طالب طرف الحديث فقال :

ـــ قال لنا النجاشى : ما يمنعكم أن تسجدوا لى وتحيونى بالتحية التى يحيينى بها من أتانى من الآفاق ؟ قلنا : نسجد لله الذى خلقك وملكك ، وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان فبعث الله فينا نبيا صادقا وأمرنا بالتحية التى نعتها[1] الله لنا ، وهى السلام تحية أهل الجنة .

وانثالت الذكريات على رأس عثمان بن عفان ، إنه كان هناك وكانت معه رقية بنت رسول الله ـــ ﷺ ، إن النجاشى قد أكرمهما ولكن رجال البلاط قد آذوه بالنظر إلى رقية فقد كانت رحمها الله رائعة الحسن تخطف الأبصار .

واستمر جعفر فى الحديث قال : قال النجاشى أيكم الهاتف يستأذن عليك حزب الله ؟ قلت أنا . قال فتكلم ، قلت إنك ملك من ملوك أهل الأرض ومن أهل الكتاب ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم ، وأنا أحب أن أجيب عن أصحابى فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما

---

(١) نعتها الله : وصفها لنا ووضحها .

وليسكت الآخر فتسمع محاورتنا . فقال لى عمرو تكلم . فقلت للنجاشى سل هذا الرجل أعبيد نحن أم أحرار ؟ فإن كنا عبيدا أبقنا من أربابنا فارددنا إليهم . فقال النجاشى أعبيد هم أم أحرار ؟ فقال عمرو بل أحرار كرام . فقال النجاشى خرجتم من العبودية . قلت سلهما هل أهرقنا دما بغير حق فيقتص منا ؟ فقال عمرو لا ولا قطرة . قلت سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها ؟ قال النجاشى يا عمرو إن كان قنطارا فعلى قضاؤه . فقال عمرو لا ولا قيراط . قال النجاشى فما تطلبون منهم ؟ قال عمرو كنا وهم على دين واحد وأمر واحد على دين آبائنا ، فتركوا ذلك الدين واتبعوا غيره ولزمنا نحن ، فبعثنا إليك قومهم لتدفعهم إلينا . فقال النجاشى ما هذا الدين الذى كنتم عليه والدين الذى اتبعتموه ؟ أصدقنى . قلت أما الذى كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان وأمره . كنا نكفر بالله عز وجل ونعبد الحجارة . وأما الذى تحولنا إليه فدين الإسلام جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقا له . فقال النجاشى يا جعفر لقد تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك[1] .

ثم أمر النجاشى فضرب بالناقوس فاجتمع إليه كل قسيس وراهب ، فلما اجتمعوا عنده قال النجاشى : أنشدكم الله الذى أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين القيامة نبيا مرسلا ؟ فقالوا : اللهم نعم قد بشرنا به عيسى وقال من آمن به فقد آمن بى ومن كفر به فقد كفر بى . فقال لى النجاشى : ماذا يقول لكم هذا الرجل ويأمركم به وما ينهاكم

---

(١) الرسل : الرفق والتؤدة .

عنه ؟ قلت : يقرأ علينا كتاب الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأمر بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم ، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له . فقال : اقرأ علينا شيئا مما كان يقرأ عليهم . فقرأت عليهم سورة العنكبوت والروم ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع وقالوا : يا جعفر زدنا من هذا الحديث الطيب . فقرأت عليهم سورة الكهف . فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال : إنهم يشتمون عيسى وأمه ، فقال النجاشي : ما يقولون فى عيسى وأمه ؟ فقرأت عليهم سورة مريم ، فلما أتيت على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي بقية من سواك قدر ما يقذى العين وقال : والله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا . ثم أقبل علىّ وعلى أصحابى فقال : اذهبوا فأنتم سيوم[1] فى أرضى آمنون ، من سبكم أو آذاكم غرم .

ثم قال : أبشروا ولا تخافوا ، ولا دهورة اليوم على حزب إبراهيم . قالوا : يا نجاشي ومن حزب إبراهيم ؟ قال : هؤلاء الرهط[2] وصاحبهم الذى جاءوا من عنده ومن اتبعهم .

وقال عمرو :

— ثم رد النجاشي علينا المال الذى حملناه وقال إنما هديتكم إلى رشوة فاقبضوها ، فإن الله ملكنى و لم يأخذ منى رشوة .

وقال جعفر :

— وانصرفنا فكنا فى خير دار وأكرم جوار .

---

(١) السائمة : الإبل الراعية . ويقصد أنهم هانئون ناعمون .

(٢) الرهط : ما دون العشرة من الرجال ليست فيهم امرأة .

واستمر عمرو بن العاص يروى ما كان بينه وبين النجاشى فى زيارته التالية قال :

ــ لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيى ويسمعون منى فقلت لهم : تعلمون والله أنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا وأنى قد رأيت أمرا فما ترون فيه ؟ قالوا : وماذا رأيت ؟ قلت : رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير .

قالوا : إن هذا الرأى . قلت : فاجمعوا لنا ما نهديه له وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم ، فجمعنا له أدما كثيرا ثم خرجنا حتى قدمنا عليه .

فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمرى وكان رسول الله ــ ﷺ ــ قد بعثه إليه فى شأن جعفر وأصحابه ، فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية الضمرى لو قد دخلت على النجاشى وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد .

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال مرحبا بصديقى أهديت إلى من بلادك شيئا ؟ قلت : نعم أيها الملك قد أهديت إليك أدما كثيرا . ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه . ثم قلت له : أيها الملك إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطنيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . فغضب ثم مد يده فضرب بها أنفى

ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقا[١] منه ، ثم قلت له : أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس[٢] الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ! قلت : أيها الملك أكذاك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أفتبايعنى له على الإسلام ؟ قال : نعم . فبسط يده فبايعته على الإسلام . ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه وكتمت أصحابى إسلامى .

كان عمرو بن العاص داهية من دهاة العرب فاستطاع أن يندمج فى المجتمع المدنى سريعا وأن يعيد الصلات القديمة بينه وبين المهاجرين الأوائل . أما خالد بن الوليد فقد كان يحس أنه حارب الإسلام وهو ظالم لأهله وكثيرا ما كانت تنشب مشادات بينه وبين صحابة الرسول عليه السلام حتى إن عبد الرحمن بن عوف اشتكى خالد بن الوليد للنبى ـ ﷺ فقال :

ـ يا خالد لم تؤذى رجلا من أهل بدر ؟ لو أنفقت مثل أحد ذهبا لم تدرك عمله .

فقال خالد :

ـ يا رسول الله يقعون فى فأرد عليهم .

فقال عليه السلام لأصحابه :

---

(١) الفرق : الخوف والفزع .

(٢) الناموس ، ملك الوحى : جبريل عليه السلام .

ـــ لا تؤذوا خالدا فإنه سيف من سيوف الله .

وجزعت قريش لإسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحة بن أبى طلحة الذى كان عنده مفتاح البيت العتيق ، فقال شاعرهم ابن الزبعرى السهمى :

أنشد عثمان بن طلحة حلفنا ... وملقى نعال القوم عند المقبل[١]

وما عقد الآباء من كل حلفة ... وما خالد من مثلها بمحلل

أمفتاح بيت غير بيتك تبتغى ... وما يبتغى من مجد بيت مؤثل[٢]

فلا تأمننّ خالدا بعد هذه ... وعثمان جاء بالدهيم المعضل[٣]

(٢٩)

بعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر خارصا[٤] بين المسلمين ويهود فيخرص عليهم ، فقد دفع ـــ ﷺ ـــ لأهل خيبر الأرض لما قالوا له :

ـــ نحن أعلم بها منكم .

وأعمرها بشطر ما يخرج منها من تمر أو زرع ، وخرصها ابن رواحة أربعين ألف وسق فقالت يهود :

ـــ تعديت علينا .

---

(١) يريد بالمقبل : موضع تقبيل الحجر الأسود .

(٢) المؤثل : القديم .

(٣) الدهيم : الداهية .

(٤) خارصا : حازرا ومقدرا .

وأرادوا أن يرشوه فقال :

— يا أعداء الله تطعمونى فى السحت[١] ؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلىّ ولأنتم أبغض إلىّ من القردة والخنازير ، ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على ألا أعدل .

وقسم ما خرج من أرض خيبر شطرين وخيرهما فى أن يختاروا أى الشطرين قال :

— ان شئتم فلكم وإن شئتم فلنا .

فقالت يهود :

— بهذا قامت السماوات والأرض .

كان عبد الله بن رواحة من النقباء الاثنى عشر الذين بايعوا رسول الله — ﷺ — فى بيعة العقبة ، وقد قال فيه كعب بن مالك لما ذكر النقباء :

وأيضا فلا يعطيكه ابن رواحة   وإخفاره[٢] من دونه السم ناقع

وقد شهد بدرا وأحدا والخندق ومشاهد رسول الله — ﷺ . إنه اعترض ناقة رسول الله — ﷺ — يوم أن خرج عليه السلام من قباء إلى المدينة لما مرت بدار بنى الحارث بن الخزرج وقال :

— يا رسول الله هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة .

كان ابن رواحة ورجال بنى الحارث يبغون أن ينزل رسول الله عليه السلام فيهم ، ولكنه عليه السلام قال لهم :

— خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

---

(١) السحت : كل مال حرام لا يحل كسبه .

(٢) الإخفار : الحفظ والحماية .

ويوم بدر خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة . فخرج إليه فتنة من الأنصار ثلاثة هم : عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة . كان من أوائل من برزوا للقتال فى ذلك اليوم المشهود . ولكن رجال قريش قالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار . قالوا : مالنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا .

ولما تم النصر للمسلمين يوم بدر بعث رسول الله — ﷺ — عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية بما فتح الله عز وجل على رسول الله — ﷺ — وعلى المسلمين ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة . فراح الرجلان يذكران قتل من قتل من المشركين فقال كعب بن الأشرف وكان رجلا من طيىء ثم أحد بنى نبهان وكانت أمه من بنى النضير حين بلغه الخبر : — أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم فبطن الأرض خير من ظهرها .

فراح عبد الله بن رواحة يؤكد مقتل أشراف العرب وملوك الناس وهو يود لو يموت عدو الله كعب بن الأشرف كمدا .

وكان عبد الله بن رواحة فيمن حفروا الخندق ، فلما حمل حيى بن أخطب كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم على نقض عهده لرسول الله — ﷺ — وانتهى إلى رسول الله عليه السلام الخبر وإلى المسلمين ، وبعث رسول الله — ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات ابن جبير قال :

— انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقا فالحنوا لى لحنا أعرفه ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد .

ثم أقبل السعدان وعبد الله بن رواحة وخوات إلى رسول الله — ﷺ — فسلموا عليه ، ثم قالوا :

— عضل والقارة .

أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ، فقال رسول الله — ﷺ :

— الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

وكان حسان بن ثابت خاض فى حديث الإفك وهجا صفوان فضربه صفوان بالسيف ثم قال :

تلق ذباب[1]السيف عنى فإننى غلام إذا هوجيت لست بشاعر

فوثب ثابت بن قيس بن الشماس على صفوان حين ضرب حسان فجمع يديه إلى عنقه بحبل ثم انطلق به إلى دار بنى الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال :

— ما هذا ؟

— أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ! والله ما أراه إلا قتله .

---

(١) دباب السيف : طرفه .

قال له عبد الله بن رواحة :

ـــ هل علم رسول الله ـــ ﷺ ـــ بشيء مما صنعت ؟

ـــ لا والله .

ـــ لقد اجترأت . أطلق الرجل .

فأطلقه ثم أتوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ فذكروا ذلك له ، فدعا حسان وصفوان فقال صفوان بن المعطل :

ـــ يا رسول الله آذانى وهجانى فاحتملنى الغضب فضربته .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لحسان :

ـــ أحسن يا حسان ، أتشدهت[1] على قومى أن هداهم الله للإسلام ؟

ثم قال عليه السلام :

ـــ أحسن يا حسان فى الذى أصابك .

ـــ هى لك يا رسول الله .

وافتتح رسول الله ـــ ﷺ ـــ خيبر عنوة فخمسها عليه السلام وقسمها بين المسلمين ، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال فدعاهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم ، وأقركم ما أقركم الله .

فقبلوا فبعث ـــ ﷺ ـــ عبد الله بن رواحة ليقسم ثمارها ، فأرادوا أن يرشوه فغضب ابن رواحة غضبا شديدا فما خطر له على قلب أن قوما

---

(١) تشده : تعجب واندهش .

يدور بخلدهم أن يرشوه ، فهو من نقباء الأنصار ممن شهد بدرا والمواقع كلها ووهب حياته لله ولرسوله ولنصرة الإسلام . إنه لا يريد الدنيا بل يطمع فيما عند الله فما بال هؤلاء الذين غرتهم الدنيا يحاولون أن يطعموه فى السحت وأن يملئوا بطنه نارا ؟ إنه ثائر على هؤلاء الذين يريدون حرث الدنيا قد كرههم من أعماق قلبه ، ولكن بغضه إياهم لا يحمله على ألا يعدل فهو لا يريد فى كل أعماله إلا وجه الله والله تعالى يقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[١] .

(٣٠)

حزن المسلمون لما هزمت الفرس الروم لأن الفرس كانوا وثنيين مثل قريش والروم كانوا أهل كتاب مثل المسلمين ونزل قرآن يؤكد أن الروم سيهزمون الفرس فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

وتحقق وعد الله وهزمت الروم الفرس ، وجاءت أنباء ذلك الانتصار يوم أن فتح الله على المسلمين فى بدر ففرح المؤمنون بنصر الله ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . فلما استقرت الأمور فى المدينة بعد صلح الحديبية بعث عليه السلام كتبا إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى

---

(١) المائدة ٨ .

الإسلام فكان رد هرقل ملك الروم رقيقا وإن لم يؤمن بالدين الجديد ، فرأى صلوات الله وسلامه عليه — أن يستمر الحبل موصولا بين المسلمين والروم لعل الله يشرح صدورهم للإسلام . فبعث عليه السلام فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة الحارث بن عمير الأزدى إلى ملك بصرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى وهو من أمراء قيصر على الشام فقال له :

— أين تريد ؟ لعلك من رسل محمد .

— نعم .

فأوثقه ربطا ثم قدمه فضرب عنقه ، فلما بلغ رسول الله — ﷺ — ذلك اشتد الأمر عليه فلم يقتل لرسول الله عليه السلام رسول من قبل وكان قتل الحارث بمثابة إعلان الحرب من قبل الروم على المسلمين ، فلما اتضحت نيات الروم وبدت العداوة وبدءوا بالعدوان كان على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتحرك وأن يرسل جيوشه إلى الشام قبل أن يجمع الروم جموعهم ويسيروا إلى المدينة ليقضوا على الإسلام .

وجهز عليه السلام جمعا من أصحابه عدتهم ثلاثة آلاف وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال :

— إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس . وإن أصيب ابن رواحة فليرتض المسلمون برجل منهم فليجعلوه عليهم .

وعقد عليه السلام لواء أبيض ودفعه لزيد بن حارثة وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ويدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله تبارك وتعالى وقاتلوهم .

وودعهم الناس وقالوا لهم :

— صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

وخرج رسول الله — ﷺ — مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف فقال :

— أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا .

اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا ، ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء .

وخرج جيش المسلمين فثار النقع وارتفع وقع حوافر الخيل على الأرض وأصوات أهل المدينة ترتفع بالوداع والدعاء :

— دفع الله عنكم وردكم غانمين .

فمضوا وفى الخيل خالد بن الوليد فارس قريش المظفر فى كل موقعة ، ولم يكن إلا جنديا من جنود الإسلام خرج ليعلى كلمة الحق مع إخوانه الخارجين . إنه لأول مرة يخرج مطمئن الفؤاد بعد أن هداه الله إلى الطريق ، فلم يعد يحفل أن يكون على رأس الجيش أو يكون فى الذيل فإن ما يملأ قلبه رضا أنه فى جانب الحق وفى سبيل الله ، يستشعر فى أعماقه أنه مع الله وأن الله معه .

ونزل المسلمون بأرض الشام فبلغهم أن هرقل إمبراطور الروم قاهر الفرس فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليه من قبائل العرب المتنصرة من بنى بكر ولخم وجذام خمسون ألفا ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين ، فراحوا يتشاورون ليلتين هل يبعثون لرسول الله — ﷺ — يخبرونه بعدد عدوهم فإما أن يمدهم برجال أو يأمرهم بأمر

فيمضوا إليه ، فشجعهم عبد الله بن رواحة على خوض غمار المعركة وقال لهم :

— يا قوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن لا نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به ، فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة .

فسرت حماسته إلى صدور القوم فقال الناس :

— صدق والله ابن رواحة .

فمضوا للقتال فلقيهم هرقل فى جموع الروم والعرب ، فانحاز المسلمون إلى مؤتة فالتقى الجمعان عندها واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة ومعه راية رسول الله — ﷺ ، إنه يصول ويجول كليث كشر عن أنيابه . وانطلق فرسان الروم إلى صاحب الراية وزيد بن حارثة يدافع عنها دفاع الأبطال ويكبر تكبيرة تزلزل قلوب الأعداء ، وتكاثر عليه الرجال فخلصت إليه الجراح وهو ثابت كالطود يرى صورة حبيبه رسول الله — ﷺ — تملأ ما بين السماء والأرض فلا يزيده ذلك إلا عزما وتصميما على النصر . وصوبت إليه السهام وارتفع سيف وهوى على عاتقه فترنح ثم سقط على الأرض يجود بأنفاسه ، وصوت رسول الله عليه السلام يسرى إلى أذنيه كالنسيم :

— إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس .

وفتح عينين واهنتين ونظر فرأى جعفر بن أبى طالب قد أخذ الراية وهو يقاتل على فرسه ، فلفظ النفس الأخير وهو قرير العين فقد قيل له — لما قال عليه السلام إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس —

اعهد يا زيد فلن ترجع لمحمد أبدا إن كان نبيا ، وهو يقول : أشهد أنه نبى .

وراح جعفر بن أبى طالب يقاتل على فرس أشقر وقد التف حوله صناديد الروم ، الدروع تغطى الصدور والخوذات تتألق فى الشمس والصراع مرير والقوتان غير متكافئتين ، فمقابل المسلم عشرات من الرومان ومتنصرة العرب ، وأحس جعفر أنه مقتول فنزل عن فرسه وعقره خوفا من أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين — وكان أول فرس عقر فى سبيل الله ، وأخذ يضرب بسيفه وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها　　طيبةً وباردا شرابها

والروم روم قد دنا عذابها　　كافرة بعيدة أنسابها

علىّ إن لاقيتها ضرابها

كان جعفر فى التاسعة والثلاثين من عمره مهيبا فخما يهجم على أعدائه كأنه سبع يذود عن عرينه يضرب بسيفه حتى ينثنى فى يده ، وكان اللواء فى يمينه فإذا بضربة سيف أطاحت بذراعه ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه فإذا بضربة بالسيف تسدد إليه فيسقط على الأرض يجود بأنفاسه .

ولعب خالد بن الوليد بسيفه ، كان يضرب بقوة فيطيح بالرءوس ، ودارت رحى معركة رهيبة يشيب من هولها الوليد فإذا بالدماء تروى أرض مؤتة ، وإذا بجثث الروم والعرب تملأ الفضاء ، وإذا بالنداءات تختلط بالأنات ، وراحت الشمس تغوص فى الأفق الغربى والقتال دوار لا هوادة فيه ولا رحمة . .

وأخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فجعل

يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال :

أقسمت يـا نـفس لتنزلنّـه　　لتنزلـنّ أو لتكرهنّـه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة[1]　　مـا لى أراك تكـرهين الجنـة
قد طال ما قد كـنت مطمئنـة　　هل أنت إلا نطفة فى شنّـة[2]

وأراد أن ينزل عن فرسه ليخوض فى صفوف الأعداء فإذا بخوف يكتنفه ، وتذكر موت صاحبيه زيد وجعفر . إنهما استشهدا وجادا بروحيهما مستبشرين متفرحين فى الله ، فراح يلوم نفسه :

يـا نـفس إلا تقـتلى تموتى　　هذا حمام الموت قد صليت[3]
ومـا تمنـيت فقـد أعطـيت　　إن تفـعلى فعلهمـا هـديت

واندفع كالعاصفة فى صفوف الأعداء وهو يحمل لواء رسول الله — ﷺ ، واستمر يتقدم لا يلوى على شىء يضرب بسيفه أعناق الروم ومن حوله صناديد المسلمين يكبرون ويطعنون الأعداء طعنات قاتلة فوق الدروع ويفلقون الهامات .

وأتى عبد الله بن عمر جعفر بن أبى طالب وهو مستلق آخر النهار فعرض عليه الماء فقال :

— إنى صائم فضعه على ترسى عند رأسى ، فإن عشت حتى تغرب الشمس أفطرت .

فمات صائما قبل غروب الشمس شهيدا مذلا للدنيا بإدباره عنها ،

---

(١) الرنة : صوت فيه ترجيع مثل البكاء .

(٢) الشنة : قطعة من الجلد البالى .

(٣) صليت : صلى ذاق . صلى بالنار : وجد حرها .

معزا للآخرة بإقباله عليها .

ونال التعب من الرجال فما خيم الظلام حتى انسحب الجيشان كل إلى معسكره يضمد جراحه .

وتمدد عبد الله بن رواحة ليستريح ، وأسبل عينيه فإذا به يرى بعين خياله ذلك اليوم الذى ودع فيه أمراء رسول الله — ﷺ ، إنه بكى فى ذلك اليوم فقالوا له :

— ما يبكيك يا بن رواحة ؟

— أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكننى سمعت رسول الله — ﷺ — يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾[1] . فلست أدرى كيف لى بالصَّدر[2] بعد الورود .

ورن فى ضميره أصوات المسلمين :

— صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

وسمع صوت ذاته يهمس فى أغواره بالشعر الذى أنشده :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ[3] تقذف الزبدا

أو طعنة بيدى حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثى أرشده الله من غاز وقد رشدا

إنه خرج وهو يتمنى الاستشهاد فما باله قد تردد لما آلت إليه راية

---

(١) مريم ٧١ .
(٢) الصدر : الرجوع من مورد الماء.
(٣) ذات فرغ : ذات تسعة ، والزبد هنا رغوة الدم .

رسول الله — ﷺ — ؟ إنه حانق على نفسه لا يفتأ يلومها حتى وهو يلتقط أنفاسه من التعب . إنه بات وهو واثق من القتل وأنه سيلحق بصاحبيه زيد وجعفر فلم ترتعد فرائصه ولم يرتجف خشية الموت . بل أحس حنينا إلى رسول الله — ﷺ — فراح يرى بذاكرته رسول الله عليه السلام وهو يودعه ، فارتفع صوته ينشد فى رقة وقد بلت الدموع عينيه :

أنت الرسول فمن يحرم نوافله[1] والوجه منه فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن فى المرسلين ونصرا كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلة فراسة خالفت فيك الذى نظروا

واحتلت فكرة صورة رسول الله عليه السلام لما ودعهم وانصرف عنهم والشعر الذى قاله :

خلف السلام على أمرىء ودَّعته فى النخل خير مشيع وخليل

وعادت إلى رأسه مشاهد الرحلة كلها ؛ إنه أردف زيد بن أرقم على رحله وكان زيد يتيما فى حجره ، فأنشد والمسلمون فى طريقهم إلى البلقاء :

إذا أديتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء
فشانك أنعم وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلى ورائى
وجاء المسلمون وغادرونى بأرض الشام مشتهى الثواء
وردك كل ذى نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالى طلع بعل ولا نخل أسافلها رواء

---

(١) نوافله : عطاياه .

فلما سمع زيد بن الأرقم هذه الأبيات بكى ، فخفقه بالدرة وقال :

ـــ ما عليك يا لكع[1] أن يرزقنى الله الشهادة وترجع بين شعبتى الرحل ؟

ومد عينيه فى ظلام الليل يبحث عن زيد بن أرقم فألفاه يضمد جراحه ، فاستمر يرنو إليه فى حب فإذا بذكريات غزوة بنى المصطلق تنثال على رأسه ، إن أجير عمر بن الخطاب يزدحم على الماء وحليف بنى عوف بن الخزرج ، فاقتتلا فصرخ حليف بنى عوف يا معشر الأنصار ، وصرخ أجير عمر يا معشر المهاجرين ، فغضب عبد الله بن أبىّ بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال :

ـــ أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

ـــ هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم .

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال :

ـــ مر به عباد بن بشر فليقتله .

ـــ فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا ولكن أذن بالرحيل .

---

(١) يا لكع : يا لئيم ، والمقصود مجرد الردع .

وبلغ عبد الله بن أبىّ بن سلول أن زيد بن أرقم قد بلغ رسول الله عليه السلام ما سمع منه ، فمشى عبد الله إلى الرسول عليه السلام ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به ، فقال من حضر رسول الله — ﷺ — من الأنصار من أصحابه :

— يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه و لم يحفظ ما قال الرجل .

كان نفر من الأنصار يحدبون على ابن أبىّ بن سلول ويدفعون عنه ولكن ابن رواحة لم يحب نفاقه ؛ كان على ثقة من أن زيد بن أرقم لم يكذب فى حديثه فقد نشأ فى حجره وما جرب عليه كذبا قط ، وكان يرجو كما كان زيد يرجو أم ينزل الله قرآنا يفضح فيه نفاق ابن أبىّ بن سلول ، وقد نزل القرآن المجيد مصدقا لزيد : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون * وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين * هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين

لا يعلمون ﴾[١] .

ورفت بسمة على شفتى ابن رواحة فهو يرى ببصيرته رسول الله عليه السلام يأخذ بأذن زيد بن أرقم ثم يقول :

— هذا الذى أوفى لله بأذنه .

وهوّم وطاف به الكرى ولكنه راح يقاوم النوم ، إنه يحس أن منيته قد دنت وأنه على أبواب الاستشهاد فود أن يعيش ما بقى من حياته مع الذكريات ، فأطبق جفنيه تمر المشاهد فى رأسه نابضة حية تثير فيه الانفعال . إنه يرى جيش المسلمين يخرج من المدينة بقيادة زيد بن حارثة تموج فى صدور رجاله الآمال . كانوا متفرحين فى الله فهذه أول مرة ينطلقون فيها إلى الشام للغزو عوضا عن التجارة ، لتأديب شرحبيل أمير الغساسنة على ما اقترف فى حق رسول نبى الإسلام عليه السلام وما دار بخلدهم أنهم سيقابلون الروم . إنه يرى الجيش وقد بلغ معان وإذا بالأنباء تأتى إليهم أن الرومان بقيادة تيودور أخى هرقل قد خرجوا إليهم ، إنهم توقفوا عن السير ونزلوا بمعان يتشاورون .

كان رأى زيد أنهم ما خرجوا إلا لتأديب شرحبيل بن عمرو الغسانى لضربه عنق الحارث بن عمير الأزدى رسول نبى الإسلام عليه السلام ، وقال جعفر بن أبى طالب إن رسول الله — ﷺ — لم يبعثهم لقتال الروم ، إنهم قد أقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم وقالوا :

— نكتب إلى رسول الله — ﷺ — فنخبره بعدد عدونا ، فإما يمدنا برجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

---

(١) المنافقون ١ — ٨ .

ورأى عبد الله بن رواحة نفسه وهو يشجع الناس على القتال ، ورن في عين ذاته الشعر الذى قاله :

جلبنا الخيل من أجأ وفرع[١] تغر من الحشيش لها العكوم[٢]
حذوناهم من الصوان[٣] سبتا أزل كـأن صفحتـه أديم[٤]
أقـامت ليلـتين على معـان فأعقب بعد فتـرتها جموم[٥]
فرحنا والجيـاد مسومـات[٦] تنفس فى مناخرها السمـوم[٧]
فـلا وأبى مـآب لنأتـينها وإن كانت بها عـرب وروم
فعبأنـا أعـنتها فجـاءت عـوابس والغبـار لها بـريم[٨]
بذى لجب كأن البيض فيـه إذا برزت قوانسها[٩] النجـوم
فراضيـة المعـيشة طلـقتها أسنتها فتنكـح أو تـئيم[١٠]

ورن فى أذنيه أمر زيد بن الحارثة بالتقدم . إنه ليرى جيش المسلمين ينساب إلى البلقاء فإذا بجيش الروم هناك بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ، وإذا بالعدو يدنو وإذا بالمسلمين ينحازون إلى مؤتة على مائة ميل جنوبى بيت المقدس على البحر الميت .

(١) أجأ : أحد جبلى طىء ، والفرع : أطول جبل بأجأ .
(٢) العكوم : جمع عكم وهو الجنب . (٣) الصوان : نوع من الحجارة .
(٤) الأديم : الجلد . (٥) جموم : اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة .
(٦) مسومات : معلمات . (٧) السموم : ريح حارة
(٨) البريم : الدمع المختلط بالآثمد .
(٩) القونس : أعلى الرأس .
(١٠) تئيم : تاءم أخاه ولد معه ويقصد الكثرة والزيادة .

(صلح الحديبية)

وأرسلت الشمس أشعتها الأولى إلى سواحل البحر الميت الموحشة ، فأخذ المسلمون مصافهم وتحركت فيالق الروم . إنها تندفع فى صفوف المسلمين الذين كانوا مسلحين بأسلحة خفيفة فلم يستطع زيد أن يقف مكتوف اليدين وأمر بالهجوم ، فأنزل الرجال والفرسان خسائر فادحة فى جيوش الرومان ، فلو أن هناك مسلمين أكثر من الموجودين قليلا لاندحر الروم .

إن زيد بن حارثة يقاتل براية رسول الله — ﷺ — حتى شاط[1] فى رماح القوم ، وإن جعفر بن أبى طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، وقد أصبحت راية رسول الله — ﷺ — فى يده ، فعزم على أن يقاتل حتى يفتح الله عليه أو يموت دونها .

(٣١)

لاح فى الأفق الشرقى نور الصباح فتهيأ الجيشان للقتال : المسلمون على تعبئتهم قد جعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذرة يقال له قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له عبادة بن مالك. والروم فى دروعهم وعلى رءوسهم الخوذات وفى أيديهم أسلحة بتارة ولكن قلوبهم لم تكن عامرة بالإيمان ، فلما نشب القتال استشرى القتل فى الروم ونزل عبد الله بن رواحة يخوض غمار القتال وفى يده راية رسول الله عليه

---

(١) شاط الرجل : إذا سال دمه فهلك .

السلام وإلى جواره خالد بن الوليد يقط الرقاب ويضع سيفه حيث شاء ، وثابت بن الأرقم يلعب بسيفه يدافع عن راية الإسلام .

ومضى النهار والعرق يتصبب من ابن رواحة وهو يقاتل دون أن يستريح أو ينال طعاما ، فأتاه ابن عم له بعَرق من لحم فقال :

ـــ شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت .

فأخذه من يده ثم انتهش منه نهشة ، ثم سمع الحطمة[1] فى ناحية الناس فقال :

ـــ وأنت فى الدنيا !

ثم ألقى عرق اللحم من يده ثم أخذ سيفه فتقدم يهز راية رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ هزا ويشجع الناس على الثبات ، فتكاثر عليه الروم فهبروه بأسيافهم فقتلوه وسقطت راية رسول الله عليه السلام من يده .

وأختلط المسلمون بالروم وبمتنصرة العرب ، وأراد بعض المسلمين الانهزام فجعل عقبة بن عامر يقول :

ـــ يقتل الإنسان مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا .

ورأى ثابت بن أرقم راية رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى يد عبد الله بن رواحة وقد فاضت روحه فأخذ الراية وقال :

ـــ يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم .

فقالوا :

ـــ أنت .

ـــ ما أنا بفاعل .

---

(١) الحطمة : زحام الناس وحطم بعضهم بعضا .

ودفعها إلى خالد بن الوليد وقال :

— أنت أعلم بالقتال منى .

فقال له خالد :

— أنت أحق به منى لأنك ممن شهد بدر .

واصطلح الناس على خالد بن الوليد فكادت الدموع تطفر من مقلتيه من التأثر : إنها أول مرة يحمل فيها راية الإسلام بعد أن كان حربا على المسلمين ، وحمل على الروم حملة شديدة فاندقت فى يده تسعة أسياف وما ثبتت فى يده إلا صحيفة يمانية ، واستمر القتال رهيبا حتى سجا[1] الليل فعاد كل من الجيشين إلى معسكره .

و لم يركن خالد إلى الراحة بل إنه جعل مقدمة الجيش ساقة وساقته مقدمة وميمنته ميسرة وميسرته ميمنة ، فكانت حركة طوال الليل فى عسكر المسلمين فظن الروم مجىء مدد للمسلمين فرعبوا فالشرذمة القليلة من العرب قد أنزلت بهم خسائر فادحة ، فماذا سينزلون بهم من خسائر بعد أن جاءهم المدد ؟ !

وأشرقت شمس اليوم السابع فاستؤنف القتال وشن المسلمون على الروم هجوما شديدا تكسرت منه صفوفهم ، ولما كان الروم يرون فى أية مخاطرة عسكرية حماقة وقد أفزعتهم كثرة القتل الذى نزل بهم قرروا أن ينسحبوا إلى أماكن أكثر ملاءمة لصد هجوم المسلمين ، فثبتوا حتى آخر النهار ثم راحوا يتقهقرون فى جنح الظلام إلى أماكن محصنة تقيهم من ضراوة قتل هؤلاء العرب الذين حملوا راضين أرواحهم على أكفهم

---

(١) سجى الليل : ستر بظلمته .

والذين يستقبلون القتل مستبشرين لكأنما يزفون إلى الموت ليحطموا ذلك الحاجز الذى يقف حائلا بينهم وبين سعادتهم الأبدية .

ولم ير خالد حافزا على أن يقتفى أثر الروم فجيشه قد أنهك وقد ثبت سبعة أيام لجيش يفوقه فى العدد والعدة ، فعزم القائد الموفق على العودة فقفل راجعا بالمسلمين إلى المدينة وقد حمل جثمان جعفر وفيه تسعون جراحة بين صدره ومنكبيه ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح .

وأطلع الله تعالى رسوله — ﷺ — على استشهاد قواده فنادى فى الناس :

— الصلاة جامعة .

فهرع المسلمون إلى المسجد ، ثم صعد المنبر وعيناه تذرفان وقال :

— أيها الناس . باب خير .. باب خير .. باب خير . أخبركم عن جيشكم هذا الغازى أنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيدا فاستغفروا له ، ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا ، فاستغفروا له .

ثم صمت رسول الله — ﷺ — حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان فى عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ثم قال :

— ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، فاستغفروا له ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ، ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره .

ودخل رسول الله — ﷺ — دار جعفر بن أبى طالب فألفى زوجه أسماء بنت عميس قد انتهت من العجين ، فقال :

— ائتنى ببنى جعفر .

فأتته عليه السلام بهم فشمهم وذرفت عيناه حتى نقطت لحيته ، فقالت أسماء فى خوف :

— يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟

فقال عليه السلام فى حزن :

— نعم ، أصيبوا هذا اليوم .

فقامت تصيح واجتمع عليها النساء ، وجعل رسول الله — ﷺ — يقول لها :

— يا أسماء لا تقولى هجرا ولا تضربى خدا .

ودخل عليه السلام على فاطمة وهو واله حزين وهى تقول :

— واعماه !

فقال عليه السلام :

— على جعفر فلتبك البواكى .

ثم قال :

— اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم .

وعمدت سلمى مولاة النبى — ﷺ — إلى شعير فطحنته ونسفته ثم طبخته وأدمته بزيت وجعلت عليه فلفلا ، وحملته إلى دار جعفر .

وبلغ حسان بن ثابت مقتل جعفر فراح يبكيه :

ولقد بكيت وعز مهلك جعفر   حب النبى على البرية كلها
ولقد جزعت وقلت حين نعيت لى   من للجلاد لدى العقاب[1] وظلها

---

(١) العقاب : طائر جارح ويقصد هنا الراية .

بالبيض حين تسل من أغمادها ضربا وإنهال الرماح وعلها(١)
بعد ابن فاطمة المبارك جعفر خير البرية كلها وأجلها
رزءا ، وأكرمها جميعا محتدا(٢) وأعزها متظلما وأذلها
للحق ، حين ينوب غير تنحل كذبا ، وأنداها(٣) يدا وأقلها
فحشا ، وأكثرها إذا ما يجتدى(٤) فضلا وأبذلها ندى وأبلّها
بالعرف غير محمد لا مثله حى من احياء البرية(٥) كلها

وجاء رسول الله عليه السلام رجل فقال :

— يا رسول الله إن النساء عيين وفتن .

كان موت جعفر فاجعة لبنى هاشم ، فما إن عاد من الحبشة وقبل أن يتمتعوا به بعث إلى مؤتة ليقتل فكادت عقول النسوة أن تطيش وكادوا أن ينطقوا كفرا ، فقال له عليه السلام :

— ارجع إليهن فأسكتهن .

فذهب ثم رجع فقال له مثل الأول وقال :

— نهيتهن فلم يطعننى .

— اذهب فأسكتهن فإن أبين فاحث فى أفواههن التراب .

وكانت عائشة تسمع ذلك الحوار فقالت فى نفسها :

— أبعدك الله ! فوالله ما تركت نفسك وما أنت بمطيع رسول الله ﷺ .

---

(١) الإنهال : الشرب الأول والعل الشرب الثانى . يريد الطعن بعد الطعن .

(٢) المحتد : الأصل .

(٣)أنداها : أكرمها .

(٤) يجتدى : يطلب جوده .

(٥)البرية : الناس

وعرفت أنه لا يقدر على أن يحثى[1] فى أفواههن التراب .

وراح عليه السلام يفكر فى جعفر وقد استبد به الحزن ، ثم قال :

ـــ اللهم قد قدم أحسن الثواب فأخلفه فى ذريته بأحسن ما خلفت أحدا من عبادك فى ذريته .

وأخذ رسول الله ـــ ﷺ ـــ عبد الله بن جعفر وإخوته فى بيته يدورون معه كلما صار فى بيت إحدى نسائه ، فلما انقضى ثلاثة رجعوا إلى بيتهم لتضمهم أسماء بنت عميس إلى قلبها المجروح .

وانصرف خالد بالناس وكان قطبة بن قتادة العذرى الذى كان على ميمنة المسلمين قد حمل على مالك بن زافلة فقتله ، فقال قطبة بن قتادة :

طعنت ابن زافلة بن الأرا ش برمح مضى فيه ثم انحطم

ضربت على جيده ضربة فمال كما مال غصن السلم[2]

وسقنا نساء بنى عمه غداة رقوقين سوق النعم[3]

ولما دنوا من حول المدينة تلقاهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ والمسلمون ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله ـــ ﷺ ـــ مقبل مع القوم على دابة فقال :

ـــ خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر .

فأتى بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه ، وكان رسول الله عليه السلام حزينا على قواده الذين أصيبوا . إنه فرح يوم خيبر بقدوم جعفر فرحا يعدل فرحه بفتح خيبر ، أما اليوم فقد فقد زيد بن حارثة مولاه الذى

---

(١) يحثى : يلقى .

(٢) السلم : نوع من الشجر

(٣) رقوقين : اسم موضع .

تبناه ذات يوم والذى شرفه الله بأن أنزل اسمه فى القرآن من فوق سبع سماوات . وفقد جعفر بن أبى طالب الذى كان أشبه الناس به خلقا وخلقا ، وفقد عبد الله بن رواحة أحد نقباء الخزرج ومن شهد معه المشاهد كلها ، ولم يكن وحده الذى ينز قلبه بالأسى فما أكثر المحزونين ! على بن أبى طالب واله حزين على أخيه جعفر . وأسامة بن زيد تكاد كبده أن تنفطر على أبيه ، والأنصار يحسون أسى على فقد ابن رواحة شاعرهم الذى كان من أوائل الذين بايعوا رسول الله — ﷺ — بيعة العقبة .

وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون :

— يا فرار ، فررتم فى سبيل الله !

فيقول رسول الله — ﷺ :

— ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وراح الشعراء يبكون أصحاب مؤتة من أصحاب رسول الله — ﷺ ، قال حسان بن ثابت :

تأوبنى ليل بيثرب أعسر ... وهم إذا ما نوم الناس مسهر

لذكرى حبيب هيجت لى عبرة ... سفوحا وأسباب البكاء التذكر

بلى ، إن فقدان الحبيب بلية ... وكم من كريم يبتلى ثم يصبر

رأيت خيار المؤمنين تواردوا ... شعوب وخلفا بعدهم يتأخر

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر

وزيد وعبد الله حين تتابعوا ... جميعا وأسباب المنية تخطر

غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمون النقيبة أزهر

أغر كضوء البدر من آل هاشم ... أبـىّ إذا سيم الظلامـة مجسر[1]
فطاعن حتى مال غير موسد ... بمعترك فيه قنا متكسر
فصار مع المستشهدين ثوابه ... جنان وملتف الحدائق أخضر
وكنا نرى فى جعفر من محمد ... وفاء وأمرا حازما حين يأمر
فما زال فى الإسلام من آل هاشم ... دعائم عز لا يزلن ومفخر
هم جبل الإسلام والناس حولهم ... رضام[2] إلى طود[3] يروق ويقهر
بهاليل[4] منهم جعفر وابن أمه ... على ومنهم أحمد المتخير
وحمزة والعباس منهم ومنهم ... عقيل وماء العود من حيث يعصر
بهم تفرج اللأواء[5] فى كل مأزق ... غماس[6] إذا ما ضاق بالناس مصدر

وقعد أناس من الجيش فى بيوتهم فما يخرجون ، وقد فطنت أم سلمة أم المؤمنين إلى غياب سلمة بن هشام بن العاص عن مسجد الرسول فقالت لامرأته :

— ما لى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله — ﷺ — ومع المسلمين ؟

قالت والأسى فى نبرات صوتها :

— ما يستطيع أن يخرج ، كلما خرج صاح به الناس : يا فرار فررتم

(١) المجسر : المقدام الجسور .
(٢) الرضام : الحجارة يتراكم بعضها فوق بعض .
(٣) الطود : الجبل .
(٤) البهاليل : جمع مفرده بهلول وهو السيد العظيم .
(٥) اللأواء : الشدة .
(٦) غماس : المظلم . يزيد ظلامه من كثرة النقع المثار وقت الحر .

فى سبيل الله ! حتى قعد فى بيته فما يخرج .

وراح قيس بن المسحر اليعمرى يعتذر مما صنع يوم مؤتة وصنع الناس :

فوالله لا تنفك نفسى تلومنى ... على موقفى والخيل قابعة قبل
وقفت بها لا مستجيرا فنافذا ... ولا مانعا من كان حم له القتل
على أننى آسيت نفى بخالد ... ألا خالد فى القوم ليس له مثل
وجاشت إلى النفس من نحو جعفر ... بمؤتة إذ لا ينفع النابل النَّبل
وضم إلينا حجزتيهم[1] كليهما ... مهاجرة لا مشركون ولا عزل

(٣٢)

كان النبى — ﷺ — إذا خطب قام فأطال القيام فكان يشق عليه قيامه، فأتى بجذع نخلة فحفر له وأقيم إلى جنبه قائما للنبى — ﷺ — ، فكان النبى عليه السلام إذا خطب فطال القيام عليه استند فاتكأ عليه ، وكان تميم الدارى يرى رسول الله — ﷺ — يشتد عليه وجع كان يجده فى فخذيه فقال له تميم :

— يا رسول الله ألا أصنع لك منبرا تقوم عليه فإنه أهون عليك إذا قمت وإذا قعدت ؟

— وكيف المنبر ؟

— أنا يا رسول الله أصنعه لك .

فخرج إلى الغابة فقطع منها خشبات من أثل[2] فعمل له درجتين غير

---

(١) حجزة الإزار .

(٢) الأثل : شجر عظيم لا ثمر له .

المقعد ، فتحول رسول الله ﷺ — عن الخشبة التى كان يستند إليها إذا خطب .

وجاء الناس إلى المسجد ينظرون إلى المنبر ويصلون خلف النبى عليه السلام ، ودخل ثابت بن قيس المسجد وأراد أن يجلس فلم يفسح له رجل ممن كانوا ينتظرون الصلاة . فقال له فى زراية :

— يا بن فلانة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— من الذاكر فلانة ؟

فقام ثابت فقال :

— أنا يا رسول الله .

— انظر فى وجه القوم .

فنظر فقال :

— ما رأيت يا ثابت ؟

رأيت أبيض وأحمر وأسود .

— فإنك لا تفضلهم إلا فى الدين والتقوى .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[1] .

وكان ثابت بن قيس فى أذنه وقر ، وكان جهورى الصوت ، وكان إذا كلم إنسانا جهر صوته ، فربما كان يكلم رسول الله — ﷺ —

---

(١) الحجرات ١٣ .

فيتأذى بصوته ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾[1] .

فآلى أبو بكر على نفسه أن لا يكلم رسول الله — ﷺ — إلا كأخى السرار .

وقد وفد بنى تميم على النبى — ﷺ — فدخلوا المسجد ، فنادوا النبى — ﷺ — من وراء الحجرات :

— يا محمد .. يا محمد .. يا محمد اخرج إلينا ، فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين .

فسمعهم النبى — ﷺ . فخرج عليهم وهو يقول :

— إنما ذلكم الله الذى مدحه زين وذمه شين .

وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم أول من وأد فى العرب فقالوا :

— نحن ناس من بنى تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك .

— ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا .

فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبانهم :

— قم فاذكر فضلك وفضل قومك .

فقام فقال :

---

(١) الحجرات ٢ — ٣ .

ـــ الحمد لله الذى جعلنا خير خلقه وآتانا أموالا نفعل فيها ما نشاء ، فنحن من خير أهل الأرض ومن أكثرهم عدة ومالا وسلاحا ، فمن أنكر علينا قولنا فليأت بقول هو أحسن من قولنا وفعال هى خير من فعالنا .

كان بنو تميم على دين المجوس وكانوا على صلات طيبة بدولة الفرس فظنوا أنهم أرقى من سائر العرب ، وكانوا يعتقدون أنهم خير أهل الأرض فقال رسول الله ــ ﷺ ــ لثابت بن قيس :

ـــ قم فأجب .

فقام فقال :

ـــ الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دعا المهاجرين والأنصار من بنى عمه أحسن الناس وجوها وأعظمهم أحلاما[1] فأجابوا ، فالحمد لله الذى جعلناه أنصاره ووزراء رسوله وعزا لدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها منع منا نفسه وماله ، ومن أباها قتلناه وكان رغمه من الله تعالى علينا هينا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات .

فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبانهم :

ـــ قم يا فلان فقل أبياتا تذكر فيها فضلك وفضل قومك ، فقام الشاب فقال :

نحن الكرام فلا حى يفاخرنا ... فينا الرءوس وفينا يقسم الربع[2]

---

(١) أحلاما : عقولا .

(٢) الربع : ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه .

ونطعم الناس عند القحط كلهم
من السديف[1] إذا لم يؤنس القزع[2]
إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد
إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى حسان بن ثابت ، فانطلق إليه الرسول فقال :

— وما يريد منى وقد كنت عنده ؟

— جاءت بني تميم بشاعرهم وخطيبهم ، فأمر رسول الله — ﷺ — ثابت بن قيس فأجابهم وتكلم شاعرهم فأرسل إليك تجيبه .

فجاء حسان فأمره رسول الله — ﷺ — أن يجيبه فقال حسان :

نصرنا رسول الله والدين عنوة
على رغم سار من معد وحاضر
ألسنا نخوض الموت فى حومة الوغى
إذا طاب ورد الموت بين المعاسكر
ونضرب هام الدارعين وننتمى
إلى حسب من جرم غسان قاهر
فولا حياء الله قلنا تكرما
على الناس بالحقين هل من منافر
فأحياؤنا من خير من وطىء الحصى
وأمواتنا من خير أهل المقابر

---

(١) السديف : النعاج الحلوب .

(٢) القزع : صغار الإبل ، والسحاب .

فقام الأقرع بن حابس فقال :

— إنى والله لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء وقد قلت شعرا فاسمعه :

— هات .

فقال :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا ... إذا فاخرونا عند ذكر المكارم

وإنا رءوس الناس من كل معشر ... وأن ليس فى أرض الحجاز كوارم

وإن لنا المرباع فى كل غارة ... تكون بنجد أو بأرض التهائم[1]

فقال رسول الله — ﷺ — :

— قم يا حسان فأجب .

فقال :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم
يعود وبالا عند ذكر المكارم

هبلتم[2] علينا تفخرون وأنتم
لنا خول[3] من بين ظئر[4] وخادم

وأفضل ما نلتم من المجد والعلى
ردافتنا من بعد ذكر الأكارم

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم
وأموالكم أن تقسموا فى المقاسم

---

(١) النجد : المرتفع من الأرض ، والتهائم المنخفضات .

(٢) هبلتم : هجمتم .

(٣) خول : الخدم .

(٤) الظئر : المرأة تحضن ولد غيرها والرجل أيضا .

فــلا تجعلــوا لله نــدا وأسلمــوا
ولا تفخــروا عنــد النبــى بــدارم
وإلا ورب البـيت مــالت أكفنــا
على هامكــم[١] بالمرهفــات[٢] الصوارم

وأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفـور رحيم ﴾[٣] .

فقام الأقرع بن حابس فقال :

ـــ إن محمدا المولى ، إنه والله ما أدرى ما هذا الأمر ، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولا ، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر .

كان الأقرع بن حابس يصغى إلى القرآن وكان يرنو إلى نور الإسلام فى إعجاب ، ولولا الكبر الذى كان فى قلبه لأسلم وكان من السابقين فى الإسلام ، فلما أراد الله له الهداية جاء إلى رسول الله عليه السلام ، وهو يتظاهر بأنه ما جاء إلا ليفاخره وإن كانت أنوار اليقين قد أضاءت فؤاده :

ودنا من النبى ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

فقال النبى ـــ ﷺ :

ـــ ما ضرك ما كان قبل هذا .

ثم أعطاهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ وكساهم وقد عادوا إلى أهليهم بوجوه تتألق بالأنوار .

---

(١) الهام : الرءوس .
(٢) المرهفات : السيوف .
(٣) الحجرات : ٤ ـــ ٥ .

راح الروم يشجعون القبائل العربية القريبة من الشام على غـزو المسلمين بعد ما رأوا صلابة المسلمين فى مؤتة ، وكان هدف الروم إضعاف القوة الجديدة التى بدأت تظهر فى شبه جزيرة العرب وتزحف إلى ناحية الشام وتهدد حدود الدولة الرومانية التى أنهكتها حروبها مع الفرس ، وقد أخذ الروم يغرون قضاعة على غزو المدينة مستهدفين توهين العرب جميعا مشركين ومسلمين حتى ينعموا براحة تمكنهم من التقاط أنفاسهم والخروج من الأزمة المالية الطاحنة التى جلبتها الحروب المستمرة بين الإمبراطوريتين العظيمتين المتنافستين على سيـادة العالم .

وبلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن جمعا من قضاعة قد تجمعوا يريدون المدينة ، فدعا رسول الله ـــ ﷺ ـــ عمرو بن العاص وذلك بعد إسلامه بسنة وعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء ، وبعثه فى ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا وأمره أن يستعين بمن يمر به من بلىّ وعذرة وبلقين ، فسار الليل وكمن النهار . فلما بلغ بلىّ قوبل بالترحاب فجدته لأبيه العاص بن وائل كانت بلوية ، وقد سرهم أن رسول الله عليه السلام قد أمر ابن أختهم فأمدوه برجال . وصدقت فراسة رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ لما أراد أن يتألفهم بعمرو .

وانطلق عمرو يسير الليل ويكمن النهار حتى خلف وادى القرى

وراءه وأشرف على ذات السلاسل وبينها وبين المدينة عشرة أيام . فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيرا فلم يشأ أن يغامر وأن يدفعه الحماس إلى أن يخوض معركة قد تكون عاقبتها وخيمة على المسلمين ، فبعث رافع بن كعب الجهنى إلى رسول الله — ﷺ — يلتمس منه المدد ، وبقى عمرو بن العاص يصلى بأصحابه ينتظر مدد الرسول عليه السلام ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى مائتين وعقد له لواء وبعث معه سراة[1] هاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعا ولا يختلفا ، فلحق بعمرو . وأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو :

— إنما قدمت على مدد وأنا الأمير .

وعند ذلك قال جمع من المهاجرين الذين مع أبى عبيدة لعمرو :

— أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه .

فقال عمرو :

— أنتم مدد لنا .

فلما رأى أبو عبيدة الإختلاف قال :

— لتعلم يا عمرو أن آخر شىء عهد إلىّ رسول الله — ﷺ — أن قال : إن قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا ، وإنك والله إن عصيتنى لأطيعنك .

— فإنى الأمير عليك .

— كان أبو عبيدة حسن الخلق لين العريكة[2] فقال :

---

(١) السراه : العظماء .

(٢) العريكة : النفس ، ولين العريكة : سلس الخلق .

— دونك .

وصلى عمرو بن العاص بالناس وصلى خلفه أبو عبيدة بن الجراح وأبو بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب وسراة القوم من المهاجرين والأنصار ، فقد علمهم رسول الله — ﷺ — الطاعة ولو أمِّر عليهم عبد حبشى .

كان البرد شديدا ، ولما جن الليل اشتدت برودة الجو فأراد الناس أن يوقدوا نارا ليصطلوا عليها من البرد فمنعهم عمرو وقال :

— كل من أوقد نارا لأقذفنه فيها .

فشق عليهم ذلك لما فيه من شدة البرد ، فكلمه بعض سراة المهاجرين فى ذلك فغالظه عمرو فى القول وقال له :

— قد أمرت أن تسمع لى وتطيع .

— نعم .

— فافعل .

ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب غضب وهم أن يأتيه فمنعه أبو بكر وقال :

— إن رسول الله لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب .

وجلس الناس فى المعسكر يرتجفون من البرد ، وشرد عمرو بن العاص يفكر فإذا به يرى رسول الله عليه السلام يطلبه ، فلما وافى رسول الله عليه السلام أمره أن يأخذ ثيابه وسلاحه ، ودار فى نفسه الحوار الذى كان بينه وبين النبى صلوات الله وسلامه عليه .

— يا عمرو إنى أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك .

— إنى لم أسلم رغبة فى المال .

ـــ نعم المال الصالح للرجل الصالح .

وكانت قضاعة قد جمعت جموعا هائلة لتدهم أطراف المدينة ، وتأهبت للخروج دون أن تشعر أن على مقربة منهم قوة من المسلمين ترقب فرصتها لتنقض عليهم . وفى عماية الصبح أمر عمرو بن العاص بالهجوم فانقض المسلمون على أعدائهم انقضاض النسور ، وارتفع هتافهم يجلجل فى المكان ويخلع القلوب من الصدور .

ـــ أمت . أمت يا منصور .

ومضت الرماح إلى الأفئدة ، وانهالت ضربات السيوف على الرقاب ، وارتفع صهيل الخيول حتى كاد يطغى على أنين الرجال ، وثار النقع فاختلط بأنفاس الناس ، وحمى وطيس[1] القتال ، ومشى الرجال إلى الرجال وقد كشروا عن الأنياب ، وتألقت السيوف القواطع وانعكست أشعة الشمس على الدروع والخوذات والصحائف والسنان فبدت كأنها شموس لا تعرف الاستقرار ، وشجرت الرماح فدخل بعضها على بعض ، وخضبت الرمال بالدماء وتبعثرت الأجساد هنا وهناك ، وحامت طيور السماء حول حومة الموت ترقب انجلاء المعركة الرهيبة التى لا هوادة فيها لتنقض على الأجداث قبل أن تأتى السباع .

وراح أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وعمرو وصناديد[2] المسلمين يضربون ضربا رصينا كحر النار مشتعل ، واستمروا يطلبون عدوهم لله

(١) الوطيس : التنور ، وحمى الوطيس : كناية عن شدة الحرب .

(٢) الصناديد : جمع مفرده صنديد وهو الشجاع فى الحرب .

وينتظرون نصر الله يمشون كلهم وقد وطنوا أنفسهم على الموت أو النصر تعوج أسيافهم فى الضرب أحيانا وتعتدل . وراع قضاعة سرعة الخيول واستبسال القوم والزحف القاتل الذى دهمهم والقتل الذى استشرى فيهم فتفرقوا وولوا الأدبار ، وأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهم عمرو بن العاص وهم كارهون .

وجاء الليل وهبت الريح باردة فأحس المسلمون كأن دماءهم ستتجمد فى عروقهم ، وأرادوا أن يوقدوا نارا ليصطلوا من البرد فمنعهم وهم يعجبون فقد انتهت المعركة . ولكن القائد قد أمرهم فحق عليهم الطاعة وإن شق عليهم ذلك من شدة البرد .

واحتلم عمرو وكانت تلك الليلة شديدة البرد جدا فقال لأصحابه :

— ما ترون قد والله احتلمت فإن اغتسلت مت .

فدعا بماء فغسل فرجه وتوضأ وتيمم ثم قام وصلى بالناس ولم يعترض كبار الصحابة ، وصلوا خلفه ، ولم يختلفوا كما اختلف اليهود فقد علمهم — صلوات الله وسلامه عليه — أن الدين يسر وأن التنطع فى الدين مفسدة ، ثم بعث عمرو عوف بن مالك مبشرا للنبى — ﷺ — بقدومهم وسلامتهم ، فجاءه وهو يصلى فى بيته فقال :

— السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . عوف بن مالك ؟

— نعم . بأبى أنت وأمى يا رسول الله .

— أخبرنى .

فأخبره بما كان من مسيرهم وما كان بين أبى عبيدة بن الجراح وعمرو ابن العاص ومطاوعة أبى عبيدة لعمرو . فقال رسول الله — ﷺ — :

— يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح .

وأخبره بمنع عمرو المسلمين من اتباع العدو ، ومن ايقاد النار ، ومن صلاته بأصحابه وهو جنب .

وقدم الجيش المظفر فخرج الناس لاستقبال الأحبة العائدين بالنصر ، وخرج رسول الله ﷺ — لاستقبال وزيريه الصديق والفاروق وتهنئتهما بسلامة العودة ، وكان لقاء وكان عناق وكانت دموع ، ولما استقر بهم المقام كلم عليه السلام عمرو فيما فعل فقال :

— كرهت أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قلتهم ، وكرهت أن يتعقبوهم فيكون لهم مدد فيعطفون عليهم .

فحمد رسول الله — ﷺ — أمره ، وسأله عن صلاته قال :

— يا عمرو أوصليت بأصحابك وأنت جنب ؟

— والذى بعثك بالحق إنى لو اغتسلت لمت ، لم أجد بردا قط مثله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾[١] .

فضحك — ﷺ ، وكان على الرغم من أحزانه الدائمة يضحك إذا ما سمع أو رأى ما يوجب الضحك ، وكان ضحكه عليه السلام تبسما ، فقد خرج نعيمان وهو من أهل بدر مع أبى بكر الصديق إلى بصرى وكان فى الحملة سويبط وهو بدرى أيضا ، وكان سويبط على الزاد فجاءه نعيمان فقال له :

— أطعمنى .

— لا حتى يأتى أبو بكر .

---

(١) البقرة ١٩٥ .

— والله لأغيظنك .

وجاء إلى الناس قد جلبوا بعيرا وأبقارا فقال :

— ابتاعوا منى غلاما عربيا فارها إلا أنه دعّاء له لسان ، لعله يقول إنه حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لا تفسدوا علىّ غلامى .

— بل نبتاعه منك بعشر قلائص(١) .

فأقبل بها يسرقها وأقبل بالقوم حتى عقلها ثم قال :

— دونكم ! هذا هو .

وذهبوا إلى سويبط فقالوا :

— قد اشتريناك .

— هو كاذب ، أنا رجل حر .

— قد أخبرنا خبرك .

ووضعوا فى عنقه حبلا وذهبوا به ، فجاء أبو بكر فأخبر بذلك فذهب هو وأصحابه فردوا القلائص على أربابها وأخذوه ، وأخبر النبى — ﷺ — بالقصة فضحك منها حولا .

وأهدى نعيمان إلى رسول الله — ﷺ — جرة عسل اشتراها من أعرابى ، وأتى بالأعرابى إلى باب النبى — ﷺ — نادى الأعرابى :

— ألا أعطى ثمن عسلى ؟

فقال النبى — ﷺ — :

— إحدى هنات نعيمان .

---

(١) القلوص : من الإبل : الشابة .

وجيء بنعيمان فسأله عليه السلام :

— لم فعلت هذا ؟

— أردت برك يا رسول الله و لم يكن معى شيء .

فتبسم النبى — ﷺ — وأعطى الأعرابى حقه .

كان عليه السلام يمازح الصغير ويلاعب الوليد ويمازح العجوز ولا يقول إلا حقا ، ويقول : « روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلت عميت » . وكان ضحوك السن بسام الثنيات . وقيل : « المزاح هُجنة » فقيل : « بل سنَّة لقوله عليه الصلاة والسلام : إنى لأمزح ولا أقول إلا الحق » .

(٣٤)

أظهر حى جهينة العداوة للمسلمين فبعث رسول الله — ﷺ — أبا عبيدة بن الجراح فى شهر رجب سنة ثمان من الهجرة فى ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار وفيهم عمر بن الخطاب إلى ذلك الحى بالقَبليَّة مما يلى ساحل البحر ، وبينها وبين المدينة خمس ليال ، وزودهم عليه السلام جرابا من تمر فجعل أبو عبيدة يقوتهم إياه .

ومرت أيام وليال وهم فى طريقهم إلى ساحل البحر الأحمر وقد كاد التمر ينفد ، فراحوا يعللون النفس أنهم سيدهمون ذلك الحى ويغنمون منه ما يطعمون ، ولكنهم لم يجدوا أحدا و لم يلقوا كيدا فراح أبو عبيدة يعد لهم التمر عدا حتى كان يعطى الواحد تمرة كل يوم .

وبلغوا ساحل البحر واستقروا هناك يرقبون فرصتهم ، وراح

أبو عبيدة يعطى عمر والزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والذين معه تمرة ، فنقصت تمرة عن رجل فوجدوا فقدها ذلك اليوم .

وراح الزبير بن العوام يمتص التمرة كما يمص الصبى ثدى أمه ثم يشرب عليها من الماء فتكفيه يومه إلى الليل ، وأخذ الرجال يصرون التمر بعد أن مصوه فى ثيابهم فى حرص شديد فلم يكن فى المكان غير ماء البحر والسماء والرمال والخبط (ورق شجر السمر) .

وتقضت أيام ونفد التمر فلم يكن أمامهم إلا الخبط فجعلوا يبلونه بالماء ويأكلونه حتى تقرحت أشداقهم ، وتمدد قيس بن سعد بن عبادة فإذا به يذكر دارهم دار الجود ، إنه يرى بعين خياله رجلا واقفا على أطم ينادى :

— من يريد الشحم واللحم فعليه بدار أبى سعد دليم .

ورأى أصحاب الصفة إذا أمسوا انطلق الرجل بالواحد والرجل بالاثنين والرجل بالجماعة وأما أبوه سعد فينطلق بالثمانين . ورأى رسول الله — ﷺ — يزورهم فى منزلهم فيقول :

— السلام عليكم ورحمة الله .

ثم قال :

— اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة .

إنه وهو من بيت جود لا يستطيع أن يرى رفاقه يموتون من الجوع وهو ينظر ، وقد ثار الدم فى عروقه لما صك أذنيه قول قائل منهم :

— والله لو لقينا عدوا ما منا حركة إليه .

فلما رأى رجالا من أهل الساحل قام فقال :

— من يشترى منا تمرا أوفيه له فى المدينة بجزر يوفيها إلىّ ههنا ؟

فقال له رجل من أهل الساحل :

ـــ أنا أفعل ، ولكن والله ما أعرفك فمن أنت ؟

ـــ أنا قيس بن سعد بن عبادة .

ـــ ما أعرفنى بسعد ، إن بينى وبين سعد خلة سيد أهل يثرب .

فاشترى خمس جزائر كل جزور بوسق من تمر ، فقال الرجل :

ـــ أشهد لى .

ـــ أشهد من تحب .

فأشهد نفرا من المهاجرين والأنصار ، وامتنع عمر بن الخطاب من أن يشهد وقال :

ـــ هذا يدان ولا مال له ، إنما المال لأبيه .

فقال الرجل :

ـــ والله ما كان سعد ليحنى بابنه .

كان الرجل واثقا من أن سعد بن عبادة سوف يوفى عن ابنه ما التزمه ، فنشب بين قيس وعمر كلام حتى أغلظ قيس الكلام . وأخذ قيس الجزر فنحر منها واحدة فالتف الرجال يأكلون وقد تهللت أساريرهم فقد انقضت عليهم أيام كاد الجوع أن يخرط فيها أحشاءهم .

ونحر سعد من الجزر ثلاثا فى ثلاثة أيام ، وأراد أن ينحر لهم فى اليوم الرابع فنهاه أبو عبيدة وقال :

ـــ عزمت عليك ألا تنحر ، تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك ؟

فقال قيس فى دهش :

ـــ أترى أبا ثابت يقضى ديون الناس ويطعمهم فى المجاعة ولا يقضى دينا استدنته لقوم مجاهدين فى سبيل الله !

وساروا على ساحل البحر وإذا بشيء كهيئة الكثيب الضخم ، فهرعوا إليه ، فإذا به دابة من البحر فراح أبو عبيدة يفحص عنها فقال :

— ميتة .

— اضطررتم فكلوا .

فأقاموا عليها وهم ثلاثمائة ، ودخل جابر بن عبد الله وأربعة من رفاقه عينها فما رآهم أحد وراحوا يغترفون منها الدهن بالقلال ، ثم انطلقوا عائدين إلى المدينة ، فلما قدم قيس قال له سعد بن عبادة :

— ما صنعت فى مجاعة القوم ؟

— نحرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نحرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نحرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نهيت .

— ومن نهاك ؟

— أميرى أبو عبيدة .

فقال أبو ثابت فى غضب :

— ولم ؟

— زعم أنه لا مال لى إنما المال لأبيك ، فقلت له أبى يقضى عن الأباعد ويحمل الكل ويطعم فى المجاعة ولا يصنع هذا لى ؟ فلان لموافقتى فأبى عليه عمر بن الخطاب إلا التصميم على المنع .

فقال سعد لولده قيس :

ــ ذاك أربع حوائط (بساتين) أدناها ما يتحصل منه خمسون وسقا .

ووفى قيس الرجل صاحب الجزر وأعطاه ما يركبه وكساه .

وراح الناس يتحدثون عن الدابة الهائلة التى ألقى بها البحر وقالوا إن أبا عبادة نصب لهم ضلعا من أضلاعها ومر تحته قيس بن سعد بن عبادة وكان أطول رجل فى القوم راكبا على أطول بعير لم يطأطىء رأسه . وقالوا إن أبا عبيدة آخذ منهم ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وقت عينها فأكلوا منها أياما .

وبلغ النبى ــ ﷺ ــ ما فعل قيس فقال :

ــ إنه فى بيت جود ، إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت .

وجاء سعد بن عبادة إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال :

ــ من عذيرى من ابن الخطاب يبخل على ابنى !

وأخبروا رسول الله ــ ﷺ ــ خير الدابة التى ألقى بها البحر وسألوه ما صنعوا فى ذلك من أكلهم إياه ، فقال عليه السلام :

ــ رزق رزقكم الله أياه .

(٣٥)

كانت غطفان مستمرة فى عداوة المسلمين وما كانت تترك فرصة تستطيع أن تنال فيها منهم إلا انتهزتها . وقد بلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن رجلا يقال له رفاعة بن قيس فى جمع عظيم نزل بالغابة يريد حرب رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ أبا قتادة أن يتجهز للخروج ليفجأ ذلك الجمع قبل أن يتحركوا إلى المدينة .

وكان عبد الله بن أبى حدرد السلمى تزوج امرأة من قومه ، فجاء رسول الله ﷺ ـــ يستعينه على ذلك فقال عليه السلام :

ـــ كم أصدقت ؟

ـــ مائتى درهم .

ـــ سبحان الله لو كنتم تأخذون الدراهم بطن واديكم هذا ما زدتم . والله ما عندى ما أعينك ولكن قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة فى أربعة عشر رجلا فى سرية فهل لك أن تخرج فيها فإنى أرجو أن يغنمك الله مهر امرأتك .

ـــ نعم .

وبعث عليه السلام أبا قتادة فى خمسة عشر رجلا إلى غطفان وخرج معه عبد الله بن أبى حدرد السلمى ، ودفع له ولرجلين من المسلمين ناقة مسنة وقال :

ـــ تبلغوا عليها واعتقبوها .

فركبها أحدهم فوالله ما قامت به ضعفا حتى ضربت ، وخرجت سرية أبى قتادة ومعهم سلاحهم النبل والسيوف يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى جاءوا القوم النزول على الماء ، فلما ذهبت فحمة العشاء خطبهم أبو قتادة وأوصاهم بتقوى الله وألف بين كل رجلين وقال :

— لا يفارق كل رجل زميله حتى يقفل (يرجع) ، ولا يجيء إلى الرجل فأسأله عن صاحبه فيقول لى لا علم لى به . وإذا كبرت فكبروا وإذا حملت فاحملوا ولا تمعنوا فى الطلب .

وكان عبد الله بن أبى حدرد فى ناحية وصاحبه فى ناحية ينتظران غرة القوم إلا ورفاعة بن قيس الجمع للقوم خرج فى طلب راع لهم فأبطأ عليهم وتخوفوا عليه ، فقال له نفر من قومه :

— نحن نكفيك ولا تذهب أنت .

فقال فى استخفاف :

— والله لا يذهب إلا أنا .

— فنحن معك .

— والله لا يتبعنى أحد منكم .

فخرج حتى مر بأبى حدرد ، فلما أمكنه نفحه بسهم فوضعه فى فؤاده فما تكلم ، فوثب عليه واحترز رأسه .

وأحاط المسلمون بالقوم فجرد أبو قتادة سيفه وكبر ، وجرد المسلمون سيوفهم وكبروا معه .

وقاتل رجال من القوم وإذا فيهم رجل طويل فأقبل على أبى حدرد فقال له متهكما به :

— يا مسلم هلم إلى الجنة .

فمال إليه أبو حدرد فذهب أمامه ، وصار يقبل عليه بوجهه مرة ويدبر عنه بوجهه مرة أخرى فراح يتبعه ، فقال له صاحبه :

— لا تتبعه فقد نهانا أميرنا أن نمعن فى الطلب .

وكان الرجل الطويل يحاول أن يستدرج أبا حدرد بعيدا ، فلما سمع تحذير صاحبه قال فى حنق :

— إن صاحبكم لذو مكيدة ، وإن أمره هو الأمر .

وأدركه أبو حدرد فرماه بسهم فقتله وأخذ سيفه ، وكان المسلمون يخوضون غمار المعركة فقتلوا من أشراف لغطفان واستاقوا الإبل والغنم . فكانت الإبل مائة بعير والغنم ألفى شاة وسبوا سبايا كثيرة .

وعاد أبو حدرد إلى صاحبه فأخبره صاحبه أنهم جمعوا الغنائم وأن أبا قتادة تغيظ عليهما . فجاء أبا قتادة فلامه فأخبره الخبر ، ثم قسمت الغنائم فأصاب كل رجل بعد إخراج الخمس اثنى عشرا بعيرا وعدل البعير بعشرين من الغنم ، ووقع فى سهم أبى قتادة جارية حسناء وضيئة تأخذ بالألباب .

وساقوا النعم وحملوا النساء وجفون السيوف معلقة بالأقتاب ، ثم لما أصبحوا رأى أبو حدرد فى السبى امرأة كأنها ظبى تكثر الالتفات خلفها وتبكى ، فقال لها :

— أى شىء تنظرين ؟

— والله أنظر إلى رجل لئن كان حيا ليستنقذنا منكم .

فوقع فى نفس أبى حدرد أنه الذى قتله فقال لها :

— والله لقد قتلته وهذا والله سيفه معلق بالقتب .

فقالت والدموع فى عينيها كأنما لؤلؤتان :

ـــ فأين غمده ؟

ـــ هذا غمد سيفه .

فلما رأته بكت أحر بكاء .

وعاد أبو قتادة وفى ركابه الحسناء الوضيئة . ودفع إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ خمس الغنيمة ليوزعه على الفقراء والمساكين ويفك به رقاب العبيد ويؤلف به قلوب الناس ويسد منه دين المدينين .

وجاء رجل إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ يا رسول الله إن أبا قتادة قد أصاب جارية وضيئة وقد كنت وعدتنى جارية من أول فىء يفىء الله به عليك .

فأرسل رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى أبى قتادة قال :

ـــ هب لى الجارية .

فوهبها له . ثم وهبها ـــ ﷺ ـــ لذلك الرجل الذى وعده بجارية من أول فىء يفىء الله به .

(٣٦)

لما كان صلح الحديبية بين رسول الله ـــ ﷺ ـــ وبين قريش كان فيه أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد ـــ ﷺ ـــ وعهده فليدخل ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . فدخلت بنو بكر فى عهد قريش ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله ـــ ﷺ ـــ .

وكان بين بنى بكر وخزاعة دماء ، وحجز الإسسلام بينهما لتشاغل الناس به وهم على ما هم عليه من العداوة . وكانت خزاعة حلفاء

عبد المطلب وكان هواهم مع بنى هاشم . فإنه لما مات المطلب وثب نوفل بن عبد مناف على ساحات وأفنية كانت لعبد المطلب واغتصبه إياها ، فاضطرب عبد المطلب لذلك واستنهض قومه فلم ينهض معه أحد منهم وقالوا له :

— لا ندخل بينك وبين عمك .

وكتب إلى أخواله بنى النجار فجاء منهم سبعون راكبا فأتوا نوفلا وقالوا له :

— ورب البنية لتردن على ابن أختنا ما أخذت وإلا ملأنا منك السيف .

فرده ثم حالف عبد المطلب خزاعة بعد أن حالف نوفل بن عبد مناف بنى أخيه عبد شمس . ومنذ ذلك الوقت وخزاعة تميل إلى بنى هاشم وكان هوى خزاعة مسلمهم وكافرهم مع محمد — ﷺ .

وقد قرأ على رسول الله — ﷺ — أبىّ بن كعب كتاب جده عبد المطلب لخزاعة بالحديبية وهو : « باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب ابن هاشم لخزاعة ، إذا قدم عليه سرواتهم[1] وأهل الرأى منهم غائبهم يقر بما قاضى عليه شاهدهم ، أن بيننا وبينكم عهد الله وميثاقه وما لا ينسى أبدا ، اليد واحدة والنصر واحد ما أشرق ثبير[2] وثبت حراء مكانه ، وما بل بحر صوفة » .

فقال رسول الله — ﷺ :

— ما أعرفنى بحقكم وأنتم على ما أسلفتم عليه من الحلف ؟

---

(١) سرواتهم : عظماؤهم .

(٢) ثبير وحراء : اسما جبلين .

فلما كانت الهدنة التى وقعت فى صلح الحديبية اغتنمها بنو بكر فراح شخص منهم يهجو رسول الله — ﷺ — وصار يتغنى به ، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه فثار الشر بين الحيين مما كان بينهم من عداوة . فطلب بنو بكر من أشراف قريش أن يعينوهم بالسلاح والرجال على خزاعة فأمدوهم بذلك ، فجاءوا خزاعة ليلا بغتة وهم آمنون على ماء لهم يقال له الوثير فقتلوا منهم عشرين ، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفيا منهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبى جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو ، ولا زالوا بهم إلى أن أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعى بمكة و لم يشاوروا فى ذلك أبا سفيان ، وظنوا أنهم لم يعرفوا وأن هذا لا يبلغ رسول الله — ﷺ .

فلما ناصرت قريش بنى بكر على خزاعة ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله — ﷺ — من العهد والميثاق ندموا . وجاء الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل القوم فقال :

— هذا أمر لم أشهده و لم أغب عنه وإنه لشر ، والله ليغزونا محمد ، ولقد حدثتنى هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة .

فكره القوم ذلك وخرج عمرو بن سالم الخزاعى سيد خزاعة فى أربعين راكبا من خزاعة فيهم بديل بن ورقاء الخزاعى قاصدين المدينة .

ودخل رسول الله — ﷺ — صبيحة الوقعة على عائشة أم المؤمنين وقال لها :

— حدث فى خزاعة حدث .

— يا رسول الله أترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذى بينك

وبينهم ؟

— ينقضون العهد لأمر يريده الله .

— خير .

— خير .

وبات رسول الله — ﷺ — عند ميمونة فقام ليتوضأ للصلاة فسمعته يقول :

— لبيك ! لبيك ! لبيك ! نصرت نصرت نصرت .

فلما خرج قالت :

— يا رسول الله سمعتك تقول لبيك لبيك لبيك! نصرت نصرت نصرت ! كأنك تكلم إنسانا فهل كان معك أحد ؟ .

— هذا راجز بنى كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل .

ومضت ثلاثة أيام وصلى رسول الله — ﷺ — الصبح وجلس فى المسجد بين الناس ، فإذا بوفد خزاعة قد قدم إلى المدينة ودخل المسجد ووقف بديل بن ورقاء وقال :

يا رب إنى ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا [1]

إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيتونا بالوتير[2] هجدا ... وقتلونا ركعا وسجدا

فقال النبى — ﷺ — :

— نصرت يا عمرو بن سالم .

---

(١) الأتلد : التليد : القديم ، والأتلد الأكثر قدما وعراقة .

(٢) الوتير : موضع بالقرب من عرفة .

ودمعت عينا رسول الله — ﷺ — وقال :

— لا ينصرنى الله إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر به نفسى .

ولما ندمت قريش على نقضهم العهد جاءوا إلى أبى سفيان فقالوا له :

— ما لها إلا سواك ، اخرج إلى محمد فكلمه فى تجديد العهد وزيادة المدة .

فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين ، فأسرع السير لأنه يرى أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله — ﷺ .

وقال رسول الله — ﷺ — قبل قدوم أبى سفيان :

— كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة وهو راجع بسخطه .

ثم رجع أولئك الركب من خزاعة وقد قرت أعينهم بما سمعوا من رسول الله — ﷺ — بعد أن قال لهم عليه السلام :

— ارجعوا وتفرقوا فى الأودية .

فرجعوا وتفرقوا ، فذهبت فرقة إلى الساحل وفيهم عمرو بن سالم ، وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لزمت الطريق . وإن أبا سفيان لقى بديل بن ورقاء بعسفان فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل جاء إلى رسول الله — ﷺ — المدينة فقال للقوم :

— أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها ؟

— لا علم لنا بها . إنما كنا فى الساحل نصلح بين الناس فى قتل .

ثم صبر أبو سفيان حتى ذهب أولئك القوم فالتفت إلى مولاه فقال :

ـــ لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى .

فجاء منزلهم ففتت أبعار أباعرهم فوجد فيها النوى . قال أبو سفيان :

ـــ أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا .

وانطلق أبو سفيان ومولاه ، وأبو سفيان يرجو أن ينجح فى سفارته فيشد العقد ويزيد فى المدة .

التذييل

ارتطمت البشرية بمشكلة الجنس منذ بدء الخليقة ، فعندما خلق الله أول زوجين ذرية كانت المرأة سبب أول جريمة وقعت على الأرض ، فقد قتل رجل أخاه لأن زوجة أخيه كانت أكثر حسنا من زوجته . وبعد أن كان التنظيم الأسرى معروفا منذ الأزل ، ولما طال على الناس الأمد أطلقت للغرائز حريتها فكان البغاء وكان الانحلال وكانت الحرية الجنسية المدمرة وكان انعدام التجانس فى نسيج الكون ، فبعث الله الرسل لإرشاد الناس إلى حل مشاكلهم الجنسية حلا طاهرا يسمح بقيام نظام اجتماعى سليم يمكن أن يقوم عليه سعادة البشر .

كانت الشرائع السماوية كلها تحدد علاقة الرجل بالمرأة لبناء مجتمع جديد ، فالبيت نواة المجتمع البشرى ، واستقرار البيت هو استقرار المجتمع . وكانت الشرائع السماوية كلها تعطى الرجل حقه وتعطى المرأة حقها ولكن كلما بعدت البشرية عن عدالة السماء وخفت قبضة الدين على المجتمعات راح الرجال وهم الحكام والمشرعون والقضاة يشرعون قواعد تزيد فى حقوقهم على حساب حقوق المرأة ، فكانت عصور الضياع التى نكبت بها الإنسانية .

إن مركز المرأة فى المجتمعات هو المقياس الحقيقى لحضارة المجتمع ، فإذا نالت المرأة التوقير الذي تستحقه فى مجتمع ما وأخذت حقوقها المشروعة بلا زيادة أو نقصان ، وقامت بدورها الطبيعى الذى خلقها له الله ، فإن ذلك المجتمع يكون أكثر تحضرا من مجتمع تهان فيه المرأة بأن

يطلق لها الحبل على الغارب ، تمارس فيه كل أنواع الفساد تحت شعارات خادعة براقة يفلسفها لها مخادعون يزينون الرغبات والنزوات والأهواء ويقولون إن الظواهر النفسية حرة ، وإننا نفعل على نحو ما نوجد ، وإن فعلنا ينبثق من وجودنا ويسهم فى خلقنا ، وأن الإنسان حر من حيث هو شعور ، ومثل ذلك من الفلسفات التى تشجع على الخطيئة إرضاء لحرية النزوات !

كان مركز المرأة متماثلا عند كل الشعوب التى وصلت إلى درجة معينة من الحضارة ما دامت بعيدة عن أثر الدين وتأثيره ، فكانت المرأة فى مصر القديمة وفى بابل وآشور فى مكانة واحدة فهى زوجة الرجل الشرعية ، على أن الرجل كان حرا فى اتخاذ محظيات على قدر ما تسمح به ثروته ، وكانت خادمات المنزل إماءه وملك يمينه . فللرجل زوجة شرعية واحدة هى « زوجته المحبوبة » و « سيدة المنزل » وله حريم من المغنيات والمحظيات الحسان وما كان لهن حد يقف عنده الرجل بل يعود ذلك إلى درجة ثرائه وانفتاح شهيته .

وقد عرف قدماء المصريين تعدد الزوجات ، فرئيس عشرة الوجه القبلى « أمينى » الذى عاش فى الدولة الوسطى كان له زوجتان إحداهما وهى المسماة « نبت » ولدت له ولدين وخمس بنات ، والأخرى واسمها « حتوت » فقد أنجبت له ثلاث بنات وصبيا واحدا . وكانت الزوجتان تعيشان معا فى سلام حتى إن السيدة نبت سمت ابنتها الثانية « حتوت » وسمت السيدة حتوت بناتها الثلاث باسم نبت !

وكانت لرمسيس الثانى زوجتان ملكيتان عظيمتان هما نفترا مرن مرت وإسى — نُفرى أم منفتاح ، وعندما عقد معاهدة مع ملك الحيثيين

تزوج سياسيا . وقد فعل تحتمس الرابع مثل ذلك ، وكذلك أمنوفيس الثالث والرابع عندما اتخذوا لأسباب سياسية أسرات من بابل ومتانى وجعلوهن زوجات ملكيات عظيمات .

وكانت قصور الأمراء وحكام الأقاليم والأثرياء تموج بالحريم أو كما كان يعرف فى العهد الفرعونى « ببيت المحجبات » وكانت نساؤهم وأولادهن لا يستمتعون بأية حقوق قانونية قبل رب البيت . كان الحريم موجودا فى جميع عصور التاريخ كحاجة من حاجات الأثرياء الوجهاء ، وكان واجب نساء الحريم أن يشرحن قلب فرعون بالأغانى والرقص ، وكذلك كان هذا هو دور الحريم فى قصور الأثرياء .

ويقال فى نصوص الأهرام عن الملك المتوفى إنه « يأخذ النساء من أزواجهن عند رغبته » ، أى أن للملك حق اغتصاب أية زوجة من زوجها كما كان الحال بعد ذلك لأمراء الإقطاع فى العصور الوسطى . وكان الشبان فى سن الخامسة عشرة يتزوجون بفتيات فى الثانية عشرة من عمرهن ، وكان الأب هو الوكيل الشرعى فى الزواج .

وكانت سبايا الحروب يوزعن على الجنود ، وقد نال جندى واحد بعد معركة حربية عشرا من الإماء . وكان التسرى منتشرا بين الطبقات الدنيا ، ولا يخلو عصر من العصور من النساء اللاتى لا عائل لهن ولا حرفة يعشن منها غير البغاء .

وكان الأبناء ينسبون إلى الأمهات . وفى عصر الدولة الوسطى كان نظام التوريث فى أسرات النبلاء يأتى عن طريق النساء لا الذكور ، فلم يكن الابن هو الذى يرث وإنما يرث ابن كبرى البنات ، وكان والد الأم هو الوصى الطبيعى للشاب .

عرفت البشرية منذ فجر التاريخ نظام تعدد الزوجات ، وإن قارىء التوراة ليجد أن أنبياء بنى إسرائيل قد اتخذوا أكثر من زوجة وتسروا بأكثر من محظية حتى قيل إن قصر سليمان كان به أكثر من ألف امرأة . ولم يأت فى الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج من أكثر من واحدة ، وإن عدم زواج السيد المسيح قد أوقع المسيحيين المؤمنين فى الحرج حتى صار عندهم أبغض الحلال إلى الله الزواج !

وعرف العرب فى الجاهلية نظام تعدد الزوجات والتسرى بالإماء ، وكان سادات القوم يدفعون إماءهم على الزنا لجمع الأموال ، ولما جاء الإسلام قال النبى — ﷺ : (لا تقل عبدى وعبدتى بل فتاى وفتاتى) لذلك جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا ﴾[1] . فقد كانت بعض صاحبات الرايات الحمر يضقن بهذه المهنة وكن يمارسنها تحت ضغط السادة وتهديدهم .

وكان فقراء العرب يئدون بناتهم خشية الفقر فكان ذلك نوعا من تحديد النسل ، وما كان الوأد للبنين لأن القبائل كانت فى حاجة إلى الرجال للغارة والسطو ودفع العدوان ، لذلك كانوا يكرهون إنجاب البنات : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[2] .

وقد بلغت الاستهانة بالشرف بين بعض رجال العرب فى الجاهلية أن

---

(١) النور : ٣٣ .

(٢) النحل ٥٨ — ٥٩ .

قبلوا الاستبضاع ، وهو إرسال الزوجة لرجل نابه أو شاعر مفوه أو حاكم حكيم لإنجاب ذرية قوية فيها بعض صفات الرجل القوى الفحل الذى يتمنى الزوج أن يأتى ابنه على مثاله !

وكانوا يجمعون بين الأختين ، ويخلف الرجل على امرأة أبيه ، وكانوا يسمون من فعل ذلك الضيزن . وكان الرجل من العرب إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه فإن كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها ، وإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد . وقد كان هذا النكاح فى الجاهلية نكاح المقت .

وكان الرجل يرث امرأة ذى قرابته فيعضلها[1] حتى تموت أو ترد إليه صداقها ، فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها .

كانت للمرأة العربية فى الجاهلية بعض الحقوق بينا نجدها فى جمهورية أفلاطون شيئا لا حق له ، إنها لعبة الرجال الممتازين ولا بأس من أن تكون مشاعا بينهم ، فما خلقت إلا للترفيه عن الرجال الأقوياء العظماء الذين تضع جمهورية الفيلسوف كل إمكانياتها لتكوين هؤلاء الصفوة .

ويقول الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه حقوق الإنسان فى الإسلام : « ... فحالة المرأة فى فرنسا مثلا كانت إلى عهد قريب ، بل لا تزال إلى الوقت الحاضر أشبه شيء بحالة الرق المدنى ، فقد نزع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون المدنى الفرنسى إذ تقرر أن :

---

(١) عضل المرأة : منعها الزواج وضيق عليها .

« المرأة المتزوجة ، حتى لو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو من غير عوض بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » .

ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فإن كثيرا من آثارها ما يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر ، وتوكيدا لهذا الرق المدنى المفروض على المرأة الغربية المتزوجة تقرر قوانين الأمم الغربية ويقضى عرفها أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان بل تحمل اسم زوجها وأسرته فتدعى مدام فلان . أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها ، وفقدان اسم المرأة وحملها لاسم زوجها كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدنية للزوجة واندماجها فى شخصية الزوج .

وقد ظلم الإسلامَ الذين قالوا إن الإسلام أباح تعدد الزوجات ووقف عند ذلك ، فالحقيقة التى لا مراء فيها أن التعدد كان معروفا قبل الإسلام وفى كل العصور وكل الديانات . فإبراهيم خليل الرحمن اتخذ أكثر من زوجة ، وكذلك موسى كليم الله وكل الرسل والأنبياء . وإنه لمن الإنصاف أن يقال إن الإسلام جاء ليحدد عدد الزوجات ، فبعد أن كان للرجل الحق فى أن يتزوج أى عدد من النساء شاء فقد حدد الإسلام عدد الزوجات بأربع وأوجب العدل بينهن ، وما كان ذلك مطلوبا من قبل فقد كان للزوج أن يعدل أو لا يعدل كيف يشاء .

إن تعدد الزوجات ليس نظاما شائعا بين المسلمين ، فكثير من

المسلمين يكتفون بزوجة واحدة ، ولكن هناك أحوالا اجتماعية أو اقتصادية قد توجب تعدد الزوجات حفظا للمجتمع من الانهيار أو درءا لفساد قد ينخر فى نظام اجتماعى ويقوضه على رءوس الصالحين والطالحين المكتفين بزوجة واحدة فى الظاهر ، أو الداعين إلى شيوع المرأة بين الرجال دون زواج .

لقد أصبحت الحروب جزءا من الحياة فى العالم ، وكان من نتيجتها أن صار عدد النساء يزيد على عدد الرجال فى معظم دول العالم . وقد واجه الأخلاقيون فى أوربا هذه المشكلة بعد الحرب العالمية الثانية ، فالطبيعة تصرخ فى طلب حاجاتها وتريد أن تنطلق فى طريقها . ولم يجد الأخلاقيون فى أنفسهم الشجاعة لتقرير مبدأ تعدد الزوجات فكانت النتيجة أن استشرت شرور الدعارة وانتشرت موجات التحرر الجنسى التى تنذر بتقويض الحضارات الغربية .

إن الإسلام فى فجر تاريخه واجه موجات من الغزوات والحروب فقل عدد الرجال عن النساء ، فلم يكتف بأن أوصى ببر الأرامل وتقديم الطعام والمأوى إليهن ورضى عن الحل المادى وحده ، بل عرف أبعاد المشكلة على حقيقتها ، فالطعام لا يطعم إلا جوعها ولا يصون عرضها ، إنها فى حاجة إلى إشباع جوع آخر فإن لم تجد من يسده حلالا فالطبيعة قد ترغمها على أن تسده حراما . ولما كانت رسالة الإسلام الطهارة والعفة وقدسية العلاقات الجنسية فقد أباح الإسلام أن يتخذ الرجل أكثر من زوجة حتى يصون المجتمع من شرور البغاء ، وهو الخطر الأعظم على حضارة الأمم .

شاد الإسلام حضارته على نظام حياة البيت وطهارتها وقام على نظام

الزوجة الواحدة فى تهيئة بيت للمرأة إلا فى حالات استثنائية فقد سمح بالزواج من أكثر من امرأة . فإذا قيل إن المرأة لا تجد فى حالة تعدد الزوجات إلا نصف بيت فإذا ذلك أفضل من ألا تجد بيتا على الإطلاق . وما معنى عدم وجود بيت ؟ ليس المعنى أن المرأة لا تجد المأوى فحسب ، ولا أنها حرمت فرص إبداء عواطف الحب والرحمة التى وهبها الله لها فحسب ، ولكن معناها فى أغلب الحالات هو الحرمان الخلقى وهو أعظم الأخطار على الحضارة .

قد يمكن إيجاد عمل للنساء يعينهن على كسب قوتهن ، ولم يغلق الإسلام باب العمل إطلاقا فى وجه المرأة ، إلا أن المعضلة ليست تيسير الحصول على الطعام ولكن تيسير الحصول على بيت وزوج . ويجب أن يفهم فى وضوح أن تعدد الزوجات فى الإسلام — سواء أكان نظريا أم عمليا — ما هو إلا نظام استثنائى ، وهو علاج لكثير من مساوىء المدنية الحديثة ، وعلى فرض أن أعداء الإسلام يعتبرونه شرا فليقولوا لنا : أيهما أعظم شرا أتعدد الزوجات المحدود أم الدعارة والانحطاط الخلقى المطلق ؟ !

وإن المتتبع لزيجات رسول الله — ﷺ — وأصحابه يجد أن الدافع لهذه الزيجات هو صيانة حياة أرامل مات عنهن أزواجهن ، فكان من واجب المسلمين الأوائل ضمهن إلى بيوتهم ليجدوا المأوى والعطف والحنان . ولم يكن الدافع إلى ذلك الزواج شهوة طاغية أو متعة رخيصة بل كان الهدف الأسمى التعفف وصيانة حرائر المسلمين من الانزلاق . ويقول مولاى محمد على فى كتابه « محمد رسول الله » يمكن تقسيم حياة النبى الأسرية إلى أربعة أقسام : كان أعزب حتى الخامسة والعشرين ،

وعاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين وتزوج عدة زوجات بين الرابعة والخمسين والستين ، ولم يتزوج من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

إن فترة العزوبة هى أهم فترة يمكن بها دفع دعوى أن النبى كان عبدا لشهواته ، فلو كان عبدا لها لما قبض على ناصية عواطفه وميوله الجنسية ولما عاش حتى الخامسة والعشرين حياة نموذجية من الطهر والعفاف جعلته يعرف بين مختلف القبائل بالأمين . تحكم فى ميوله الجنسية حتى الخامسة والعشرين فى بلاد حارة كبلاد العرب حيث يبلغ الفتيان مرتبة الرجال سريعا وتكون عواطفهم فوارة وميولهم جامحة عنيفة ، وما استطاع أعداؤه فيما بعد عندما خاصموه أن يذكروا حادثة واحدة تمس شرفه . وموير نفسه يعترف بأن جميع المراجع متفقة على : « أن النبى فى شبابه طبع بالهدوء والدعة والطهر والابتعاد عن المعاصى التى كانت قريش تعترف بها . والشباب هو سن العواطف المتأججة الجامحة الثائرة ، فالرجل الذى يستطيع كبح جماح عواطفه وهو أعزب من المحال أن يجرى وراء الشهوة وقد بلغ سن الاكتمال والرزانة . وعلى ذلك فالفترة الأولى من حياة النبى فترة الحياء والطهر دليل قاطع على استحالة أن يكون عبدا لشهواته . ومما هو جدير بالملاحظة أن تقاليد العرب وقتذاك كانت تبيح الانحراف الخلقى . لذلك لا يمكن أن يقال إنه تعفف بتأثير البيئة أو العادات المرعية ، لقد كان الانغماس فى اللذات شيئا عاديا مألوفا يومئذ فلم ينغمس فيما انغمسوا فيه جميعا ، وعاش عيشة طاهرة نقية ، وهذا وحده دليل على سمو خلقه ورفعته الشخصية .

ولندرس الآن الفترة الثانية فترة الزواج من زوجة واحدة ، فقد

تزوج فى الخامسة والعشرين من خديجة فعاش معها عيشة إخلاص وورع حتى قبضها الله وكان فى الرابعة والخمسين ، عاش معها وحدها فى بلاد قاعدتها العامة تعدد الزوجات ، وما كانت الزوجة لتشكو أو تتذمر إذا زوجها تزوج زوجة ثانية أو ثالثة . وقد أغناه زواجه من خديجة فكان فى وسعه أن يتزوج من أخرى ولكن تعدد الزواج لم يكن مقصورا على الأغنياء ، فكان فى مقدور الفقراء التزوج من أكثر من واحدة ، وكانت الزوجة شريكة فى الحياة بمعنى الكلمة فهى تعاون زوجها على كسب معيشتها كما هى الحال فى الطبقات العاملة ، وعلى هذا فما كان الفقير ليخسر شيئا إذا ما تعددت زوجاته .

كان محمد من أعرق أسر قريش ولو شاء الزواج من أخرى لكان أمرا هينا ميسورا ؛ ولكنه عاش مع زوجة واحدة عيشة كلها إخلاص وألفة وود طوال حياتهما الزوجية ، فلما ماتت تزوج من سيدة طاعنة فى السن هى سودة وكانت كل مؤهلاتها أنها زوجة أحد الذين هاجروا إلى الحبشة متحملين الأذى فى سبيل الدين .

وإن هذه الفترة فترة الخامسة والعشرين إلى الرابعة والخمسين هى فترة الزوجة الواحدة ، وهى القاعدة فى الحياة الزوجية .

وفى السنة الثانية للهجرة بدأ القتال مع قريش والقبائل العربية الأخرى فأدى ذلك إلى قتل كثير من الذكور وهم عماد الأسرة واستمرت هذه المعارك حتى السنة الثامنة للهجرة ، وفى هذه الفترة بالذات تزوج النبى تلك المرات العديدة التى قد تبدو غريبة أمام العقلية الحديثة ولكنها كانت أمرا عاديا لا غبار عليه ولا ينتقد . ومن ذا الذى ينتقده إذا فهم أن الدافع إلى ذلك هو الرحمة والشفقة لا الجنوح إلى المتعة واللذة ؟ وقد اعترف

أحد الكتاب المسيحيين بذلك ضمنا عندما قال : « من الممكن تفسير تزوج النبى المرات المتتالية بشتى التفسيرات ولكن يجب ألا يعزب عن البال أنها كانت وليدة الشفقة والمؤاساة نظرا للحالة التعسة التى كانت عليها من تزوج منهن فقد كن من الأرامل ، لا مال ولا جمال ، بل كن على النقيض من ذلك يستحققن كل عطف » .

سبق لنا القول بأنه ما كان يخشى على رجل قضى حياته حتى الخامسة والخمسين وهو على خير ما يكون من الطهر والعفاف أن ينغمس بعد ذلك فى اللذات . فإذا كانت فتنة النساء لا تؤثر فيه وهو فتى ممتلئ الشباب فكيف بها تأسره وهو رجل رزين كامل النضج العقلى ؟

قد عاش النبى طوال هذه السنين فى المدينة وما كانت حياته سهلة ممتعة بل كانت على العكس من ذلك حياة كفاح ونضال ، فقد كان فى هذه الفترة فترة تعدد الزوجات يخوض معارك لا تنقطع ، معارك موت أو حياة للإسلام أو المسلمين . لقد عوديت المدينة فى هذ الحقبة ومشت إليها جيوش لجب للقضاء على المسلمين ، ورمته العرب جميعا عن قوس واحدة فما كان النبى آمنا لحظة . لقد كانت المعارك تلى المعارك وكل معركة أشد من سابقتها ، وكانت الغزوات تعد سرعة . وقال له أصحابه بأنهم ملوا من حمل السلاح آناء الليل وأطراف النهار ، فكان يواسيهم ويطمئنهم ويبشرهم باقتراب زمن السلام الذى يتمكن فيه المسافر من قطع الجزيرة من أدناها إلى أقصاها دون الحاجة إلى حمل سلاح .

وكان اليهود والنصارى كذلك يناصبونه العداء ، وكان خيرة أصحابه يقتلون الواحد إثر الآخر فى المعارك أو غيلة . أفكانت هذه الحياة حياة لذة ومتعة أم كانت حياة شدة وكرب ما بعدها شدة

وكرب ؟ وإذا شاء الجنوح إلى حياة اللذة والمتعة وهو ما لم يحدث بشهادة جميع الثقاة أفكانت الظروف تواتيه ؟ إنها الحرب فى انتظاره دائما ، الحرب مع المنافقين الذين يهددون بالانفجار الداخلى ، والحرب مع أعداء حافين به من كل جانب . لقد كانت الأنباء تترامى إليه دائما أن العدو يحشد جيوشا هائلة للقضاء عليه وعلى الإسلام وكان عدد المسلمين ضئيلا . فكان عليه دائما أن يعمل على درء الخطر الساحق . فلو أن هذه الظروف حاقت برجل ماجن لبدلته وغيرته فما بالك برجل شهد الجميع بطهارته ونقائه ، رجل ما كانت لتؤثر فيه المغريات حتى تصيره ماجنا أو عبدا لشهواته .

عرفنا كيف يقضى النبى نهاره فى كفاح مضن شديد ، فكيف كان يقضى ليله ؟ قد كان له عدد من الزوجات الحليلات المحصنات أفكان يقضى ليله يتمتع بهن ؟ استمع إلى شهادة القرآن وهو أصدق القائلين : ﴿ يأيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾[1] . ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ﴾[2] . وجاء فى الحديث أنه كان يقضى نصف الليل بل أكثر من نصفه فى الصلاة وتلاوة القرآن وهو قائم حتى تتورم قدماه ، فهل بعد هذا يمكن القول أن هذا الرجل الكريم إنما اتخذ هذا العدد من الزوجات للتمتع بهن ؟ كلنا يعرف أدق خصائص حياته ، لقد كانت نضالا كلها ، كفاحا كلها ، نصبا كلها ، ليس فيها

---

(١) المزمل : ١ — ٤

(٢) المزمل ٢٠ .

متعة ، أو لذة حسية .

وللدكتورة بنت الشاطىء رأى فى التعدد ، فهى تقول فى كتابها « نساء النبى » : وفى مسألة التعدد جانب دقيق غفل عنه كثيرون ... ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء ، وقد تؤثر أنثى — راضية — أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل على أن يكون لها غيره كاملا .

وليس معنى هذا أن نساء النبى كن سعيدات بحياة الضرائر ، ولا هو يقتضى أن تستريح إحداهن إلى هذه المشاركة فى الزوج ، ولكن معناه على التحديد أن محمدا « كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال الذى تؤثر الزوجة أن يكون لها أى مكان فى بيته ، على أن تكون لها مع غيره مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة » .

وليس من بين زوجاته — ﷺ — من دخلت بيته وفى حسابها أن تنفرد به ، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل علينا تصوره لو ذكرنا أن خولة بنت حكيم اقترحت على الرسول أن يخطب عائشة بنت أبى بكر وسودة بنت زمعة فى وقت واحد ، وأن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث هى التى عرضت أن تتزوج الرسول وفى بيته عشر نساء : ثمانى زوجات واثنتان ملك يمين . وأن عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على أبى بكر وعنده « أم رومان » حماة النبى — ﷺ ، وأن على بن أبى طالب هم بأن يتزوج على فاطمة الزهراء بنت النبى ، وأن أبا بكر وعمر صهرى الرسول رغبا فى الزواج من أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب حين مات زوجها وفى بيت كل منهما أكثر من زوجة .

ولو خيرت زوجات النبى بين حياتهن تلك المشتركة فى بيت واحد ومع زوج واحد وبين حياة أخرى منفردة فى غير ذلك البيت ، لما رضين

عن حياتهن بديلا ...

وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها . وقد شهد بيت الرسول من غيرة نسائه المجتمعة ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر ، وإن لم تر فيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة فى الاستئثار به .

وما من شك فى أن الرسول قد عانى من ذلك كثيرا ، لكنه راض نفسه على احتماله تقديرا للدوافع الطبيعية التى كانت تدفع إليه قسرا ودون اختيار . وما تزال الإنسانية تصغى حتى اليوم وغدا وبعده إلى كلمته فى زوجته عائشة حين لجت بها غيرتها :

« ويحها لو استطاعت ما فعلت ! » .

وترى فيها آية على سلامة الفطرة وصحة النفس وعمق الفهم بطبيعة حواء . وقد كان نساؤه يعرفن هذا فى زوجهن الرسول ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لزوجات نبى من مسالمة ووئـام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن فمثل رسول الله من يعذر ويقدر ويرحم ، دون أن يرى فى ضعف البشرية إثما لا يغتفر أو يجد فى فطرة حواء ما يدعو إلى الازدراء .

وكتب ر . ف . بودلى فى كتابه « الرسول . حياة محمد » عن زواج محمد — ﷺ — من عائشة : « وشغلت مسألة زواج الرجل الذى كان فى سن الخمسين من الفتاة التى كانت فى العاشرة بعض مؤرخى محمد ، كما شغلهم الإسراء وحالة الصرع . وكان المؤرخون ينظرون إلى كل حالة من وجهة نظر المجتمع الذى يعيشون فيه . فلم ينظروا إلى هذا الزواج على

أنه كان ولا يزال عادة آسيوية ، ولم يفكروا فى أن هذه العادة لا زالت قائمة فى شرق أوربا وكانت طبيعية فى أسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة ، وأنها ليست غير عادية اليوم فى بعض المناطق الجبلية البعيدة فى الولايات المتحدة . وبغض النظر عن العادة فإنهم لم ينظروا نظرة اعتبار إلى ظروف هذه الحالة الخاصة . فهناك أول شيء أبو بكر أبو الزوجة وكان من المفهوم أنه يبغى أن يرتبط ارتباطا سياسيا دائما بقائده وقد أعانه وساعده فى أحلك أيامه ، وقد يكون هناك دوافع أخرى مادية أقل أهمية فهو يؤمن بمحمد ويحترمه ويحبه فكان واثقا من أن ابنته ستجد الرعاية الطيبة فى دار صديقه .

ويجب ألا يهمل محمد نفسه ، فحتى تلك اللحظة لم يكن فى حياته شيء مسل أو بهيج بل كانت حياته كدا ونصبا فكان يستحق بعض ما يرفهه غير التعذيب والحكم عليه بالاعدام ، وما كان له حتى نصيبه العادى من النساء فقد بقى حتى السابعة والعشرين عفيفا كعائشة ، وختم ذلك العفاف بالتزوج بأرملة تكبره بخمس عشرة سنة .

والنقطة الثالثة التى تنسى عادة والتى يجب لذلك تأكيدها ثانية هى أن عائشة على الرغم من أنها طفلة بالنسبة لسنها فإنها لم تكن طفلة لا حول لها تركت تحت رحمة شيخ هرم ، فلو أن هناك شابة عرفت ما هى مقبلة عليه لكانت عائشة بنت أبى بكر ذات العينين الواسعتين والقدمين الصغيرتين والشعر الجعد . فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبى اللاصقة بالمسجد وراحت تديرها ، فعاملت سودة العجوز كما تعامل خادما مكلفة القيام بجميع أعمال المنزل . ولما هجر محمد نساءه لم تخفف عائشة من غلوائها فقد كانت تعلم أنه سيعود إليها

دواما » .

ولمولاى محمد على رأى فى سن عائشة عندما بنى بها رسول الله — ﷺ ، فهو يقول فى كتابه : « محمد رسول الله » عندما كان يتحدث عن زواج النبى — ﷺ — من عائشة بنت أبى بكر : « كان لفقد خديجة وقع أليم فى نفس النبى فحزن عليها حزنا عميقا ، فلما رأت أحدى المؤمنات ذلك أشارت عليه أن يتزوج من عائشة ابنة صديقه أبى بكر وفاتحت أبا بكر فى ذلك ، وكان لعائشة مواهب بارزة لمسها النبى كما لمسها أبوها ، وكانت هذه المواهب كفيلة بأن تجعلها سيدة المستقبل الجديرة أن تكون زوجة الهادى الأعظم الذى سيكون له أبلغ الأثر فى هداية البشر ، وكان فى طريق إتمام هذا الزواج عقبتان : أولاهما أن عائشة كانت مخطوبة لجبير فما كان فى استطاعة أبيها أن يقبل تزويجها حتى يفصل فى أمر جبير ، ولكن كان جبير نفسه يرغب فى فصم رباط الخطبة لأن الهوة التى بين المسلمين والمشركين قد اتسعت ، وأما العقبة الثانية فهى عدم بلوغ عائشة السن التى تؤهلها للزواج وقد أمكن تذليل هذه العقبة بتأجيل الدخول بها ، وعلى هذا فإن حفل الزواج لم يكن فى الواقع سوى حفل خطبة وكان ذلك فى التاسع من شوال فى السنة العاشرة من نزول الوحى .

وإنها لفرصة طيبة لدفع أكذوبة شاعت وراجت عن سن عائشة ، فمن المسلم به أنها لم تبلغ السن التى تؤهلها للزواج ، وكذلك من الواضح أنها لم تكن فى سن السادسة كما زعموا فإنها كانت فى السن التى تجيز خطبتها فخطبها جبير ، وعلى ذلك فإنها كانت على أبواب السن التى تؤهلها للزواج . ومن الثابت أن فاطمة بنت النبى تكبرها بخمس

سنوات . ومن الثابت أيضا أن فاطمة ولدت أيام إعادة بناء الكعبة أى قبل أن يرسل النبى بخمس سنوات ، فتكون عائشة قد ولدت سنة نزول الوحى فكانت سنها لا تقل عن العاشرة عندما زوجت من النبى فى السنة العاشرة للرسالة ، وإن شهادة عائشة نفسها لدليل على ذلك ، فقد قالت إنها كانت تلعب مع أترابها عند نزول سورة القمر وهى السورة الرابعة والخمسون ، وإنها كانت تحفظ بعض آيات السورة ، وهذه السورة لم تنزل إلا فى السنة الخامسة للرسالة ، وعلى ذلك فما قيل من أنها كانت تبلغ السادسة فى السنة العاشرة للرسالة عندما تزوجها النبى إن هذا إلا قول كاذب ، وإلا كان مولدها يوم نزول سورة القمر وهو ما تنفيه هى بقولها إنها حفظت بعض آياتها عند نزولها .

من هذا كله يفهم أن سنها لم تكن أقل من عشرة أعوام بحال عندما خطبها النبى ، ولما كانت المدة بين الخطبة والدخول بها لا تقل عن خمس سنوات فما دخل النبى بها إلا فى السنة الثانية للهجرة ، وعلى ذلك يكون سنها يوم بنائه بها خمسة عشر عاما ، أما دعوى أنها كانت فى السادسة عند عقد الزواج وأن النبى بنى بها وهى فى التاسعة فهى دعوى خاطئة لأن معنى هذا أن الفترة بين العقد والزواج كانت ثلاثة أعوام ، وهذا خطأ تاريخى لاشك فيه » .

ويقول المعتزلة بعدم جواز أن يتزوج الرجل زوجة ثانية ما دامت الأولى فى عصمته ، وسبب ذلك أنهم نظروا نظرة سطحية إلى ما يجلبه التعدد — فى نظرهم من مفاسد ومضار ، ولم يرد فى القرآن نص يحرم

تعدد الزوجات ، إنه اشترط العدل بين الزوجات ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[1] ولا ريب أن هناك ظروفا اجتماعية أو اقتصادية تبرر تعدد الزوجات ، فقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال « جينز برج ووستر مارك » أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع فى الشعوب المتمدينة فى حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة ، وأن الشعوب التى كانت تحرم الزواج بأكثر من واحدة إنما كانت تتبع تقاليد لا تتصل بالدين من قريب أو بعيد . كما أن الشعوب التى أجازت الزواج بأكثر من واحدة إنما أجازته طبقا لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو عمرانية دون نظر كذلك إلى الدين .

وتقول « ماريون لانجر » العالمة الاجتماعية المتخصصة فى استشارات الزواج « إن لدى المجتمع حلين ممكنين فحسب لتغطية النقص المتزايد فى الرجال ؛ إما تعدد الزوجات ، أو إيجاد طريقة ما لإطالة أعمار الرجال ، فهل يمكن إيجاد طريقة لإطالة عمر الرجال دون النساء ؟ أم ترى هل سيلجأ العالم إلى إباحة تعدد الزوجات » .

ويقول الدكتور حسين المفتى فى هذا الشأن : « أصبح من المعتاد اعتبار مبدأ تعدد الزوجات منكرا اجتماعيا واعتاد المسلمون أن يبرروا وجود هذا المبدأ فى دينهم تبريرا هو أقرب الأشياء إلى الاعتذار وما ذلك إلا لأنهم يسمحون لأنفسهم أن يتأثروا بوجهة نظر الناقدين الذين هم قطعا يفكرون فى أمر الزواج على أساس ميول وعواطف الأفراد ، بينما الإسلام يعالجه على أساس مصلحة المجتمع ، ويضع الحلول التى إن لم

---

(١) النساء ٣ .

ترض ميول الأفراد فإنها لا تتنافى مع خيرهم ثم هى لا مناص منها لخير المجتمع .

وقد أسهب المستشرقون فى قصص زواج النبى — ﷺ — من نسائه وخرجوا من دراساتهم المغرضة بأنه كان عليه السلام يجرى وراء لذاته ، وقد فند الأستاذ العقاد مزاعمهم فى كتابه : عبقرية محمد ، قال : « ... فهو أولا رجل يطلب ما يطلبه الرجل فى المرأة ، ونحن قبل كل شىء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها ، هذا سواء فى الفطرة لا عيب فيه . وهذه النفس السوية يمكننا أن نفهمها بجلاء حين نرى أن المرأة لم تشغله عما تشغل المرأة الرجل المفرط فى معرفة النساء من مهام الأمور والقيام بالأعباء الجسام ، فمهما قال هؤلاء فلن يستطيعوا أن ينكروا أن محمدا قد حقق ما لم يحققه بشر قبله ولا بعده ، و لم يشغله عن هذا شىء لا امرأة ولا غير امرأة ، فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ، ويعطى المرأة حقها ، فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب ، ومحمد الذى خير نساءه بين أن يرضين بحياة الكفاف أو يسرحهن سراحا جميلا ليس بالضرورة رجلا خاضعا للذات حسه ، فلو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات ، وليس هذا فعل رجل يستسلم للذات حسه » .

ويقول العقاد : « قال لنا بعض المستشرقين : إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ، قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغى أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء .. فالنبى — ﷺ — أمكنه أن يسوس

تسع زوجات و لم يؤثر عنهن خصام أو نزاع إلا مرات تعد على أصابع اليد ، فمن أتيح له أن يجمع بين عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى به فى معاملة زوجاته بالعدل ومعالجة الشئون المنزلية بالأناة وسعة الصدر ، وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبى الكثيرات مثالا صالحا يحتذينه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدر لهن من متاع فى هذه الحياة الدنيا ، وبذلك تسعد الأسرة بتمامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الإنسانى .

ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا فى حياة النبى مع نسائه واقتدوا به فى معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية » .

ووجد المبشرون والمستشرقون فى زواج النبى — ﷺ — من زينب بنت جحش مادة للخيال والتشهير ، فصوروا قصة غرام مشبوب كذلك القصص الملتهبة التى ذاعت فى العصور الوسطى والقرن التاسع عشر ، فقد كتب الراهب فيدنزو مقدمة نابضة بالحرارة إن دلت فإنما تدل على ما كان يقاسيه من كبت جنسى ثم قال : « كان هناك رجل يدعى سيدروس (زيد) له زوجة تدعى زينب وكانت أجمل نساء الأرض فى زمانها ، وسمع محمد بجمالها الرائع فشغف بها حبا وشاء أن يراها فانطلق إلى دارها فى غياب زوجها يسأل عنها ، و لم تخف المرأة خبر تلك الزيارة عن زوجها وقد سألها عند عودته : هل كان رسول الله هنا ؟ قال : نعم . قال : هل رأى وجهك ؟ قالت : نعم . وأطال إليها النظر ، قال : هذا فراق بينى وبينك .

واستمر الراهب فى سرد قصة لعب الخيال فيها أكبر دور ، وراح

يدس بعض ما جاء فى سورة الأحزاب عن زواج النبى — ﷺ — من زينب ليوهم القارىء أنه يسرد واقعة حقيقية مؤيدة بالقرآن .

وحتى بودلى وهو ممن حاولوا أن ينصفوا نبى الإسلام عليه السلام قد صور قصة زواج النبى من زينب فى صورة روائية وقد يكون له بعض العذر ، فالطبرى وبعض كتاب السيرة سردوا الحادثة سردا قصصيا يوحى بأن النبى عليه السلام لما رأى زينب أعجب بحسنها كأنما يراها لأول مرة وكأنها لم تكن ابنة عمته التى زوّجها من زيد بن حارثة ، يقول بودلى : « ... وإن السيدة التالية التى صادفت فى نفس محمد هوى قد أحدثت رجة فى دور النبى أكبر مما أحدثته أم سلمة .

وقد كانت فى الواقع صدمة لكل إنسان وأصبحت هدفا للنقد وموضوعا للتندر خارج دائرة الأسرة وكان اسمها زينب ، وما كانت تصل بأى سبب بزينب الأخرى (يقصد زينب بنت خزيمة) التى كانت ترقد رقدتها الأخيرة .

كانت زينب هذه حفيدة عبد المطلب وابنة عمة محمد وقد هاجرت إلى المدينة قبل محمد بقليل . ولكنها لسبب من الأسباب لم تتزوج على الرغم من أنها قد اقتربت من الثلاثين ، وقد زوجها محمد عقب الهجرة بقليل من صديقه وعبده المحرر زيد بن حارثة . وكان زيد هذا قبيح المنظر قصيرا أقنى الأنف غير مثقف ، ولو نحينا أمانته للإسلام وسيده وشجاعته الشخصية العظيمة لما كان له إلا القليل ليقدمه إلى سيدة جذابة شريفة كزينب . وقد قبلت زينب الزواج بسبب إصرار محمد ولكنها لم تحب زيدا أبدا ، وما كان زيد نفسه يفهم الناس فلم يكن يدرى كيف يعامل زوجه المدللة .

وذات يوم ذهب محمد ليزور زيدا ، فلما لم يجبه أحد طرق الباب ونادى ، ثم دخل بيت زيد حيث اطلع على زينب الفاتنة وكانت نصف عارية ، فأثر هذا فى عواطفه حتى قال : « سبحان مقلب القلوب » . ثم هرول خارجا فى ارتباك .

رأت زينب نظرة محمد فى عينيها ، وقد سمعت ما قال ولاحظت كيف نطق بما قال فقدرت ما سيقود إليه ذلك القول . فلما عاد زوجها إلى البيت أنبأته بما حدث فما تركت تفصيلا وأضافت تفاصيل قليلة من عندها . وإن أول شيء فكر فيه زيد بعد أن انتهت من سرد قصتها كان سيده الحبيب ، فانطلق إليه ولم يلو على شيء وعرض عليه أن يطلق زوجه ، فأثرت تضحية زيد بنفسه فى محمد فأخبره أن يعود إلى زينب وألا يفكر فى ذلك ثانية .

وكانت لزينب أفكار أخر ، كانت تعرف ما يحسه محمد نحو النساء وكانت متيقنة من إحساسه نحوها ، وكانت قد ضاقت ذرعا بزيد وترغب فى أن تعيش كما يؤهلها كرم مولدها فابتدأت بجعل حياة زيد جحيما فطلقها ليفر من الاضطهاد المنظم .

وانتظر محمد حتى انقضت الفترة المقررة بين الطلاق والزواج ثم ضم زينب إلى زوجاته ، فابتدأت المتاعب وكانت الشابتان (عائشة وحفصة) مثيرتيها وقد نفتا أن للغيرة أى دخل فى هذا ، فراحتا تذيعان فيما حولها أن هذا الرباط رباط فسق فإن زيدا ابن محمد ، والزواج من زوجته ينافى جميع الشرائع فى العالم ، وإنها لفضيحة وإن شيئا كهذا لا يمكن أن يحتمل !

وما كان زيد ابنا لمحمد فقد تبناه فصار وريثه فى نفس الوقت الذى

تحرر فيه ، وما كانت هناك رابطة دم وعلى الرغم من ذلك كانوا يدعونه بابن محمد ، وما كان كثير من المسلمين يدرون كيف صار ابنه ، فلما رفعت عائشة وحفصة صوتيهما بالاحتجاج احتج المجتمعون فى المسجد للصلاة فأصبح محمد فى مأزق ، ولكن جاءه الوحى سريعا ولم يدع الوحى أى شك فى التفريق بين الابن المتبنى والابن المولود ، وقد قرر زيادة على ذلك بأن أرملة الابن المتبنى أو مطلقته لا تدخل فيمن حرم الزواج بهن .

اغتاظت الشابتان وقالت عائشة لزوجها : « ما أرى ربك الا يسارع فى هواك » . ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا فقد كانت زينب فرحة وقالت لكل من قابلته إن الله تدخل لمصلحتها وقد زوجها بنفسه . وقد ضحكت عائشة وكذلك فعلت حفصة ولكن قضى تماما على كل ما أثارتاه .

وهذا الزواج من زينب مكن الغربيين وعلى الأخص الذين يعتقدون أن محمدا لا يصلح لشىء طيب من أن يقولوا : « لقد قلنا لكم ذلك ! فما الذى تنتظرونه غير ذلك من هذا المخاتل الكبير » .

وهؤلاء الرجال على كل حال لينظرون إلى الأمر النظرة الخاطئة ، فإنهم لا ينقلون أنفسهم إلى مجتمع ذلك الوقت أو حتى إلى المجتمع الشرقى ، فإن للعرب اليوم وللرجال العظام أمثال ابن السعود وللحكام أمثال سلطان مراكش أن يعيدوا قصة زينب عدة مرات فى حياتهم التى يحيونها فى القرن العشرين هذا ، فلو أن عائشة لم تضع النقط فوق الحروف لكان من المحتمل ألا يقول أحد شيئا عن ذلك فى المدينة عام ٦٢٦ .

كانت العلاقة الجنسية شغل العرب الشاغل فى ذلك الوقت كما هى اليوم إلى حد ما ، وما كان التحدث فيها محرما كما هو حادث بين كثير من الغربيين ، وكانوا ينظرون إليها كعامل من عوامل السرور والطرب والإلهام ويعتبرونها شيئا عاديا .

وإنه لما يذهل العرب نفاق الغربيين العجيب فيما يتعلق بالعلاقة الجنسية ، فإنهم ليرون أن رجال القارة الأوربية والقارة الأمريكية ونساءهما لا يختلفون عنهم فى شىء فإن لهم نفس شعورهم ، ولكنهم ينظرون إلى جميع الأمور المتعلقة بالعواطف الجسدية المزدوجة للذكر والأنثى كنظرهم إلى رذيلة كشرب الخمر سرا ، ولذلك يبدو لكثير ممن كتبوا عن محمد أن ارتباط محمد بزينب ومحمد بعائشة ومحمد بجويرية بنت الحارث وقد أسرت فى غارة ولم تدفع ديتها وأصبحت زوجة محمد الثامنة بعد زينب شيئا غير عادى ، ولكنه ليس بشىء غير عادى إذا قورن بعادات زواج الحكام الآخرين فى هذا الجزء من العالم كسليمان وداود ، فلم يكن لمحمد حريم كبير كحريم سليمان أبدا ، وإن قصة زينب أكثر بساطة ولا ريب من قصة بتشيبا أو أجنوم زوج أبيجيال التى أعجب داود بها ليلة عرسه .

وينبغى ألا ينظر إلى حياة محمد الزوجية من وجهة النظر الغربية وألا تقاس بالشرائع المسيحية ، فإن هؤلاء الرجال والنساء ما كانوا غربيين فقد كانوا يعيشون فى زمن وفى قطر لا يعرف فيه إلا أقيستهم الأخلاقية فحسب . وحتى إذا كان ذلك فليس هناك من سبب لاعتبار الأحكام الأوربية والأمريكية أعظم من الأحكام العربية . إن عند رجال الغرب الشىء الكثير الذى يعطونه لأهل الشرق وإنهم فى احتياج إلى أن يأخذوا

عنهم الشيء الكثير أيضا . وإلى أن يستطيعوا أن يبرهنوا على أن طريقة عيشهم أعلى خلقيا من أى شعب آخر فعليهم أن يحتفظوا بحكمهم على العقائد والطوائف والبلاد الأخرى » .

ويقول الأستاذ العقاد عن شطحات الخيال التى وضعت زواج النبى ﷺ — من ابنة عمته زينب وصفا قصصيا لعب الغرام فيه دورا رئيسيا : « ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها وإخراجها فى قصة غرام تذاع للتشهير برسول الإسلام كما شاعت فى القرون الوسطى . وليس أسهل من إسقاطها وإسقاط المروجين لها بخبر واحد لاشك فيه من أخبارها الكثيرة ، وهو أن زوجة زيد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى عليه السلام ، وأن النبى عليه السلام هو الذى زوجها من ربيبه وعتيقه زيد . وما كان جمالها خفيا عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولتها وتراه . ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها وهو لا يطمع إلى الزواج من مثلها ، ويكفى أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها . وشيء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس الفضيحة على المبطلين ليعلموا حقيقة القصة المحرفة ويعلموا أنها آية الخلق الكريم فى نبى المسلمين ، وأن زيدا الذى زوجه النبى من بنت عمته لم يكن إلا أسيرا عتيقا رباه النبى فأخلص له ولدينه .. وآثر المقام إلى جواره على الرجوع إلى أهله بعد تسريحه ، ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق ذلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين كرام أهله ، وأطاعت الزوجة النبى كما ينبغى لمثلها مع مثله . ولكنها عاشت مع زوجها كسيرة الخاطر . لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتها إليها ، ويشعر زيد بما تضمره من الحزن والأنفة فيهم بتطليقها ولكنه يستكبر أن

يقابل جميل النبى برفض الزوجة التى اختارها له وميزه بها على صحبه ، فارتفعت بنبى الإسلام مروءته إلى حيث ينبغى أن ترتفع مروءة الأنبياء ، وأحل زيدا من حرجه وعوض زينب عن مهانتها ويعلم الناس أنها كفء له وإن كان قد اختارها لفتاه الذى كان يتبناه ، ولولا ذلك لعاشت الزوجة المطلقة معضلة بين لداتها وأترابها وهى لا تطمع فى الزواج من كفء لها بعد تطليقها ، وليس مما يجبر خاطر الكسير أن يساق إليها الزوج الذى يكافئها وتكافئه مأمولا بزواجها .

تلك قصة أرسلوها فى غياهب القرون الوسطى لينظر الناس فى ظلماتها إلى وصمة إنسانية يعاف من أجلها خلق الإنسان ويعاف الدين الذى يدعو إليه من أجله . ويزيد عليها خبر صغير لاشك فيه فإذا هى شهادة بالنبوة كأحسن ما تكون الشهادة للأنبياء ، لأنها شهادة بغاية البر والإحسان إلى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه ، وغاية البر والإحسان إلى المرأة المجروحة فى عزتها بعد أن غلبها ضعف الأنوثة والعرف على شعورها برغم إرادتها ، وكانت فضيلة الصدق مع فضيلة العفة أكبر الأهداف التى تعمدها أصحاب هذه المكيدة بالإنكار فيما زيفوه من القصص المحرفة عن صفات النبى » .

وقد دافع بعض المستشرقين عن مبدأ تعدد الزوجات ، فالمستشرق « ألفونس أتيين دينيه » فى كتابه « محمد رسول الله » يقول : « ولن نخاطر هنا محاولين عن عادة يحمل عليها الناس بمثل هذه الشدة ، ولكننا نقتصر على عرض بعض الملاحظات :

فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شىء ذائع فى سائر أرجاء العالم وسوف يظل موجودا ما وجد العالم مهما تشددت القوانين فى تحريمه ،

ولكن المسألة الوحيدة هى معرفة ما إذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحدد أم أن يظل نوعا من النفاق المستتر لا شىء يقف أمامه ويحد من جماحه .

وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين ونخص منهم بالذكر « جيرال دى نيرفال » و « الليدى موجان » أن تعدد الزواج عند المسلمين — وهم يعترفون بهذا المبدأ — أقل انتشارا منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة ، وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم فى هذا .

ودافع ألفونس أتيين دينيه فى كتابه « أشعة خاصة بنور الإسلام » عن مبدأ تعدد الزوجات فى الإسلام قال : « لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التى لا تغلب وإنما هو يساير قوانينها ويزاول أزمانها بخلاف ما تفعله الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها فى كثير من شئون الحياة ، ومثل ذلك الفرض الذى تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون غرباء » .

على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة ولا أن يتمرد عليها وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا وأسهل تطبيقا فى إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك « بالهدى » لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير .

والأمثلة العديدة لا تعوزنا ولكنا للقصر نأخذ بأشهرها وهو التساهل فى سبيل تعدد الزوجات ، وهو الموضوع الذى صادف النقد الواسع والذى جلب للإسلام فى نظر أهل الغرب مثالب جمة ومطاعن كثيرة .

ومما لاشك فيه أن التوحيد فى الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق ، بل هو الحال الذى يستحيل تنفيذه ؟ لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع وهو دين اليسر إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به أمرا باتا .

والذى فعله الإسلام أول كل شيء أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات وقد كان عند العرب الأقدمين مباحا دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد فى الزوجة فى قوله : « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

وأى رجل فى الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات ؟ ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ ، ولكن انظر كيف وضعه الإسلام وضعا هو غاية فى الرقة والدقة واللطف مع الحكمة ، ثم انظر هل حقيقى أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبرى لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها فى تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه ؟ وإلا فهؤلاء ملوك فرنسا ، دع عنك الأفراد ، الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات وفى الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام .
وإن تعدد الزوجات قانون طبيعى سيبقى ما بقى العالم ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذى أرادته فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه ، وكان مثلها فى ذلك مثل الشجرة الملعونة التى حرمت ثمراتها فكان التحريم إغراء . على أن نظرية التوحيد فى الزوجة وهى النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرا تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص فى ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة

البلاء ، تلك هى الدعارة والعوانس من النساء والأبناء غير الشرعيين » .

كان رجال الكنيسة يرون أن المرأة شيطان وأنها جسد بلا روح ، ويقول « سان بونافنتور » إلى تلاميذه « إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا وحشيا وإنما الذى ترونه هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو فحيح الأفعى » . وكان ينظر إليها فى الأزمان الغابرة كما ينظر إلى الرقيق فهى متاع الزوج وليست ندا له ، وكان من حق الرجل وحده أن يملك متاعا فى حين كان محظورا على المرأة أن تملك أى متاع أو أن تقوم باسمها بمباشرة أية عملية تجارية ، وعلى ذلك لم تكن شخصا بمعنى الكلمة ، وكان لها أحقر نصيب من الحقوق كابنة وكزوجة أو كأم فكانت وهى ابنة ملكا للأب وهى زوجة ملكا للزوج ، فكان نصف الجنس البشرى ، النصف الهام المسئول عن إعداد الجنس البشرى جميعا ملقى به فى زوايا العبودية والرق ، فإذا ما كان هذا نصيب المرأة من الماديات فكيف كانت تستطيع أن تتهيأ لتلقى الروحانيات ؟ وكان ينظر للزواج على أنه حجر عثرة فى سبيل التقدم الروحى للإنسان حتى فى المسيحية التى كان ينظر فيها إلى الزواج على أنه شر لابد منه .

فلما ضعف سلطان المسيحية وقوى عود المدنية المادية استطاعت المرأة أن تناضل من أجل حقوقها فظفرت ببعض منها ، ولكنها منيت بالخيبة بعد ذلك الفوز إذ فقدت الاستقرار والهناءة المنزلية ، فقد أضعفت المادية من قوة الدين الوازعة وأدت إلى حالة منحلة فى العلاقات بين الزوجين ، فكان من نتيجة ذلك أن خضعت فى أوروبة خضوعا مطردا للإباحية وطرح الزواج جانبا لا لعيب طبيعى فيه ولكن لأنه يلقى ببعض

المسئوليات على كاهل الإلفين اللذين يفكران فى إنشاء بيت . فالنظرة المادية جعلت من الإنسان أنانيا كبيرا ، فبينا يجرى وراء كل متعة فإنه يتملص من مسئوليات الحياة الجديدة حتى يحيا حياة خالية من المتاعب . ولكن الحياة لها نصيبها من الأتراح ، والزواج إذ يقوى من روابط الحب المتبادل بين الرجل والمرأة ويزيد فى سعادتهما يتطلب منهما أن يتقاسما المتاعب والأحزان معا ، فالإباحية تجعل كلا الجنسين أنانيا إلى أقصى حد لأن الرجل والمرأة إذا ما أصبحا إلفين لمتعة فقط ترك كل منهما الآخر وحيدا لأحزانه .

وقد لعب النظام الإسلامى الاجتماعى دورا هاما فى تنظيم العلاقات فبدأ بتدعيم الأسس باعتبار المرأة مخلوقا حرا له حق الاحتفاظ بما يملك أو بيعه إذا شاء ، وبهذا الحق أصبحت المرأة متساوية للرجل فقضى على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية المشتركة كما قضى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون والحقوق العامة . وقد تقرر مركز المرأة فى الإسلام من ثلاثة عشر قرنا فقد أنزل الله على رسوله : ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن »(١) ﴾ . وهكذا أصبح فى استطاعة المرأة أن تكتسب المال وأن تحوزه كالرجل ، ولم يميز النظام بين الجنسين فى هذا الحق ففى وسعها أن تبيع وأن تشترى وأن تهب مالها لمن تشاء ، ﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ﴾(٢) .

شرع الإسلام المساواة بين الرجل والمرأة فيما هو من خصائص

---

(١) النساء ٣٢ .

(٢) النساء ٤ .

الإنسانية فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾[١] ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾[٢] . ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٣] .

وأباح الإسلام للمرأة التعلم بمختلف أنواعه ومراحله بل جعله فريضة عليها فى الحدود الضرورية لها فى شئون دينها ودنياها ، وفى هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) . وكانت أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها تتعلم الكتابة فى الجاهلية على يد امرأة كاتبة تدعى الشفاء العدوية ، فلما تزوجها عليه السلام طلب إلى الشفاء أن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة .

وجعل الإسلام الأنثى ترث كالذكر بعد أن كان العرب يخضعون لتقليد يقدسونه وهو ألا يرث إلا كل من يستطيع أن يحمى ذمار قبيلته ويدفع عنها عدوان العدو وهو ما لم تعد الطبيعة المرأة له ، ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾[٤] .

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة

---

(١) آل عمران ١٩٥ .　　(٢) النساء ١٢٤ .

(٣) النحل ٩٧ ..　　(٤) النساء ٧ .

مراعاة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة وصالح المرأة نفسها ، وترجع أهم النواحى التى قرر فيها الإسلام هذه التفرقة إلى خمسة أمور : الأعباء الاقتصادية ، والميراث ، والقوامة على الأسرة ، والشهادة ، والطلاق .

ففى الأعباء الاقتصادية كان الإسلام رحيما بالمرأة وكفل لها من أسباب الرزق ما يصونها عن التبذل ويحميها من شرور الكدح فى الحياة ، فأعفاها من كافة أعباء المعيشة وألقاها جميعا على كاهل الرجل .

فما دامت المرأة غير متزوجة ولا معتدة من زوج فنفقتها واجبة على أصولها أو فروعها أو أقربائها حسب ترتيب الفقه الإسلامى لهم فى وجوب النفقة . فإن لم يكن لها قريب قادر على الإنفاق عليها فنفقتها واجبة على بيت المال .

وكذلك شأنها فى جميع مراحل الزوجية سواء فى ذلك مرحلة الإعداد للزواج ومرحلة الزواج ومرحلة انفصامه بالطلاق ، فقد ألقت الشريعة الإسلامية على كاهل الرجل واجبات اقتصادية هى مقدم الصداق وإعداد منزل الزوجية دون أن تكلف المرأة أو أهلها أى عبء من هذا القبيل . وفى أثناء الزوجية أعفت الشريعة الإسلامية المرأة من أعباء المعيشة واحتفظت لها بحقوقها المدنية كاملة غير منقوصة . فلها شخصيتها المدنية وثروتها الخاصة ولا تكلف أى عبء فى نفقات الأسرة مهما كانت موسرة .

وليس الزواج فى الإسلام حائلا فى سبيل السمو الروحى ولكنه

وسيلة تؤدى إلى زيادة هذا السمو ، فقد خلق الله الزوجين ليسكن بعضهما إلى بعض : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾[1] .

وينظر الإسلام إلى الزواج على أنه الوسيلة المثلى لرقى الإنسان ، الوسيلة الوحيدة لتنمية عواطف الحب والخير ، فالزواج حسب النظام الإسلامى الاجتماعى هو الحالة الطبيعية التى ينبغى لكل رجل وامرأة أن يندمج فيها . قال عليه السلام : (إنى أتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى) .

ويعتبر الزواج فى النظام الاجتماعى الإسلامى ميثاقا يعقد على أساس الحب المتبادل بين الرجل والمرأة فى حضور شهوده ، من المحتم إعلان ميثاق الزواج فالاعلان هو الفارق الوحيد بين الزواج والسفاح ، ويجب إعلان كل عقد زواج ولو بدق الدفوف .(أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد واضربوا عليه بالدفوف) .

ولا تفنى شخصية المرأة فى الرجل بالزواج ، فبينا لا تفقد شيئا من حقوقها المكتسبة كفرد فى الهيئة الاجتماعية البشرية فإن حياتها الجديدة تلقى عليها مسئوليات جديدة كما تجلب لها حقوقا جديدة : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾[2] .

وقد وضحت هذه النظرية جيدا فى الحديث الشريف : (كلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع ، والرجل راع ومسئول عن أهله ، والمرأة راعية ومسئولة عن بيت زوجها) .

والبيت هو الدولة فى صورة مصغرة ويسيطر عليه الرجل والمرأة معا ، ولكن ما لم يكن هناك تفاوت فى القوة بينهما فسيضطرب نظام

---

(١) البقرة ١٨٧ . (٢) البقرة ٢٢٨ .

هذه المملكة : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾[١] .

ويحض النظام الإسلامى بشدة على معاملة الزوجة معاملة طيبة ، فإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان : ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾[٢] . ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾[٣] ، والرحمة بالمرأة واجبة حتى فى حالة الكراهية : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾[٤] . قال ﷺ : (خياركم خياركم لنسائهم) ، وقال ﷺ ، فى خطبة الوداع : (أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، فاستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا » .

وإذا ما انفصمت الزوجية بالطلاق يتحمل الزوج وحده فى الإسلام جميع الأعباء الاقتصادية ، فعليه مؤخر صداق زوجته وعليه نفقتها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ما دامت فى العدة ، وعليه نفقة أولاده وأجور حضانتهم ورضاعتهم فى دور الحضانة ، وعليه وحده نفقات تربيتهم بعد ذلك ، فوضعت الشريعة الإسلامية المرأة فى أعلى مرتبة من قبل الزواج ومن بعده وسمت بها فى الحالتين إلى مستوى رفيع لم تصل بها إلى مثله بل لم تصل بها إلى ما يقرب منه أية شريعة أخرى من شرائع العالم قديمه ومتوسطه وحديثه .

إن الإسلام يعرف ضرورة ترك الباب مفتوحا لفصم عرى الزواج فى

---

(١) النساء ٣٤ .
(٢) البقرة ٢٣٤ .
(٣) النساء ١٩ .
(٤) النساء ١٩ .

ظروف استثنائية ، فقد كان الناس على طرفى نقيض قبل الإسلام فيما يختص بالطلاق . ففى الشريعة الهندوسية لا يفصم الزواج الذى يعقد بتاتا ، والطلاق فى الشريعة الموسوية فى يد الرجل وحده يستعمله وقتما يريد ، أما فى المسيحية فإن الطلاق لا يكون إلا إذا حدثت خيانة من الطرفين ولا يسمح مطلقا للمطلقين أن يتزوجا ثانية . أما الإسلام فقد اتخذ موقفا وسطا بين هذه الآراء المتغالية ، فهو يسمح بالطلاق ولكن يعتبره أمرا مكروها ويتلمس السبل الممكنة لإصلاح ذات البين ، فإذ يقر حق الزوجة فى الطلاق لسبب وجيه يحد من حق الزوج .

والزواج فى الواقع اتفاق بين الرجل والمرأة على أن يعيشا زوجين ، فإذا وجد أحد الطرفين أنه لا يستطيع أن يحيا مثل هذه الحياة وجب الطلاق . والعقلية الإسلامية على العموم تبغض الطلاق : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ولا يجوز الطلاق قبل محاولة الإصلاح : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾[1] .

قال ابن عابدين : « أما الطلاق فالأصل فيه الحظر أى الحرمة والإباحة للحاجة إلى الخلاص ، فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران للنعمة وإيقاع الأذى بها وبأهلها وأولادها . ولذا قالوا إن سببه الحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن الحاجة

---

(١) النساء ٣٥ .

المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولذا قال تعالى : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾[1] .

ولم يفرق الإسلام بين الزوج والزوجة فى حق طلب الطلاق ، فقد جاءت جميلة زوجة ثابت بن قيس إلى النبى — ﷺ — تطلب الطلاق من زوجها قائلة :

— يا رسول الله إنى لا أجد عيبا فى ثابت فى خلقه أو دينه ، إلا أنى لا أطيقه .

فلما سئلت هل ترد له الحائط (البستان) الذى أمهرها إياه ؟ وأجابت بنعم ، أمر النبى ثابتا أن يسترد بستانه ويطلقها .

وقد أسهب الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه « حقوق الإنسان فى الإسلام » عند التحدث عن تفرقة الإسلام بين الرجل والمرأة فى حق الطلاق ، قال : « يأخذ كثير من علماء الفرنجة المسيحيين على الإسلام أنه أباح الطلاق وجعله حقا للرجل وحده ، ويتابعهم فى ذلك بعض المتفرنجين من أبنائنا المصريين والمتفرنجات من بناتنا المصريات ؛ فيجأر هؤلاء وأولئك بالشكوى من الوضع الإسلامى ويطلبون إلى المشرع المصرى أن يتدخل فى هذا النظام ليقيمه على القواعد التى تسير عليها أمم الغرب المسيحى ؛ فيرفع بذلك بلدنا المتخلف البائس إلى مصاف الشعوب المتحضرة الراقية !

وقبل أن نرد على الفرنجة والمتفرنجين والمتفرنجات ، ونبين لهم الوضع الصحيح لنظام الطلاق فى الإسلام ، وهو الوضع الذى يجهله كثير

---

(١) النساء ٣٤ .

منهم ، ويتجاهله بعضهم مكابرة وعنادا واندفاعا وراء رغباتهم الآثمة فى الكيد للإسلام وتشويه تعاليمه وتوهين منزلته فى نفوس معتنقيه ، قبل أن نرد عليهم ونبين لهم الوضع الصحيح لنظام الطلاق فى الإسلام وأنه أمثل نظام عرفته الشرائع ، يجدر أن نلقى نظرة مجملة على نظام الطلاق فى أمم الغرب المسيحى ، وهو النظام الذى يريدوننا على السير عليه ويطلبون إلى أولياء أمورنا أن يستوردوه إلى مصر .

ترجع جميع المذاهب المسيحية التى تعتنقها أمم الغرب المسيحى إلى ثلاثة مذاهب : المذهب الكاثوليكى ، والمذهب الأرثوذكسى ، والمذهب البروتستانتى .

فالمذهب الكاثوليكى يحرم الطلاق تحريما باتا ولا يبيح فصم الزواج لأى سبب مهما عظم شأنه . وحتى الخيانة الزوجية نفسها لا تعد فى نظره مبررا للطلاق ، وكل ما يبيحه فى حالة الخيانة الزوجية هو التفرقة الجسمية (حسب تعبيرهم) بين شخصى الزوجين مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية ، فلا يجوز لواحد منهما فى أثناء هذه التفرقة أن يعقد زواجه على شخص آخر لأن ذلك يعتبر تعددا للزوجات ، والديانة المسيحية لا تبيح التعدد بحال . وتعتمد الكاثوليكية فى مذهبها هذا على ما جاء فى إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « لا يصح أن يفرق الإنسان ما جمعه الله » . وبعض الفرق التى انشعبت عن الكنيسة الكاثوليكية تبيح الطلاق فى حالة الخيانة الزوجية من الزوج أو الزوجة ، ولكنها تحرم كذلك على كلا الزوجين أن يتزوج بعد ذلك .

والمذهبان المسيحيان الآخران الأرثوذكسى والبروتستانتى يبيحان الطلاق فى بعض حالات محدودة من أهمها الخيانة الزوجية ، ولكنهما

كذلك يحرمان على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك .

وتعتمد المذاهب المسيحية التى تبيح الطلاق فى حالة الخيانة الزوجية على ما ورد فى إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « من طلق امرأته إلا بسبب الزنا يجعلها تزنى » .

وتعتمد المذاهب المسيحية فى تحريمها الزواج على المطلق والمطلقة على ما ورد فى إنجيل متى كذلك إذ يقول : « من يتزوج مطلقة يزنى » .

هذه هى مسيحيتهم وهذه هى أناجيلهم ، وأقول « مسيحيتهم » لأن المسيحية الحاضرة التى يعتنقونها تختلف كل الاختلاف عن النصرانية التى يحدثنا عنها القرآن ويذكر أن الله أرسل بها عيسى إلى قومه ، فالقرآن يحدثنا عن ديانة سماوية سمحة قائمة على الاعتقاد بوحدانية الله ورعاية مصالح العباد ، أما نصرانيتهم فهى أمشاج من التثليث الهندى والوثنية الرومانية القديمة وعناصر أخرى أخذت من هنا وهناك ومزج بعضها ببعض فى تكوين متنافر غريب . وهى فيما يتعلق بالتشريع الدنيوى لا تقيم وزنا لطبيعة الإنسان ولا ترعى مصالح العباد كما سيظهر لنا ذلك من تحليلنا لما تذهب إليه بصدد الطلاق . وأقول « أناجيلهم » لأن هذه الأناجيل تختلف كل الاختلاف عن الكتاب المقدس الذى يحدثنا القرآن أن الله أنزله على عيسى . وهى فى معظم ما تحتوى عليه تحريف لكلم الله عن مواضعه وتلفيق من صنع باباواتهم وكنائسهم ومجامعهم ، بل إن مسيحهم نفسه ليختلف كل الاختلاف عن المسيح الذى يحدثنا عنه القرآن ، فالمسيح فى القرآن إنسان من البشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، أما مسيحهم فهو كائن غريب تحار فى إدراكه العقول : هو ابن الله (أرسله أبوه إلى بنى آدم ليقتلوه أو يصلبوه فيكفر بدمه الخطيئة

التى ظلت عالقة بهم جميعا منذ أن عصى أبوهم آدم وأكل من الشجرة ، والتى كانت ستظل عالقة بهم إلى يوم يبعثون لولا أن افتداهم الله بالتضحية بابنه العزيز) ، وهو فى الوقت نفسه إله ، أو جزء من إله أو إنسان وإله فى آن واحد .

ولكن لنترك هذا الموضوع فالحديث فيه طويل وذو شجون ، ولنتأمل فيما تقرره مسيحيتهم وأناجيلهم فى الموضوع الذى نحن بصدده وهو نظام الطلاق .

فإذا بلغ الشقاق بين الزوجين إلى حد استحال عنده الصلح وأصبحت معه الحياة الزوجية جحيما لا يطاق ، وأصبح أفراد الأسرة جميعا ذكورهم وإناثهم صغارهم وكبارهم مهددين من جراء ذلك بأسوأ النتائج وشر الكوارث فى مختلف فروع حياتهم المادية والمعنوية والخلقية ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم على هذين الزوجين الطلاق وتأمرهما أن يبقيا معا على هذه الحال وفى هذا الجحيم وليكن ما يكون من معقبات ، لأن « ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » .

وإذا تنافرت طباع الزوجين كل التنافر ، أو ألقى فى نفس أحدهما أو كليهما كراهية شديدة للآخر حتى إنه ليفضل أن يرى الموت ولا يراه ، وعجزت جميع الوسائل الإنسانية عن علاج هذه الحال لأن القلوب بيد الله ولا سلطان لأحد على كثير من شئونها ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم على هذين الزوجين الطلاق وتأمرهما بأن يقضيا حياتهما على هذه الحال وفى هذا العذاب ، لأن « ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » .

وإذا فسدت أخلاق أحد الزوجين ولم يرع لعقد الزواج عهدا ولا

حرمة ، واندفع فى تيار الفسق والفجور وأصبح فضيحة الفضائح لكل من ينتمى إليه ومصدر شر وبيل لكل من يتصل به ، وعجزت جميع وسائل التقويم عن إصلاحه ورده إلى الطريق المستقيم ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم الطلاق منه وتوجب على الزوج الآخر أن يبقى معه على هذه الحال . وقد تتساهل أحيانا فتسمح له بالانفصال عنه بجسمه فحسب أو بطلاق صورى بدون أن تسمح له بأن يستأنف حياة أخرى صالحة مع زوج آخر أو زوجة أخرى ، لأن « ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » . ولأن « من يتزوج مطلقة يزنى » .

وإذا جن أحد الزوجين جنونا مطبقا وفقد جميع مميزات الحيوان الناطق ، بل أصبح فى تصرفاته أضل سبيلا من الأنعام ومصدر خطر كبير لكل من يعاشره ، أو أصيب بمرض معد خطير لا يرجى برؤه ، أو فقد مقومات جنسه ، أو كان عقيما لا يلد فأصبح لا يحقق أهم غرض من أغراض الزواج ، أو غاب غيبة طويلة ولم يعرف أحى هو أم ميت أو حكم عليه بالسجن المؤبد ، أو أعسر ولم يستطع الإنفاق على الزوجة وأصبحت الزوجة بذلك معرضة إذا بقيت على ذمته لأن تموت جوعا أو تأكل بثدييها ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل لا تسمح بطلاقه فى حالة من هذه الحالات ، وإن سمحت به لا تسمح للمطلق أن يتزوج لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » ، ولأن « من يتزوج مطلقة أو مطلقا يزنى » ، ولا تسمح بأن يبقى الزوج على زوجة هذه حالها ويتزوج معها زوجة أخرى لأنها تحرم التعدد على أى حال .

وقد رفعت أخيرا سيدة مسيحية مصرية تدعى السيدة زاهية عازر مرقس دعوى أمام محكمة قنا الابتدائية للأحوال الشخصية ضد زوجها

تطلب فيها تطليقها منه لأنه تركها بدون الإنفاق عليها ، و لم تستطع تنفيذ أحكام النفقة التى كانت قد استصدرتها ضده بسبب إعساره ، وبعد أن استعرضت المحكمة وقائع هذه القضية قضت برفضها اعتمادا على « أن أحكام الشريعة المسيحية مدونة فى الإنجيل ، وقد أشار فى مواضع متعددة إلى رابطة الزوجية فوصفها بأنها رابطة مقدسة وهى سر من أسرار الكنيسة السبعة . وحرم على بنى الإنسان التعرض لها أو حل عقدتها لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » . ومضت المحكمة تقول : « وإنه من العجيب أن بعض القوامين على الدين من رجال الكنيسة وأعضاء المجلس الملى العام قد سايروا التطور الزمنى فاستجابوا لرغبات ضعيفى الإيمان فأباحوا الطلاق لأسباب لا سند لها من الإنجيل ، وحكم الشريعة المسيحية فى الطلاق قاطع فى أنه غير جائز إلا لعلة الزنا ، ورتب على زواج أحد المطلقين بأنه زواج مدنس بل هو الزنا بعينه » ، وانتهت المحكمة إلى « أنها لا تستطيع ، وقد نيط بها تطبيق أحكام الشريعة المسيحية مسايرة المدعية فيما تطلبه من طلاق تستند فيه إلى الإعسار ، وهو سبب لا يمت إلى علة الزنا بصلة من أى نوع كانت ، ومن ثم يتعين الحكم برفض الدعوى » .

وإذا كان مسلك أحد الزوجين أو كليهما حيال الآخر أو معاملته له تنطوى على ضرر بليغ أو على ضرار متبادل وعجزت جميع طرق العلاج عن إصلاح هذه الحال ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم كذلك الطلاق « لأن ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » .

وإذا رأى الزوجان نفساهما أن استمرار زوجيتهما متعذر من جميع الوجوه ، وأراد كل منهما أن يفارق الآخر بالمعروف ليغنى الله كلا من

سعته ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل لا تقرهما على ما يريدان وتأمرهما بأن يبقيا رغم أنفيهما على حال يتعذر الإبقاء عليها ولا يريد أحد منهما أن يبقى عليها ، وليكن ما يكون من معقبات لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » .

* * *

وليت شعرى ! ما بال إلههم هذا الذى بلغ فى جموده وعجزه أنه يجمع ولا يستطيع أن يفرق ؟ ثم لماذا ينسبون الجمع لله وينسبون التفرقة للإنسان ، حتى التفرقة التى يقتضيها الصالح العام ويتحقق بها الخير والاستقرار العائلى والاجتماعى ؟

ولما كانت الحالات التى ضربنا أمثلة لها ليست حالات خيالية بل كثيرا ما تحدث وتحدث أشباه لها ونظائر فى حياة الآدميين ، ولما كان الغربيون من فصيلة بنى آدم وليسوا من فصيلة الجن أو الملائكة ، فقد رأوا أنه من المتعذر عليهم ما دامت طبيعتهم من طبيعة الإنسان أن يسيروا على تعاليم هذه المسيحية وهذه الأناجيل فى شئون الطلاق ، فاستحدثوا من القوانين المدنية ما يبيح لهم حل عقدة الزواج فى هذه الحالات وما إليها ، وساروا على هذه القوانين فى حياتهم العملية وتركوا قواعد الكنيسة تنعى من أقامها .

وفى نقد هذا النظام الكنسى يقول واحد من كبار فلاسفة المسيحيين أنفسهم وهو العلامة الإنجليزى بنذام Pentham فى كتابه « أصول التشريع » :

« حقا إن الزواج الأبدى هو الأليق بالإنسان والملائم لحاجته والأوفق لأحوال الأسرة والأولى بالأخذ .. ولكن إن اشترطت المرأة على الرجل

ألا تنفصل عنه حتى لو حلت فى قلوبهما الكراهة الشديدة مكان الحب لكان ذلك أمرا منكرا لا يسيغه أحد من الناس . على أن هذا الشرط موجود بدون أن تطلبه المرأة . إذ القانون الكنسى يحكم به فيتدخل بين العاقدين حال التعاقد ويقول لهما : أنتما تقترنان لتكونا سعداء فلتعلما أنكما تدخلان سجنا سيحكم إغلاق بابه .. ولن أسمح بخروجكما وإن تقاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء .. » . ويعلق الفيلسوف الإنجليزى على هذا الوضع بقوله : ولو كان الموت وحده هو المخلص من زواج هذا شأنه لتنوعت صنوف القتل واتسعت مذاهبه » .

ولكن لحسن الحظ استحدث المسيحيون من القوانين المدنية ما يفتح لهم أبوابا للطلاق ويعفيهم من أن يلجئوا إلى القتل أو الانتحار للخروج من هذا السجن .

وهذه الظاهرة وهى السير فى الأحوال الشخصية وفق قانون مدنى يختلف عن تعاليم الدين لا تكاد توجد فى غير شعوب الغرب المسيحى . فجميع أهل الملل والنحل الأخرى حتى البرهميون والبوذيون والوثنيون والمجوس يسيرون فى أحوالهم الشخصية وفق تعاليم دياناتهم . وقد نجد من بينهم من استحدث فى الأحوال العينية قوانين مدنية تختلف عن تعاليم دينه ولكننا لا نكاد نجد من بينهم من استحدث قوانين مدنية فى الأحوال الشخصية أى فى شئون الزواج والطلاق .. وما إلى ذلك . وأمكن لهذه الملل والنحل أن تساير الحياة العملية وتجارى طبيعة البشر فى هذه الشئون. والمسيحيون وحدهم هم الذين كفروا بدينهم من الناحية العملية فى الأحوال الشخصية على العموم وفى شئون الطلاق على الخصوص لأنهم هم أنفسهم قد وجدوا أن تعاليمه فى هذا الصدد تنكر الواقع وتتجاهل

طبيعة الإنسان ولا تصلح للتطبيق فى الحياة .

و لم يستطع رجال الدين المسيحيون سبيلا إلى صد هذا التيار ولا إلى الوقوف فى وجه المنطق والعقل وضرورات الحياة ، فتركوا الأمور تجرى فى أعنتها واكتفوا بأن يظهروا من حين لآخر على مسرح الحوادث حينما يتعلق الأمر بملك أو أمير أو عظيم ، وحينما تكون الظروف السياسية مواتية لظهورهم ليثبتوا وجودهم وليبقوا على شيء من سلطانهم الدينى كما حدث فى موضوع ملك انجلترا الأسبق إدوارد الثامن الذى أراد أن يتزوج بمطلقة ملكت عليه قلبه ، وكانت الظروف السياسية مواتية حينئذ لإحراج هذا الملك والوقوف فى سبيل رغباته فظهرت الكنيسة مهددة بأناجيلها وبأن « من يتزوج مطلقة يزنى » . فخير بين أن يمتثل لهذه الخرافات ويحتفظ بالعرش أو ينزل على حكم عقله وقلبه ويتنازل عن الملك . فآثر العقل على الخرافة والقلب على التاج ، ومن الغريب أنه كان معروفا لدى الخاص والعام ولدى الكنيسة والشعب أن هذا الملك كان يعاشر خليلته هذه وهى لا تزال فى عصمة زوجها قبل أن تطلق منه وكان لها جناح خاص فى قصره و لم يرتفع صوت من الشعب ولا من رجال الكنيسة بالاحتجاج على ذلك ؛ لأن هذه الأمور تعد فى عرفهم من الهنات الهينات ، ولكن حينما أبدى رغبته بعد أن تمت إجراءات طلاقها من زوجها الأول بأن يتزوجها على سنة الأب والابن وروح القدس ، وبأن يعاشرها معاشرة مشروعة ، معاشرة الزوج لزوجه لا معاشرة الخليل لخليلته ، قامت فى وجهه الكنيسة وقام فى وجهه رجال الدين . وقد حدث مثل ذلك أخيرا للأميرة مرجريت أخت ملكة الإنجليز الحالية . فقد أرادت أن تتزوج من ضابط أحبته وأحبها (الكابتن

تاونسند) فقامت قيامة الكنيسة فى وجهها لأن هذا الضابط قد طلق زوجة من قبل ، وقاعدة الكنيسة أن من يتزوج مطلقا يزنى ؛ مع أن طلاقه هذا كان قد تم وفق الأوضاع المدنية والكنيسة نفسها لأن زوجته السابقة قد ثبتت عليها الخيانة الزوجية بأدلة قاطعة ، والكنيسة البروتستانتية نفسها التى يدين بها الإنجليز تبيح الطلاق فى هذه الحالة .

وهكذا لا يظهر رجال الكنيسة بسخافاتهم هذه إلا حينما يكون الأمر متعلقا بملك أو أمير أو عظيم وحينما تكون الظروف السياسية مواتية لظهورهم ، ولا يقصدون بذلك إلا انتهاز الفرص لإثبات وجودهم فى صورة بارزة والإبقاء على شيء من سلطانهم الدينى والظهور أمام الشعب بمظهر الحلال والقدسية ، وإقامة الدليل له بطريق عملى على أن مكانتهم فوق مكانة التيجان ومنزلتهم فوق منزلة الأمراء والملوك . ولا أدل على ذلك من أن آلافا من حالات الطلاق وزواج المطلقين والمطلقات تحكم بها المحاكم الأوربية والأمريكية وتنفذها الهيئات المدنية فى مختلف شعوب الغرب المسيحى على مرأى من الكنيسة ومسمع منها بدون أن تحرك ساكنا أو تقوى على الاعتراض على القوانين التى تبيح ذلك أو على حالات تطبيقها . ولا أدل على ذلك أيضا من أن رئيس وزراء إنجلترا (سير أنطونى إيدن) قد طلق زوجته الأولى التى هربت مع عشيق لها إلى أمريكا وهو الآن متزوج غيرها ، ولم يرتفع صوت من الكنيسة بالاعتراض عليه ولا على توليه أكبر منصب فى الدولة لأن الظروف السياسية غير مواتية لارتفاع مثل هذا الصوت .

هذا هو النظام المسيحى الذى أهمله أهله أنفسهم ، لما تبين لهم من فساده وعدم ملاءمته للحياة الواقعية ، ولكنهم يريدوننا نحن أن نسير عليه

وأن نترك نظامنا الإسلامى ، ويتابعهم فى هرائهم هذا المتفرنجون من أبنائنا والمتفرنجات من بناتنا وهم لا يدرون أن الفرنجة لا يقصدون بذلك إلا الكيد للإسلام وتشويه تعاليمه القديمة وتوهين منزلته فى نفوس معتنقيه وإشاعة الفوضى والانحلال فى الأمم الإسلامية .

قد يقول السفهاء من الفرنجة والمتفرنجين والمتفرنجات إنهم لا يريدون أن نسير على النظام المسيحى بل يريدون أن نسير على غرار النظم المدنية التى تسير عليها أمم الغرب فى شئون الطلاق . ولكن هل نجحت هذه النظم لديهم حتى نستوردها منهم ؟ الحقيقة أنها قد أخفقت لديهم إخفاقا مبينا كما أخفق نظامهم الدينى ، وضاعت بين هذا وذاك مقومات الأسرة عندهم وأصبحت مهددة بالانهيار ، بل إنهارت بالفعل فى كثير من شعوبهم ولم يبق منها إلا صور فاسدة قد بعدت كل البعد عن النظام العائلى السليم وأصبحت لا تحقق شيئا من أهدافه .

فقد انقسمت قوانينهم المدنية فى شئون الطلاق إلى طائفتين :

فأما الطائفة الأولى فقد فرطت كل التفريط فى احترام عقد الزواج فلم ترع ما له من حرمة وقدسية وجلال ، فأجازت الطلاق لأتفه الأسباب كما هو الشأن فى بعض ولايات أمريكا الشمالية . فلم يصبح غريبا فى هذه الولايات أن تتزوج المرأة فى الصباح وتطلق من زوجها فى المساء وهذا هو قصارى ما يصل إليه الاستهتار بنظم الاجتماع الإنسانى والانهيار فى قواعد الأسرة .

وأما الطائفة الثانية فقد توسعت بعض التوسع فى شئون الطلاق بالقياس إلى النظام المسيحى ، ولكنها لا تزال متأثرة بروح الكنيسة فلم تبح الطلاق إلا فى حالات محدودة وبطرق وإجراءات معقدة كل

التعقيد ، ولا تنتهى إلى الطلاق إلا بعد أمد طويل كما هو الحال فى فرنسا ومعظم الأمم الكاثوليكية . فالقانون المدنى الفرنسى لا يبيح الطلاق إلا لواحد من ثلاثة أسباب : أحدها الزنا من أحد الزوجين ، وثانيها تجاوز الحد والإهانة البالغة فى معاملة أحد الزوجين للآخر ، وثالثها الحكم على أحد الزوجين بعقوبة قضائية مهينة ، فالمرض والإصابة بعاهة والجنون نفسه حتى لو أدى إلى تجاوز الحد فى المعاملة والغيبة الطويلة والشقاق البالغ واتفاق الطرفين على الفرقة ... كل ذلك وما إليه لا يبيح الطلاق فى نظر القانون . وأحد الأسباب الثلاثة التى ذكرها هذا القانون وهو الحكم بعقوبة قضائية مهينة لا يتحقق إلا فى حالات المجرمين . والسبب الثانى وهو تجاوز الحد والإهانة البالغة فى معاملة أحد الزوجين للآخر يصعب إثباته ، ولذلك يعتمد معظم من يريدون الطلاق هناك على السبب الثالث وهو الزنا فيجمعون الأدلة اللازمة لإثباته وإقناع القضاء به إن كان قد حدث بالفعل من أحد الزوجين ، أو يلفقونه تلفيقا ويقدمون لإثباته أدلة مزيفة ووثائق مختلقة ويقرون باقترافه كذبا أمام القضاء لتسهل عليهم الفرقة . فلا يكاد يستطاع الطلاق إذن بحسب هذه الطائفة من القوانين إلا إذا تهيأ لها سبب واحد وهو عار الأبد للزوج والزوجة وأولادهما ونسلهما وأسرتيهما وجميع من يلوذ بهما . مع ذلك لا يتم الطلاق إلا بنفقات باهظة لا يقوى عليها إلا كبار الأغنياء ، وبعد إجراءات طويلة معقدة تستغرق فى الغالب عدة سنين ، ويحكم فيها أولا بالتفرقة الجسمية فحسب Separation de corps ثم تستغرق مدة أخرى حتى يحكم بالطلاق .

ومن ثم كثر فى هذه الشعوب اتخاذ الزوجات للأخلاء واتخاذ الأزواج

للخليلات وهجر الأزواج والزوجات لمنزل الزوجية وفرار الزوجات مع عشاقهن والأزواج مع عشيقاتهن ، وأصبحت هذه الأمور وما إليها فى كثير من بلاد أوربا وأمريكا شيئا عاديا ، وأصبحت الأسرة شيئا لا قيمة له ، وأصبحت علائق النسب الصحيح بين الآباء والأولاد موطن الشك وفريسة الارتياب .

هذه هى نظمهم المدنية : طائفة منها تجرد عقد الزواج مما له من حرمة وقدسية وجلال فتبيح الطلاق لأتفه الأسباب ، وطائفة أخرى تتشدد كل التشدد فلا تكاد تبيحه إلا لفضيحة تلحق الأسرة فى حاضرها ومستقبلها ، وبإجراءات معقدة طويلة ، هذه بلغت حد الإفراط وتلك بلغت حد التفريط ، وكلاهما يؤدى إلى شر مستطير ، ومن ثم اضطرب نظام الأسرة وانهارت قواعدها فى معظم أمم الغرب المسيحى .

فهذه الأمم لم تخرج إذن عن نظام الكنيسة الفاسد فى شئون الطلاق إلا لتسير على نظم مدنية لا تقل عنه كثيرا فى فسادها وما تؤدى إليه من اضطراب فى شئون الأسرة وانهيار فى مقومات الأخلاق .

* * *

والآن وقد تبين لنا فساد نظامهم المسيحى ونظامهم المدنى كليهما فى الطلاق ، وظهر لنا أن استيراد أحدهما كما ينادى بذلك الجهلة من المتفرنجين من أبنائنا المصريين والمتفرنجات من بناتنا المصريات ، سيؤدى حتما إلى انهيار الأسرة والقضاء على جميع مقوماتها . الآن وقد تبين لنا كل ذلك يجدر أن نعرض نظام الطلاق فى الإسلام ، وهو النظام الذى ينقده الفرنجة والمتفرنجون والمتفرنجات ويزعمون أنه قائم على عدم المساواة بين الزوج وزوجه ، ليظهر لنا إن كانوا فى نقدهم إياه على هدى أو فى ضلال مبين .

أجل ! لقد أباح الإسلام الطلاق لأنه دين يشرع للحياة الواقعية التى يضطرب فيها بنو الإنسان ، ولأنه كثيرا ما يحدث فى هذه الحياة ما يقتضى الطلاق ، بل ما يجعله ضرورة لازمة ووسيلة متعينة للاستقرار العائلى والاجتماعى .

ولكن الإسلام لم يبحه على الإطلاق بل قيده بقيود تكفل تحقيق الصالح العام وصالح الأسرة نفسها ، وتكفل تحقيق التوازن فى حقوق كل من الزوجين وواجباته والمساواة بين كفتيهما فى هذه الشئون .

فالإسلام يحيط عقد الزواج بسياج من القدسية ، ويضفى عليه من الجلال ما يميزه عن سائر العقود ، ويسمو به فوق ما يرتبط به الناس فى شئون حياتهم من التزامات ، وينزله فى النفوس منزلة المهابة والإكبار . ولذلك وصفه القرآن بما لم يصف به أى عقد آخر فسماه بالميثاق الغليظ ، قال تعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾[1] . وغنى عن البيان أن ميثاقا ينظر إليه الإسلام هذه النظرة لا يمكن أن يكون فصمه من الهنات الهينات .

ولذلك بغّض الإسلام الناس فى الطلاق وصوره فى أبشع صورة وحث المسلين على اتقائه ما استطاعوا سبيلا إلى ذلك . وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) ، ويقول : (تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن) .

ولم يكتف الإسلام بهذا الزجر وهذا الوعيد بل اتخذ من النظم فى شئون الأسرة ما يكفل تحاشى الطلاق إلا لأسباب قوية قاهرة .

---

(١) النساء ٢١ .

فقرر أنه لا يصح الالتجاء إلى الطلاق لأسباب يمكن علاجها ، أو لأمور يمكن أن تتغير فى المستقبل ، أو لا تحول بطبعها دون استقرار الحياة الزوجية على وجه ما ، وحتى الأمور التى تتعلق بعاطفة الزوج نحو زوجته أو بكراهيته لبعض أحوالها لا يعدها الإسلام من مبررات الطلاق . فالإسلام يرى أنه لا ينبغى أن يفكر الأزواج فى الطلاق لمجرد تغير عاطفتهم نحو زوجاتهم أو طروء كراهية لهن ، أو لمجرد عدم ارتياحهم إلى بعض أحوالهن وأخلاقهن التى ليس فيها ما يمس الشرف أو الدين ؛ لأن هذه العواطف متقلبة متغيرة ولا يصح أن تبنى عليها أمور خطيرة تتعلق بكيان الأسرة ، وبغيض الإنسان اليوم قد يصبح حبيبه يوما ما ، والزوج إن كره من امرأته خلقا فقد يكون فيها خلق آخر يرضيه ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾[١] . ويقول عليه الصلاة والسلام : (لا يفرك[٢] مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر) ، أى لا ينبغى للمؤمن أن يكره زوجته لخلق واحد لا يعجبه منها ويتغاضى عما بها من أخلاق أخرى فاضلة تعجبه . وجاء رجل إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يستشيره فى طلاق امرأته ، فقال له عمر لا تفعل ، فقال ولكنى لا أحبها ، فقال له عمر ويحك ألم تبن البيوت إلا على الحب فأين الرعاية وأين التذمم ؟ ! . يقصد أن البيوت إذا عز عليها أن

---

(١) النساء ١٩ .

(٢) فرك الرجل زوجه ، من باب سمع ، كرهها وأبغضها وفركته كذلك ، (انظر القاموس المحيط) .

تبنى على الحب فهى خليقة أن تبنى على ركنين آخرين شديدين : أحدهما الرعاية التى تبث المراحم فى جوانبها ويتكافل بها أهل البيت فى معرفة ما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات ، وثانيهما التذمم والتحرج من أن يصبح الرجل مصدرا لتفريق الشمل وتقويض البيت وشقوة الأولاد وما قد يأتى من وراء هذه السيئات من نكد العيش وسوء المصير .

ومن النظم التى قررها الإسلام كذلك لتحاشى الطلاق أنه أمر الزوجين عندما يحدث بينهما شقاق أو نفور أن يعملا على إزالته بإثارة دواعى الرحمة والوئام ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير﴾[١] .

ومن النظم التى قررها الإسلام كذلك لتحاشى الطلاق أنه أوجب على الزوجين إذا لم يستطيعا أن يصلحا ما بينهما بنفسيهما ويحققا الوفاق بوسائلهما الخاصة ، أن يعرضا أمرهما على مجلس عائلى يتألف من حكمين : حكم من أهل المرأة وحكم من أهل الرجل ، ليبحثا أسباب الشقاء ويعملا على القضاء على مثيراته ويوفقا بين رغبات الزوجين حتى يحل الصفاء والوئام محل النفور والخصام ، ولا ينتظر الإسلام حدوث الشقاق بالفعل لإجراء هذا التحكيم بل إنه ليأمر به عند مجرد الخوف من حدوث الشقاق ، أى عند وجود بوادر تنذر به ولا يمكن للزوجين القضاء عليها بوسائلهما الخاصة . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا

---

(١) النساء ١٢٨ .

يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا ﴾[1] .

ومن الأمور التى قررها الإسلام كذلك لتحاشى الطلاق أنه قد رتب عليه من الناحيتين المالية والاجتماعية نتائج خطيرة وألقى بسببه على كاهل الزوج أعباء ثقيلة ، وأن من شأن هذه النتائج والأعباء أن تحمل الزوج على ضبط النفس وتدبر الأمر قبل الإقدام على الطلاق . فقد قرر أنه يجب على الزوج إذا طلق زوجته أن يوفيها مؤجل صداقها ويقوم بنفقتها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ما دامت فى العدة ، وتكون حضانة أولادها الصغار لها ولقريباتها من بعدها حتى يكبروا ، ويقوم بنفقة أولادها منه وأجور حضانتهم ورضاعتهم فى دور الحضانة حتى لو كانت الأم نفسها هى التى تقوم بذلك ، قال تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾[2] .

فإذا لم يستطع مجلس التحكيم أن يوفق بين الزوجين و لم تجد الوسائل السابقة جميعا و لم تثن الزوج عن عزمه على الفرقة ، كان فى ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تتهدد استقرار الأسرة ، وعلى أن الحياة الزوجية قد فقدت أهم مقوماتها .

فحينئذ يجيز الإسلام للزوج الطلاق لمصلحة الأسرة نفسها ولتحقيق الصالح العام .

وحتى فى هذه الحالة قد احتاط الإسلام للأمر فوضع للطلاق نظما تتيح للزوج فى أثناء إجراءات الفرقة فرصة طويلة ليراجع نفسه ويعدل عما شرع فيه إن كان ثمة سبيل للإبقاء على الحياة الزوجية .

---

(١) النساء ٣٥ .   (٢) الطلاق ٦ .

فقد قرر أن يبدأ الرجل بعد استنفاد الوسائل السابقة جميعا بتطليق زوجته طلقة واحدة رجعية فى طهر لم يتصل بها فى أثنائه . وإنما قرر ذلك لأن الطهر هو فترة كمال الرغبة فى المرأة ، والرجل لا يقدم على طلاق امرأته فى فترة كمال رغبته فيها إلا لشدة الحاجة إلى الفرقة ، ففى ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تستدعى الطلاق .

فإذا أوقع هذه الطلقة الرجعية الأولى كان مخيرا بين أمرين :

الأمر الأول أن يراجع زوجته فى أثناء عدتها ، والعدة لغير الحامل تستغرق مدة طويلة تبلغ ثلاثة قروء أى نحو ثلاثة أشهر . فالإسلام قد أعطى المطلق حتى بعد الطلاق فرصة طويلة يراجع فيها نفسه ويرد فى أثنائها زوجته إليه إن كان ثمة سبيل للإبقاء على الحياة الزوجية ، ولتسهيل الإبقاء على الحياة الزوجية يقرر الإسلام أن هذه المراجعة لا تحتاج إلى أى إجراء وأنها تتم بمجرد اتصال الرجل بمطلقته أو تقبيله إياها .. وما إلى ذلك ، كما تتم بمجرد قوله راجعت امرأتى أو عبارة من هذا القبيل . ولكى تكثر بواعث المراجعة ودواعى الإبقاء على الزوجة أوجب الإسلام على الزوج ألا يخرج زوجته المطلقة من منزل الزوجية ما دامت فى عدتها ؛ قال تعالى : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ... ﴾ إلى أن قال : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾[1] . ويشير القرآن الكريم إلى تفضيل المراجعة والإبقاء على الزوجية إذ يقول : ﴿ وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا ﴾[2] ، فوصف الرد بأنه إصلاح لما حدث . ويشير القرآن إلى

---

(١) الطلاق ٢ .

(٢) البقرة ٢٢٨ .

ذلك أيضا إذ يقول فى آية الطلاق : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ . ويختم الآية بقوله : ﴿ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾(١) . فالقرآن الكريم يشير إلى أن الله قد شرع الطلاق فى أول العدة أى فى طهر لم يمس الرجل زوجته فى أثنائه ، وشرع أن تظل المرأة من بعده فى منزل الزوجية طوال مدة عدتها ، وشرع كل ذلك ليعطى الزوج فرصة طويلة للتأمل ولتكثر بواعث الرجعة ودواعى الإبقاء على الزوجة ، فلعل الله يحدث أمرا بعد ذلك فيرجع الزوج عما أبرمه ويراجع زوجته .

والأمر الثانى الذى يباح للزوج أن يفعله بعد هذه الطلقة أن يترك زوجته حتى تبلغ أجلها وتنقضى عدتها فتطلق منه طلقة بائنة ، وحتى بعد ذلك يظل الإسلام حريصا على الإبقاء على الزوجية وعلاج ما حدث ، فيجيز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته بعقد ومهر جديدين .

فإذا راجعها إلى عصمته فى أثناء عدتها أو تزوجها مرة ثانية بعقد ومهر جديدين بعد انقضاء عدتها ثم شجر بينهما ما يجعله يعزم الطلاق من جديد ، وجب عليه أن يسير فى هذه المرة الثانية على الأوضاع نفسها التى شرعت له فى المرة الأولى ، ويعطيه الإسلام فى هذه المرة الثانية من فرص المراجعة وإعادة الزوجية ما أعطاه فى المرة الأولى .

فإذا عاد إلى معاشرة زوجته بمراجعتها فى أثناء عدتها أو بالعقد عليها بعد انقضائها وبعد أن طلقها مرتين فإنه لا يبقى له عليها بعد ذلك إلا

طلقة واحدة .

فإذا أوقعها عليها فى الأوضاع السابق بيانها كان ذلك دليلا على أن الخرق قد اتسع على الراقع ، وأن الحياة الزوجية قد أصبحت غير محتملة بين الزوجين ، وأنهما كلما حاولا جبرها اختل عليهما نظامها ، فحينئذ يقرر الإسلام الفرقة بينهما نهائيا ولا تحل له بعد ذلك حتى تنمحى آثار العقد الأول والحياة الزوجية الأولى انمحاء تاما ؛ وذلك لا يكون إلا إذا تزوجت من شخص آخر وانتهى الأمر بطلاقها منه طلاقا عاديا ، ورأى كلاهما بعد هذه المدة الطويلة وبعد تغير الأحوال على هذا الوجه أنه من الممكن استعادة الحياة الأولى على وضع أقوم وأمثل .

وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ ، إلى أن يقول « تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ، فإن طلقها فلا تحل له من بعد ﴾ (أى من بعد هذه الطلقة الثالثة) ﴿ حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها ﴾ (أى هذا الزوج الآخر طلاقا عاديا وانقضت عدتها منه) ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾[٢] أى طلقوهن فى قُبُل عدتهن أى فى أول مرحلة فيها ، وذلك لا يكون إلا إذا طلقها فى طهر لم يمسها فيه ، لأن الحيض والطهر الذى يمس الرجل المرأة فى أثنائه لا يحسبان من العدة ﴿ وأحصوا العدة واتقوا

---

(١) البقرة ٢٣٠ .

(٢) الطلاق ١ .

الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾[١] . وروى مالك فى الموطأ عن نافع « أن عبد الله ابن عمر طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله — ﷺ — فسأل عمر بن الخطاب رسول الله — ﷺ — عن ذلك فقال عليه السلام : مره فليراجعها فليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسكها بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » . ويشير عليه السلام بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ ، أى يجب أن يكون الطلاق فى أول عدة أى فى طهر لم يمس الرجل امرأته فى أثنائه .

هذا هو نظام الطلاق فى الإسلام وهذه هى إجراءاته المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ، وإيقاع الطلاق على غير هذا الوجه مخالف لما شرعه الإسلام بل لا تترتب عليه الفرقة فى بعض المذاهب ، وهى مذاهب تتفق مع نصوص الكتاب والسنة السابق ذكرها ، ولا أدل على ذلك من أن الرسول عليه السلام لم يعتد بالطلقة التى أوقعها ابن عمر على زوجه فى حالة الحيض و لم يعتبرها طلقة ، فقد روى ابن جريج عن ابن الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن يسأل ابن عمر عن ذلك فقال له إن رسول الله عليه السلام « ردها علىّ و لم يرها شيئا » أى لم يعتد بهذه الطلقة .

صحيح أن عمر بن الخطاب قد أنفذ فى أيام خلافته أنواعا من الطلاق

---

(١) الطلاق ١ ، ٢ .

لا تتفق مع هذا النظام المشروع ، منها طلاق الرجل لامرأته ثلاث طلقات متتاليات فى مجلس واحد أو فى طهر واحد . ولكن السبب فى ذلك يرجع إلى أن كثيرا من الناس فى عهده كانوا قد استهانوا بحرمة الزواج وكثر إيقاعهم للطلاق فى صور غير مشروعة ليخوفوا زوجاتهم بذلك ويوقعوا الرعب فى قلوبهن حتى يخشين الرجال ويحاذرن إغضابهم حرصا على الزوجية . فأراد عمر أن يشدد عليهم وأن يعاقبهم من جنس عملهم حتى يرتدعوا ويرجعوا عن غيهم ويحفظوا للزواج حرمته وقدسيته ولا يتلاعبوا بألفاظ الطلاق . فأنفذ ما كانوا يوقعونه من طلاق مخالف للوجه المشروع ، وقال فى ذلك قولته المشهورة التى تبين بأوضح عبارة عن مقصده : « أيها الناس ! قد كان لكم فى الطلاق أناة ، وأنه من تعجل أناة الله فى الطلاق ألزمناه إياه » . — فكان ذلك من عمر رضى الله عنه مجرد إلزام بحكم السياسة الشرعية فى النظر إلى المصالح ومجرد إجراء مؤقت للزجر ولعلاج حالة طارئة وعادة سيئة انتشرت حينئذ ، ولتخويف الناس من نتائج التلاعب بالطلاق . ولم يكن غرضه أن يقرر تشريعا دائما للمسلمين ولا أن يغير شريعة الله فى الطلاق .

ولقد أحسن المشرع المصرى صنعا إذ قرر فى القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ أن الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة يقع طلقة واحدة . وينبغى ألا يقتصر المشرع المصرى على ذلك وأن يصدر قوانين أخرى تحظر جميع أنواع الطلاق المخالفة للنوع المبين فى الكتاب والسنة والذى أشرنا إلى أوضاعه فيما سبق ، ولا تعتد بغيره من أنواع الطلاق وتجعل ما عداه عبارات من منكر القول ولغو الأيمان ، ففى ذلك إحقاق للحق ورجوع بنظام الطلاق إلى الأوضاع الصحيحة التى سنها الإسلام وانحرف عنها

المسلمون . فليس المقصود من الطلاق اللعب واللهو حتى يزعم الرجل لنفسه أنه يملك الطلاق كما شاء وكيف شاء ومتى شاء ، وإنما هو تشريع منظم دقيق من لدن حكيم عليم شرعه الله لعباده منعا للحرج وعلاجا شافيا لما يكون فى الأسرة بين الزوجين من شقاق وضرار ، ورسم قواعده وحد حدوده بميزان العدالة الصحيحة التامة ، ونهى عن تجاوزها وتوعد على ذلك . ولذلك تنتهى أيات الطلاق دائما بذكر حدود الله والنهى عن تعديها والتحذير من المضارة ، فيقول الله تعالى عقب آيات الطلاق : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾[١] ؛ ﴿ وتلك حدود الله نبينها لقوم يعلمون ﴾[٢] ؛ ﴿ وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾[٣] ؛ ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾[٤] ؛ ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾[٥] .

وحتى لا يكون الطلاق نزوة عابرة ، وحتى يكون للزوج فرصة للتراجع وللمتصلين بالزوجين فرصة للتدخل حتى بعد استنفاد وسائل التحكيم السابق ذكرها ، ينص القرآن على أن يقع الطلاق على يدى شاهدين ، فيقول تعالى فى آية الطلاق : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾[٦] . ولا مانع عندى من أن يؤول المخرج فى

---

(١) البقرة ٢٢٩ .
(٢) البقرة ٢٣٠ .
(٣) الطلاق ١ .
(٤) البقرة ٢٣١ .
(٥) البقرة ٢٣٤ .
(٦) الطلاق .

الآية بالمخرج من الطلاق لتلاؤمه مع إيقاع الطلاق أمام شاهدين . وقد ذهب الشيعة الإمامية إلى وجوب الإشهاد فى الطلاق وأنه ركن من أركانه ، وأن كل طلاق بدون إشهاد يقع باطلا ولا يترتب عليه شىء . وحبذا لو أخذ المشرع المصرى بهذا الرأى الذى يتفق مع صريح القرآن ويتيح لمن يعزم الطلاق فرصة أخرى للتأمل والتدبر والتراجع عما اعتزمه ، كما يتيح فرصة أخرى للإصلاح بين الزوجين عن طريق الشاهدين اللذين يستدعيان للشهادة على الطلاق وهما يكونان عادة من ذوى الصلة الوثيقة بالزوجين .

هذا لم يدخر الإسلام وسعا فى إحاطة المرأة المطلقة بعطف كريم ورعاية رحيمة وفى العمل على حفظ حقوقها وحمايتها من الإضرار بها ، وذلك بما سنه من نظم رشيدة فى النفقة والحضانة والعدة والإرضاع وطرق إيقاع الطلاق وزمنه .. وما إلى ذلك ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم * وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[1] . ويقول : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة

---

(١) البقرة ٢٣١ ، ٢٣٢ .

واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ولا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا * فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾[١] . ويقول : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وائتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾[٢] . ويقول : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾[٣] .

وبجانب هذا النوع من الطلاق الذى شرعه الإسلام بعد الدخول بالزوجة وتوثق رباط الزوجية بينهما ، أجاز الإسلام طلاق الرجل لمن عقد عليها قبل أن يدخل بها إذا كان ثمة ما يدعو إلى ذلك ، حتى يتفرقا ويغنى الله كلا من سعته ، قبل أن يتم الدخول فيؤدى ذلك إلى الإضرار بكل منهما وإيذائه فى مستقبله . ومع ذلك فقد أوجب الإسلام على الرجل فى هذه الحالة نصف المهر المتفق عليه ، كما أوجب عليه المتعة للزوجة وهى تعويض لجبر إيحاش الطلاق يقدره الحاكم حسب الظروف وحسب حالة الزوج المالية وحسب ما لحق المرأة من ضرر[٤] . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو

---

(١) الطلاق ١ ، ٢ .

(٢) الطلاق ٦ .

(٣) النساء ٢٠ ، ٢١ .

(٤) يرى أبو حنيفة أن المتعة كسوة كاملة يقدمها الزوج لمطلقته .

تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على المُوسع قدرُه وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين * وإن طلقتوهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾(١) .

* * *

وبجانب هذين النوعين من الطلاق اللذين وكل الأمر فيهما إلى الزوج وحده فى الحدود السابق بيانها ، شرع الإسلام أربعة أنواع أخرى من الطلاق :

(أحدها) طلاق تستبد به المرأة ، وذلك إذا كانت قد اشترطت فى عقد الزواج أن تكون عصمتها بيدها أى أن تملك حق الطلاق وقبل زوجها ذلك . ففى هذه الحالة يكون لها حق الطلاق فى بعض المذاهب بشروط وأوضاع خاصة .

(وثانيها) طلاق يقع عند الإخلال بشرط اشترطته المرأة فى عقد الزواج . فإذا أخل الزوج بهذا الشرط وقع الطلاق فى بعض المذاهب ، على ألا يكون هذا الشرط شرطا فاسدا يتعارض مع مقومات الزوجية وحدود الله .

(وثالثها) طلاق يوقعه القاضى لإعسار الزوج وعدم قدرته على النفقة أو لاتقاء الضرر أو الضرار أو لغيبة الزوج غيبة طويلة ، وقد أخذ بذلك القانون المصرى رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ .

---

(١) البقرة ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(ورابعها) طلاق يقع عن تراض من الرجل والمرأة كليهما ، ويتم فى الغالب عن طريق تنازل المرأة عن جميع ما لها عند زوجها أو بعضه أو عن طريق إعطائه شيئا من المال يتراضيان عليه ، ويسمى هذا بالخلع ، ويحدث عندما ترى الزوجة تعذر الحياة الزوجية وتخاف إن أقامت مع زوجها على هذه الحال ألا تتمكن من إقامة حدود الله . وإلى هذا النوع يشير القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ . البقرة ٢٢٩[١] .

* * *

---

(١) انظر فى الأوضاع التى شرعها الإسلام للطلاق بحثا قيما لصديقنا الفاضل العلامة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر بعنوان « نظام الطلاق فى الإسلام » ، وقد كان هذا البحث من أهم مراجعنا فى هذه الفقرة .

هذا وبجانب هذه الأنواع من الفرقة التى شرعها الإسلام من قبل الدخول أو من بعده ، ويوجد نوعان من الإيمان لم يقرهما الإسلام ولكن رتب عليهما بعض النتائج .

أحدهما « الإيلاء » ، وهو أن يقول الرجل لامرأته : « والله لا أقربك » أو « لا أقربك أربعة أشهر » فصاعدا . فإذا قاربها فى أثناء أربعة أشهر لا يحسب ذلك طلاقا عليه ، وإنما تجب عليه الكفارة عن حنثه فى يمينه إن كان قد أقسم بالله . وإن لم يقربها حتى مضت الأشهر الأربعة اعتبرت مطلقة فى مذهب أبى حنيفة طلقة واحدة بائنة ، « لأنه ظلمها بمنع حقها » كما يقول فقهاء هذا المذهب « فجازاه الشرع بزوال نعمة الزواج عند مضى المدة » (البدائع جزء ثالث ، ص١٧٠ =

هذا النظام الرشيد الذى سنه الإسلام للطلاق ، فماذا يأخذ الفرنجة والمتفرنجون على هذا النظام الإلهى الحكيم ؟

يأخذون عليه ، فيما يتعلق بالموضوع الذى نحن بصدده على الأخص ، وهو موضوع المساواة ، أنه قد جعل الطلاق حقا للرجل وحده ، وحرم المرأة من ممارسته ؛ ويقولون إنه لما كان كل من الرجل والمرأة طرفا فى عقد الزواج وشريكا مع الآخر فى الحياة ، فإن منح حق الطلاق لأحدهما دون الآخر يتعارض مع أصول التعاقد ومع ما ينبغى أن تكون عليه المساواة بين الجنسين ، وأن الوضع السليم هو ألا يفسخ العقد إلا برضا الطرفين المتعاقدين معا ، أو إذا منح هذا الحق لأحدهما يجب أن يمنح كذلك للآخر .

= وتوابعها ، والميدانى على القدورى ، باب الإيلاء) . وعند الشافعى إذا مضت الأشهر الأربعة و لم يقربها فى أثنائها يوقف أمرها ويخير بين الفىء والتطليق . (البدائع ، جزء ثالث ص١٧٢) . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا ﴾ أى فإن رجعوا عما أقسموا عليه بأن قاربوا زوجاتهم ﴿ فإن الله غفور رحيم * وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾ (البقرة ٢٢٦ ، ٢٢٧) . ويفضل الإسلام أن يحنث الرجل فى يمينه فى هذه الحالة ليبقى على الزوجية . بدليل قوله تعالى : ﴿ فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ﴾ وبدليل قوله عليه الصلاة والسلام (من حلف منكم يمينا ورأى غيره خيرا منه فليفعل ما هو خير وليكفر عن يمينه) (أو كما قال) .

وثانيهما : (الظهار) وهو أن يقول الرجل لزوجته : « أنت على كظهر أمى » . أو عبارة من هذا القبيل . فلا يجوز فى هذه الحالة أن بقربها حتى يكفر عن طهارة الكفارة التى نص عليها القرآن . وقد استنكر القرآن الظهار فى عبارات =

وقد فاتت هؤلاء أمور كثيرة : فاتهم أن المرأة إن تبرم مع الرجل عقد الزواج على سنة الله ورسوله ووفق الشريعة الإسلامية تقبل بذلك أن يتولى الرجل وحده شئون الطلاق فى الحدود التى قررها الإسلام ، وتتنازل تبعا لذلك فيما يتعلق بالطلاق عن جميع الحقوق التى يمكن أن تنشأ عن اشتراكها فى عقد الزواج . فالزوج إذ يمارس الطلاق وحده إنما يمارسه بناء على رضا الزوجة ذلك الرضا الذى يتضمنه عقد الزواج نفسه . وفاتهم كذلك أن الإسلام قد راعى فى هذا الموضوع أن المرأة تغلب عليها العاطفة وسرعة الانفعال ، وأنه لا يقع عليها غرم مالى من الطلاق فلا يصح مع هذه الأوضاع وهذه الحالات النفسية والقانونية للمرأة أن يوضع فى يدها حق النظير كحق الطلاق ، وإلا لأصبحت الأسرة مهددة بالانهيار لأضعف نزوة عابرة وأوهى انفعال طارىء . على حين أن الرجل لا يندفع فى العادة مع عواطفه ووجداناته وانفعالاته اندفاع المرأة ؛ وهو وحده من جهة أخرى الذى سيقع عليه غرم الطلاق ؛ هذا إلى أنه القوام على الأسرة البصير بشئونها المقدر لجميع

= قوية كما استنكر الإيلاء ، وإن كان قد رتب على كل منهما النتائج السابق بيانها ، وفى الظهار يقول الله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون من نسائهم ما هن أمهاتهم * إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم * وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله * وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ . (المجادلة : ٢ — ٤) .

ظروفها ؛ فاقتضت الحكمة الإلهية أن يمنح هذا الحق بالقيود التى ذكرناها ، وهى قيود تكفل عدم استخدامه له إلا حيث يقتضى ذلك صالح الأسرة والصالح العام ، وتكفل عدم الإضرار بالمرأة .

هذا إلى أن الإسلام كما تقدم قد أباح الطلاق عن تراضى الطرفين فى صورة الخلع ، بل أباح أنواعا من الطلاق تستأثر بها المرأة إذا تنازل لها الزوج عن هذا الحق ويجعل العصمة بيدها ، وأباح لها أن تشترط فى عقد الزواج شروطا خاصة على أن يفسخ العقد عند عدم الوفاء بهذه الشروط كما سبق بيان ذلك .

* * *

وقد ظهر منذ عهد قريب فريق من المتفرنجين المصريين والمتفرنجات المصريات ينصحون لأولياء الأمور بأن ينزعوا هذا الحق من يد الزوج والزوجة كليهما ويضعوه فى يد القضاء . فلا تطلق المرأة إلا بدعوى تقام أمام القضاء وتقتنع فيها المحكمة بوجاهة الأسباب التى تدعو إلى ذلك . وهم بذلك يريدون أن ينقلوا إلى مصر أحكام القانون المدنى الفرنسى فى الطلاق ويستبدلوه بشريعة الله وإن كانوا لخبثهم لا يصرحون بذلك . ومن المؤسف أن إحدى اللجان الحكومية التى ألفت أخيرا قد أخذت تنقاد لهذا الرأى .

وقد عرضنا فيما سبق للقوانين الأوربية التى تذهب هذا المذهب وعلى الأخص القانون المدنى الفرنسى ، وبينّا بالدليل القاطع ما أدت إليه هذه القوانين من تقويض لنظام الأسرة وانهيار لمقومات الأخلاق . هذا إلى أن معظم أسباب الطلاق تمثل فى أمور لا يصح إعلانها حفاظا على كرامة الأسرة وسمعة أفرادها ومستقبل بناتها وبنيها ، فلو فرض على الناس

ألا يطلقوا إلا بعد إعلان هذه الأسباب أمام المحاكم وتقديم الأدلة القاطعة عليها واقتناع القضاء بها لوقعوا بين نارين : فإما أن يؤثروا عدم فضيحة أنفسهم وزوجاتهم وأولادهم بإعلان أسباب الطلاق أمام المحاكم فيبقوا بذلك على أوضاع تأباها الكرامة ويأباها الخلق الفاضل وتأباها مصلحة الأسرة نفسها ، وإما أن يؤثروا إعلانها فيسجلوا بذلك عارا أبديا على أنفسهم وجميع أفراد أسرتهم .

هكذا إلا أن الإسلام قد قرر نظام التحكيم بين الزوجين فيما يشجر بينهما من خلاف ولكنه قرره فى صورة كريمة نبيلة لا تنطوى على شىء من هذه المساوىء . فقد قرر أن يتألف مجلس التحكيم من حكمين : حكم من أهل الزوج وحكم من أهل الزوجة ، أى من رجلين لا يرى كلا الزوجين غضاضة فى الإفضاء إليهما بذات نفسيهما وبأسباب شقاقهما ، وهما من جهة أخرى لا يقلان عن الزوجين فى حرصهما على كتمان كل ما يسىء إلى سمعة الأسرة المتخاصمة وعدم إذاعته بين الناس لأن كل ما يسىء إلى سمعة هذه الأسرة يسىء إلى سمعة الحكمين نفسيهما لارتباط كليهما بهذه الأسرة برابطة القرابة .

وفضلا عن هذا كله فإن الإسلام قد أجاز تدخل القضاء فى هذه الشئون حينما تدعو إلى ذلك ضرورة ويتوقف على تدخله تحقيق الصالح العام وصالح الأسرة ، فأجاز للقضاء أن يطلق على الزوج فى حالة إعساره وعدم قدرته على النفقة وفى حالة غيبته غيبة طويلة وحيث يدعو إلى الطلاق اتقاء الضرر والضرار كما سبق بيان ذلك .

* * *

هذا هو نظام الطلاق فى الإسلام كما تدل عليه الأدلة الصحيحة الثابتة

من الكتاب والسنَّة ، وهو كما رأينا طريق قويم لا عوج فيه ولا أمت ، وجادة واضحة مستقيمة يسير الإنسان فيها على هدى ونور مبين . نظر فيه إلى صالح المجتمع وصالح الأسرة وصالح الزوجين ، وحفظت فيه حقوق كل منهما بما يطابق العدالة التامة لا يغبن أحدهما الآخر ولا يبغى القوى منهما على الضعيف . أعطى الرجل بعض المزايا ومنح المرأة فى مقابل ذلك حقوقا تستعيض بها عما يلحقها من استعمال الرجل حقوقه . وقد لخص القرآن الكريم هذا كله فى عبارة موجزة بليغة إذ يقول : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾[1] .

هذا هو نظام الطلاق فى الإسلام ، وهو كما رأينا حل ينظر إليه الإسلام كما ينظر إلى جراحة لابد من إجرائها فلا يقرها إلا إذا تعذر الشفاء بغيرها ، وسط بين الإفراط والتفريط لا تسد منافذه حتى تشقى الأسرة بتحريمه كما هو شأن النظام المسيحى ، ولا تتسع كل الاتساع حتى يفقد معه ميثاق الزواج ما له من حرمة وجلال كما هو شأن النظم المدنية فى بعض أمم الغرب ، ولا تتوعر طريقه حتى يتلمسه الزوجان المتكارهان فى الاتفاق على دعوى الخطيئة ووصم الأسرة بعار أبدى كما هو شأن النظم المدنية فى أمم أخرى من أمم الغرب .

ومن هذا يظهر أن خير ما يقدمه القادة والمصلحون إلى أوطانهم فى هذا الموضوع هو عدم الانقياد لاتجاهات المتفرنجين والمتفرنجات ، والعمل على إشاعة الفهم الصحيح لنظام الطلاق فى الإسلام ، وإقامة

---

(١) البقرة ٢٢٨ .

إصلاحاتهم وأحكامهم فى هذا الصدد على قواعد من ديننا الحنيف .

ويفرق الإسلام بين الرجل والمرأة فى الميراث ، فجعل الإسلام نصيب الذكور فى الميراث أكبر من نصيب نظائرهم من الإناث فى معظم الأحوال ، فللذكر مثل حظ الأنثيين فى الأولاد والإخوة والأخوات . وللزوجة من زوجها المتوفى نصف نصيب الزوج من تركة زوجته ، ونصيب الأب من تركة ولده يزيد أحيانا على نصيب الأم ولا ينقص عنه فى أى حال .

وقد بنيت هذه التفرقة على أساس التفرقة بين أعباء الرجل الاقتصادية فى الحياة وأعباء المرأة ، فمسئولية الرجل فى الحياة من الناحية المادية أوسع كثيرا فى الأوضاع الإسلامية من مسئولية المرأة ، فالرجل هو رب الأسرة وهو القوام عليها والمكلف بالإنفاق على جميع أفرادها بالفعل إن كان متزوجا أو سيصبح مكلفا بذلك بعد الزواج ، وعلى الرجل وحده تجب نفقة الأقرباء على حين أن المرأة لا يكلفها الإسلام حتى الإنفاق على نفسها ، فكان من العدالة إذن أن يكون حظ الرجل من الميراث أكبر من حظ المرأة حتى يكون فى ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة التى وضعها الإسلام على عاتق الرجل وأعفى منها المرأة رحمة بها وحدبا عليها وضمانا لسعادة الأسرة .

وقد قال واصف باشا بطرس غالى فى كتابه فروسية العرب المتوارثة : « كان محمد يحب النساء ويفهمهن ، وقد عمل جهد طاقته لتحريرهن ، وربما كان ذلك بالقدوة الحسنة التى استنها فوق ما هو بالقواعد والتعاليم التى وضعها ، وهو يعد بحق من أكبر أنصار المرأة العمليين إن لم يكن أولهم ، فلقد كان بهن رحيما وعليهن حليما ، وكان

لين الجانب كثير العطف عليهن عظيم الاحترام والتكريم لهن ، لم يكن ذلك خاصا منه بزوجاته بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء » .

هذا ما قاله واصف باشا بطرس ، ولا نملك إلا أن نستشهد بقول الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى ﴾[١] .

القاهرة فى : ٧ / ٦ / ١٩٦٩ .

---

(١) النجم ٣ ، ٤ .

المراجع

القرآن الكريم	
الكتاب المقدس	
صحيح البخارى	
السيرة النبوية	لابن هشام
إنسان العيون (السيرة الحلبية)	لعلى بن برهان الدين الحلبى
بلوغ الأرب	للألوسى
نهاية الأرب	للنويرى
إيران فى عهد الساسانيين	لكريستينس ـــ ترجمة د . يحيى الخشاب
نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار	للشيخ الشبلنجى
إحياء علوم الدين	للغزالى
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى
حقوق الإنسان فى الإسلام	للدكتور على عبد الواحد وافى
محمد رسول الله	مولاى محمد على
الرسول . حياة محمد	ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار
الإسلام والنظام العالمى الجديد	مولاى محمد على ترجمة أحمد جوده السحار
الدين القيم	لأبى الأعلى المودودى
المستشرقون والإسلام	للمهندس زكريا هاشم زكريا
نساء النبى	للدكتورة بنت الشاطئ
عبقرية محمد	لعباس محمود العقاد

الروض الأنف — للسهيلي
تاريخ الطبري
مشكلة الحرية — للدكتور زكريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون — لعباس محمود العقاد
أسباب النزول — للواحدي
شرح نهج البلاغة — لابن أبي الحديد
الملل والنحل — للشهرستاني

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

الطبعة الأولى

احمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
ابو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن ابى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة اقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
ابناء ابى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد فرج		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
اهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
اميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الابطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧

		الطبعة الأولى
ام العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
اذرع وسيقان	قصة	يونيو سنة ١٩٥٨
ارملة من فلسطين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	اكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢

القصص الدينى

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ «
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ «
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

محمد رسول الله والذين معه

١ ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢ ـــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣ ـــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤ ـــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥ ـــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦ ـــ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧ ـــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨ ـــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩ ـــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠ ـــ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١ ـــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢ ـــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣ ـــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤ ـــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥ ـــ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦ ـــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧ ـــ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨ ـــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩ ـــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠ ـــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ٣٠٢٣ / ٧٨
الترقيم الدولى ٧ ـــ ٢٤٢ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧